

العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح غايشور

أستاذ تاريخ العمود الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٧ شارع عبد الحالى قنوت — القاهرة

العصر المماليكى

فى مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايش

أستاذ تاريخ المصرون الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحاق بروت - القاهرة

وَلِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ
لصاحبها: محمد عبدالرازق
كنيسة الأرمين في الجيش
تلخيفه ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التاريخ دول ؛ وتاريخ مصر العريق حافل بعدد الدول التي تعاقبت في حكمها . وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عصرًا جديرًا بمزيد من الدراسة والبحث والتحصيل . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام فحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطى ؛ فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى — اقتصادية وغير اقتصادية — التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام .

وإذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداء من الجنسيات الأوروبية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجركس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان . . . حملهم تهمار الرقيق صفاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشتبوا في أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكم وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك في تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التي أبدتها تلك الدماء الجديدة في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي مهدته من جانب التتار حينئذٍ ومن جانب

المسلمين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقع عين جالوت ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطرابلس وعكا وخير وكيثا من ناحية أخرى ؛ ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني والعلمي الحصب الذي صاحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، والذي ظهر أثره وتردد صده في مصر والشام جميعاً ؛ فنحرص على المبالغة في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظر على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامعة في التعليم والتعلم ونشاط ليس له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف ، حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألقت في عصر المماليك في مختلف ألوان المعرفة والتي تكتنظ بها دور الكتب في العالم أجمع ، مشرقه ومغربيه .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي غدت فيه مصر والشام قصبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفكر في ضوئه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك ، وذلك الأراء الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة والأبهة الذي انصف به عصرهم . وما زالت مخلفات وآثار المماليك من جوامع شاهقة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ؛ فضلاً عما حفلت به مراجع العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض ... ما زال ذلك شاهداً على أن ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون بعضاً من فتاتها .

(هـ)

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصراً عادياً من العصور الهادئة أو الحامدة في التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائم : في الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى . . . وفي الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة في التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أو آخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات المدينة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام ، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية ، وتاريخ العالم في أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ، مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر في صورة وحدة مترابطة تبدو في إطارها العام مميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره .

وقد حاولت في هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الثغرة الهامة التي تشكل منها المكتبة العربية ، فخرصت فيه على إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة للعصر المماليكي بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٥١٧ للميلاد ، وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجي لتاريخ ذلك العصر الهام علاجاً موضوعياً شاملاً بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التي لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك مليئة بالمصطلحات الغربية غير المألوفة ، التي لا نجد لكثير منها تفسيراً في القواميس العربية لأنها

(و)

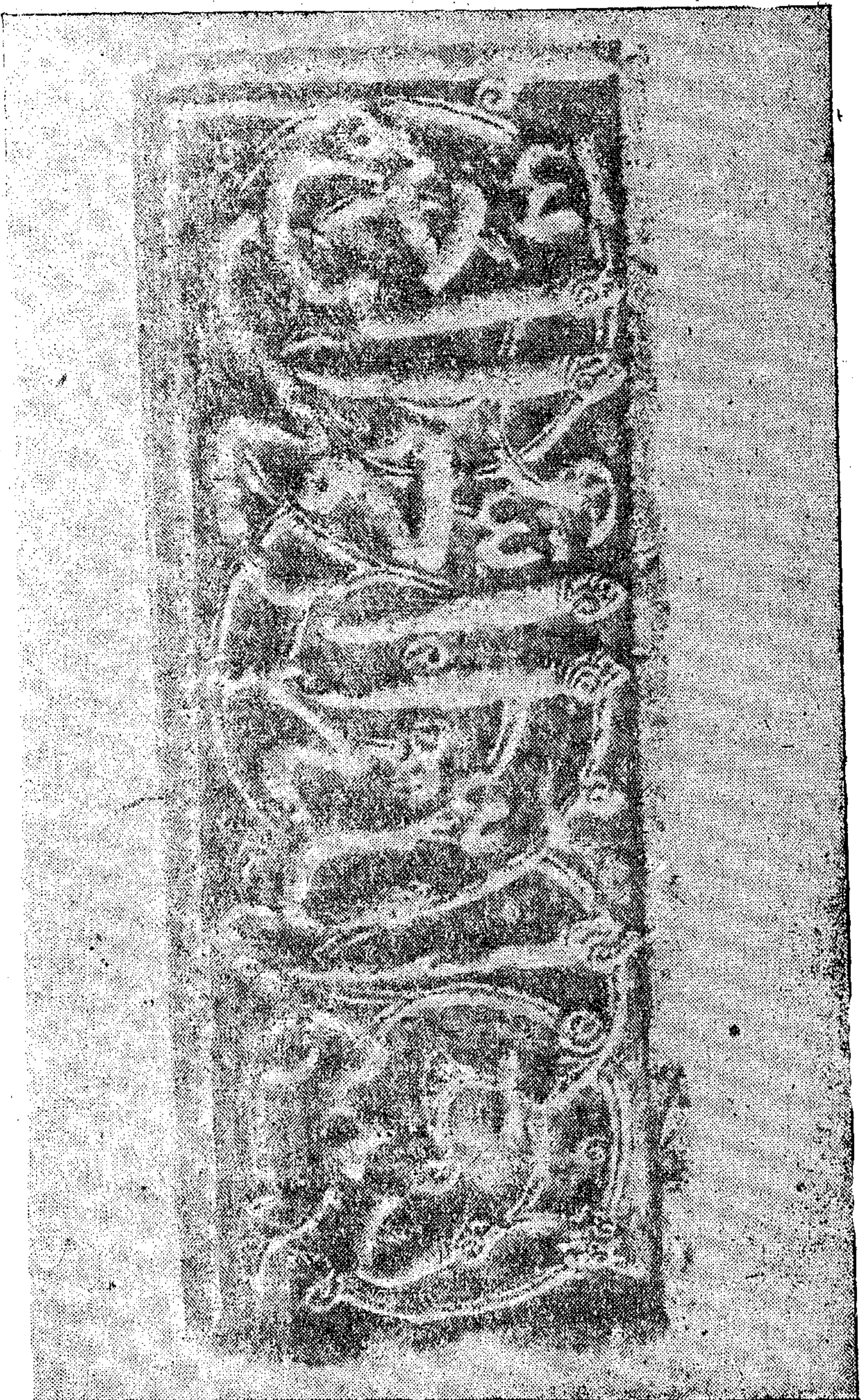
دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التي تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ؛ فإنني رأيت إتماماً للفائدة أن أورد في نهاية الكتاب كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علمياً ، مستعيناً في ذلك بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا في خدمة تاريخ الممالك.

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة في استكمال نواحي النقص في مكتبتنا العربية .

سعيد عبد الفتاح عاشور

ضاحية المعادي في ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ
٣ يناير ١٩٦٥ م

عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام بالخط النسخ المماثلي



الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

نشأة نظام المماليك في الدولة الاسلمية:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي «ملك» ، ويقال عبد ملكه بفتح اللام وضمها إذا سبي وملك دون أبويه . ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « ملكك أيمانكم » و « ملكك أيمانهم » و « ملكك يمينك » أكثر من مرة (١) .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يهلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ، ولكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فىهم ، فلهجأوا إلى الإكثار من شراء مماليك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

(١) انظر مثلاً سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ : وسورة النحل آية ٧١ .
وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .
(١ — العصر المماليكى)

ولم يلبث أن شاع استخدام الممالك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يهترونها من ممالك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالممالك الذين يجلبون صفاراً يحظون بعطف ساداتهم وأساتذتهم فيتمحرون ويزداد نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنتوها .

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ الممالك حتى إقلموا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي . وهدم ما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من الممالك الديلمية والأتراك ؛ حتى ذكر ابن أبي عمير أن ممالك أحمد بن طولون بلغت أربعة وعشرين ألفاً^(١) . فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طنج الأخشيدي دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على الممالك من الأتراك والديلم حتى بلغت عدة ممالك ثمانية آلاف مملوك ، على قول أبي المحاسن^(٢) . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الآخرين في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكلوا من الاعتماد على الممالك — الترك وغير الترك — وبذلك حافظوا على سياسة الطولونيين والأخشيديين في الاعتماد على الممالك وهكذا حتى قامت الدولة الأيوبية لتفتتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والممالك جميعاً .

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٩ ص ٣٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩٠ .

ازدياد نفوذ المماليك في عصر الظُيُوبيين :

والواقع إن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يسترعى الالتباه . ذلك أن وريثة صلاح الدين — من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته — اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماه ... وغيرها مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي (١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين وريثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كقامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار ، وكيفا وآمد وخر تبرت فضلا عن بني مكان في خلاط ... من ناحية أخرى .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمّت العلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في تحقيق مطالبه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد (٢) . ولم يجد أمراء المسلمين — من أيوبيين وغير أيوبيين — وسيلة يتقنون بها في أوجه خصومهم سوى المماليك — أو الرقيق الأبيض — ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبتهم وإنشأتهم ليكونوا عدة وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والنصف الأول من

(١) عماد الدين السكاتب : الفتح النسي من ٣٥٨ — ٣٥٩ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ من ٣٦٨ — ٣٧٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ من ٢٢٦ .

(٢) سميح طهشور : الحركة الصليبية ج ٢ من ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر ، وسرعان ما غدا أولئك المماليك كلفة مسدوعة في الأحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما تزويه المراجع من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر في نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتعالج العادل أخو صلاح الدين للاستيلاء على مصر ، خشي المماليك الأسدية والصالحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً واستدعوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ (١) .

وخلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء ممالك صغار من الرقيق الأبيض وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر ، واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينة في أيدي سادتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم وهيبتهم ، وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين -- وبخاصة العادل والحكام بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أسراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

المماليك البحرية :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني

(١) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

وإحلال الصالح أيوب محله في السلطنة^(١) وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه ، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بمملكته ؛ فأكثر من شراء المماليك وعفى بهم غداة فائقة جعلت نفوذهم يتضخم في صورة ملموسة على أيامه . ويروى المؤرخ العيني أن الصالح نجم الدين أيوب جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء المسكر ممالكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دمايره وسماهم البحرية^(٢) .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على ممالك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع - وهو الأرجح في نظرنا - يقول إن هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف ، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق ، ومن ثم سموا بالبحرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً ، بعد أن انفض عن الصالح أخواه من الأكراد وغيرهم . ولم يلعب أن استغل المماليك البحرية سطوتهم في اللعب بمصالح البلاد والعباد ، فأكثروا من الاعتماد على أموال الناس وأرزاقهم ، الأمر الذي دفع بعض الشعراء إلى التنديد بهم وإلى إلقاء تبعه أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه ، ومن ذلك قول الشاعر :-

(١) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوباً بفعله فالتاس قد أصبحوا في ضمر أيوب (١)

على أن أولئك الممالك البحرية الذين أسرفوا في العبث بمصالح الناس
واسفثروا غضب الأهالي بعدوانهم وشرهم ، سرعان ما أثبتوا كفايتهم في
التغلب على أكبر خطارين خارجيين واجها مصر - بل الوطن الإسلامي في
الشرق الأدنى - حوالي منتصف القرن الثالث عشر ، وهما خطر الصليبيين
وخطر التتار . ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤
استثاوا الغرب الأوروبي من جديد ، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨
على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر . ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج
من غرب أوروبا بنية الاستيلاء على مصر بالذات ، فقد سبق لمصر قبل ذلك
بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة
حفايرين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً ،
لكونها أكثر عداً وعدة وأوفر تنظيماً ، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك
من أعظم ملوك الغرب الأوروبي وأشد هم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية .

ثم إن الظروف التي ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على
إكساب تلك الحملة قصداً من التطور بالنسبة لأوضاع مصر الداخلية . ذلك
أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذي كان السلطان
الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ؛ ولم تذكر الأخبار أصل مساهمته من
قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في محفة إلى مصر حيث نزل في

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣ ،

جمال الدين سرور : الظاهر ببصرى ص ٣٨ . ويلاحظ أن الشاعر يشير إلى الآية
الكرمية « وأيوب إذ نادى ربه أنه مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » .

أشهر طناح ليرقب الموقف^(١) . وهكذا أتى الصليبيون مصر في وقت كان سلطانها مريضاً لا يقوى على الحركة لمنازلتهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط في يونيو سنة ١٢٤٩ هـ وملكها الفرنج بغير قتال ، . ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط في قبضة الصليبيين ووبخ المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم في الدفاع عنها وقال لهم « ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج ؟ » وقد تخوف المماليك عندئذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم « اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم »^(٢) .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت . وفي الوقت الذي شرع الصليبيون في الزحف من دمياط تجاه الجنوب ، توفي الصالح أيوب في المنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ هـ^(٣) .

المماليك الجبرية وإزال الهزيمة بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة خسارة جسيمة ، لعدم وجود من يحمل مهامه بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ، وهو شاب عديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه في حصن كيفا^(٤) . ولكن شامت الظروف أن تظهر في

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) .

(٢) العيني : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو الفحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

محرم الصالح أيوب امرأة قوية هي أرملة شجر الدر ، التي قدرت خطورة الموقف فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت تستدعي نور انشاء على عجل من حصن كفا ، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً (١) .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي حلت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعندما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع نهر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يهربوا بمرأشوم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور نهر أشموم ، وعندما اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة وافتحمتها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دي أرثوا أخى لويس التاسع (٢) .

وفي تلك المرحلة ظهرت الممالك البحرية على المسرح لينفذوا الموقف . ذلك أن الممالك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليقبضوا في أزقتها ، وعندما اندفعت الطائفة التركية من الجوامدانية والبحرية الساحلية وحملوا على الفرنجة حملة رعن عن وهدمت بليانهم وأفادخوا عليهم عربا ذوا كفا وقتلا وإهلاكا ، فكانت عدة القتلى منهم ألفا وخمسمائة وولوا منهم مائة (٣) . وبذلك استطاع الممالك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويحيوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن الممالك لم يتركوا الصليبيين يهودون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ - - ٣٦٣ (مخطوط) .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ١٥٣ - - ١٥٤ .

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

بأ كناه تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه
الذى سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار فخر الدين إبراهيم
ابن لقمان (١)

نهاية الدولة الأيوبية فى مصر :

وفى تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر فى
نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ . أى بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أهلك تورانشاه
سلطاناً فى دمشق ، وهو فى طريقه إلى مصر ، وفتن من الناس بطاعته ، وترقبوا
خيراً على يديه . ولكن المراجع أجمعت على أن السلطان الجديد لم يكن
رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشئون الحكم والسياسة ؛
حتى لقد وصفه سبط بن الجوزى بأنه : كان سوء التدبير والسلوك ذا هوج
وسخفة (٢) .

وكان مفروضاً أن يقدر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذى نهم
عن انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون فى صورة أصحاب
الفضل فى تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلاً من أن يصانع
تورانشاه المماليك ، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وكرامة ، وسيطر
عليه شعور بأن المماليك يزاحمونه الحكم ويقاسمونهم سلطانه . ولم يلبث أن أضمر
تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يشرب
الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

(١) المهربرى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ .

أبو الخاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

هـ هكذا أفعل بالبحرية ؛ ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . (١) وليت تورانشاه حفظ الخيل اروج أبيه شجر الدر ، بل نسي أنها حرسته ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تستدعيه على عجل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح أيوب ؛ فاتمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهددها ويطلبها بما تحت يدها من الجواهر هـ فدخلها منه خوف كثير ، وكانت الممالك البحرية . وهكذا استثار تورانشاه سياسته الحقاء الممالك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية في البلاد وقتئذ ؛ واكتفى بمجموعة من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها الممالك .

وكان أن استقر رأى الممالك على التخلص من تورانشاه بالقتل ؛ واستحثتهم على ذلك زوجة أبيه شجر الدر التي باتت تخشى على نفسها من غدر تورانشاه فأرسلت إلى البحرية تقول هـ اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم ا ، وقد توهم المؤامرة مجموعة من أمراء الممالك على رأسهم بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحى وأقطاي الجامدار وأبيك التركمانى . ولم يكد تورانشاه ينزل بخارسكور في ٢ مايو سنة ١٢٥٠ حتى بادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر تورانشاه ليتمى بكشك خدي كان قد أعد لإقامته في فارسكور . ولما أغلق تورانشاه أبواب الكشك عليه ، أشعل الممالك النار فيه ، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه في النيل وقد اشتعلت النار في ثيابه ، وأخذ يصبح هالبا النجاة ، ولكن الممالك لاحقوه بالنشاب من كل ناحية وهو يصبح هـ ما أريد ملكا دهونى أرجع إلى الحصن (كيفا) ، يامسلمين ! ما فيكم من يسطنوني ويجهزنى (٢) ، ولكن أحدا

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتقدم لاجدة تورانشاه ، فأتت جريحاً غريقاً محترقاً - على قول المقرئ -
وتركت جثته ملقاة في العراء على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على
دفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي وهندتند ووري في التراب (١)

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر .

السلطنة شجر الدر :

غدا المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في
شئون البلاد . وقد اختار المماليك شجر الدر - أرملة أستاذهم الصالح
أيوب - لتكون سلطنة على البلاد . وكانت شجر الدر حارية تركية الجنس
- وقيل بل أرمينية - اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده ، حتى أعتقها
وتزوجها ولذلك فهي من ناحية الأصل والنسب أقرب إلى المماليك ، حتى
اعتبرها المقرئ أول سلاطين المماليك في مصر ، وأول من ملك مصر من
ملوك الترك المماليك ، (٢).

وكانت أولى المشاكل التي واجهت شجر الدر في سلطنتها هي مشكلة
الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه
المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع - أسير
المنصورة - وتمت تأثير التهديد تم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق
الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ
عهد العادل الأيوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨١ ،

المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلاً ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثاني وهم الفرنسيون فقد وافقوا على إخلاء دمياط والجلاء عن البلاد ، كما تعهد لويس بعدم العودة إلى هـ سواحل الإسلام مرة أخرى . وقد تحدد أجل الصلح بعشر سنوآت . ولم يلبث أن تسلم المماليك دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وعندما نهجت السلطنة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح نجم الدين أيوب . هل أن ذلك كله لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر في أعين المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطنة الجديدة كانت قبل كل شيء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل أن يبدلوا زمام حكمهم لامرأة . ويبدو أن شجر الدر نفسها أحسّت بوضعها الغريب ، الأمر الذي جعلها تسرف في التقرب إلى أهل الدولة ومنحهم ازرب والإقطاعات فضلاً عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ؛ وبالجملّة فقد ساءت الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالخرج من قيام امرأة في حكمهم ، من أن السلطنة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشدات تصدر من القلعة وعليها علامتها أم خليل ، ونقش اسمها على السكة والنقود في صيغة المستعصمية المحلية ، ملكة المسلمين ، والدّة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين ، أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمساجد اللهم وأدم سلطان السمر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدّة الملك خليل ، وبعض

(١) Jouiuville, p. 194 &

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول - بعد الدعاء للخليفة العباسي - « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح ، . وفي جميع هذه الألقاب لانهس اسم شجر الدر الأمر الذي يعبر عن شعور الاستحباب وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بأن تنسب إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب « أم خليل » لتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة هورة من هورائها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبي ، وبالتالي فإنها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعي فيه . لذلك حرصت السلطنة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحة » لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضفي على سلطنتها هالة من الشرعية تجعل المعاصرين يصرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي أن مقاليد حكمهم غدت فعلاً في يدى امرأة .

ومع ذلك ، فإن جمع تلك الحيل لم تفلح في دعم موقف السلطنة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيمورية في دمشق أن يخلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطنة أم خليل ، ونارت ثائرة الأمراء والملوك الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل تورانشاه وقيام شجر الدر في الحكم لأنهم وجدوا في ذلك خروجاً للسلطنة من يدهم . ولم يلبث أن التهب الموقف في بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيأخذون موقفاً حازماً هجومياً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك السعيد حسن الأيوبي على غزة وقلعة الصيبرة ،

وثار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب السكر والشوبك ، وملك الملك
المفتى عمر الأيوبى على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيصرية
مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبى (١) . وبذلك
خرجت بلاد الشام بأكملها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجبهة الإسلامية
فى الشرق الأدنى مرة أخرى فحدث مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى
قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ،
فتمسكت بقلب المستعصمية ، نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسى ؛ بل على
العكس وجد الخليفة العباسى فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى
حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر عاب فيه على الأمراء وموقفهم ،
وقال لهم هبارته المشهورة : إن كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلموا نا حتى
نسير إليكم رجلاً (٢)

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت
بها مظاهر الكره فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق
الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ
أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن المعارضين
لشجر الدر انهموها بالتفريط مع الصليبيين وأنها المسئولة عن إطلاق سراح
لويس التاسع ملك فرقتا ، وهو الذى خرج من مصر ليؤيد نشاط الصليبيين
فى بلاد الشام . ولانخروج من ذلك المأرق خلعت شجر الدر نفسها من ملكة
مصر ، فوافقت على الزواج من الأمير عز الدين أيبك - أتابك المسكر -
على أن تترك له وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠

(١) المقرئى : السلوك ، ج ٩ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها
مهارة فائقة وكفاية ممتازة (١) .

السلطانة المماليك : (١٢٥٠ - ١٢٥٧)

كان عز الدين أيبك أحد المماليك الصالحية ، ولكنه لم يكن من طائفة
المماليك البحرية ، ترقى في خدمة السلطان الطالح أيوب حتى أصبح من الأمراء
وتولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيبك أتابك المعسكر أى قائد
الجيش ، حتى تخرج موقف شجر الدر في الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ
وافق الأمراء على زواج أيبك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة وكان
أيبك معروفاً بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ، ولكنه يبدو أن هذا
لم يكن السبب الرئيسى الذى جعل المماليك - ومنهم طائفة البحرية - يجمعون
على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء
وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشاهم الناس جميعاً ، قال الناس لى
أيبك : لأنه من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم ، فى حين أبدى عماء
البحرية - مثل إقطاي ويبرس وقلاون - اختياره للسلطنة لاعتقادهم
أنه سهل ومتى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكرته ، (٢) ١

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد في الداخل والخارج .
وكان أول خطرين تعرض لهما ما خطر الأيوبيين في الشام وخطر البحرية في مصر .
أما ملوك الأيوبيين في بلاد الشام فقد غلوا في حالة نقمة وثورة ، وأخذوا

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٠ ، المريزى : السلوك ص ٣٦٧ -

٣٦٨ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة. وأما المماليك البحرية، فقد هن عليهم أن يتولى أيك السلطنة وهو ليس بحرياً، فتأروا بعد خمسة أيام من إعلان أيك سلطاناً وقالوا « لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجمع الكل على طاعته ^(١) ». ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للبحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم، ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستاراً يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية.

وكان أن وقع الاختيار على صبي صغير من بني أيوب - هو الملك الأشرف موسى - لجهلوه شريكاً للسلطان المماليك في السلطنة « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أماله ». وهكذا بدت ظاهرة غريبة هي اشتراك سلطانين - المماليك التركاني والأشرف موسى الأيوبي - في حكم مصر فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمماليك، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير وجميع الأمور بيد المماليك ^(٢). وكان الأشرف موسى في السادسة من عمره، الأمر الذي جعل زعماء البحرية - مثل أقطاي الجدار ويبرس البندقداري وبلبان الرشيدى وسنقر الروم - يرحبون بذلك الطفل، حتى يدبرونه كيفما شاءوا وبأكلون الدنيا به ^(٣)، على قول أبي المحاسن ^(٤). أما المماليك فقد رأى في إشراك ذلك الصبي معه وسيلة طيبة لتخدير بني أيوب وتسيكين ثورتهم.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم، فقرر الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق الزحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفي تلك الأثناء أثبت السلطان المماليك أيك أنه أقوى

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٠.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٥.

بما ظنه عليه البعض ، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميلهم
للأيوبيين ، وأعلن في القاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن
الملك المنصور نائبه فيها (١) . هذا إلى أن أيك خشي حدوث تفاهم بين
الأيوبيين في الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذي كان عندئذ قابلاً في
هكا يرقب الموقف ، ولذلك حاول أيك أن يتقرب من الملك الفرنسي بأن
أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من السجون المصرية . وفي
الوقت نفسه أراد أيك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على
مصر لئلا يثار مما حل به من هزيمة في المنصورة ، فأمر أيك بهدم تحصينات
مدينة دمياط و حتى خربت كلها ومحييت آثارها ، وبذلك لا يتمكن الصليبيون
من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد .

أما زعماء البحرية فقد نسوا في تلك الأزمات مصيبتهم الصغيرة الضيقة ،
وتذكروا العصية المماليكية الكبيرة التي تحمل منهم ومن أيك وبقية المماليك
كتلة واحدة أمام الخطر الأيوبي الذي هدد مستقبل المماليك جميعاً . وهكذا
خرج المنصور أيك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة ، فحلت الهزيمة برجال
المنصور أيك ولسكنهم هادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسية في فبراير
سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام وعاد المماليك ظافرين
ومعهم الأسرى إلى القاهرة (٢) .

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تحس بخطر التتار الذين اقتربوا
بزحامة هولاكو من العراق . وقد رأى الخليفة المستعصم العباسي أن يعمل
بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام
خطر المغول الوثنيين ، ولذلك أرسل رسولاً إلى الملك الناصر (يوسف)
صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المنصور (أيك) وأن يتفقا على حرب

(١) المهرزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) — المصرا المماليكي

التتار^(١) . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فعقدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام الأيوبيين^(٢) . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيك فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ لحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وسجنه^(٣) .

على أن الأمور لم تهدأ لأيك في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفروا أن يخضعوا لحكمهم ونادوا بأنهم « أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وقد اتخذتمرد الأعراب شكل ثورة "جامحة" ، فاختاروا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيماً لحركتهم . ولكن السلطان المماليك استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه^(٤) .

ولكن إذا كان أيك قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

التي واجهته بمساعدة المماليك البحرية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاي حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيك وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا في تولية أيك السلطنة لا اعتقادهم في ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم في سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيك في صورة السلطان القوي الذي نهج في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التي واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيك ليجد أن جميع الانتصارات التي كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً فالياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم و ساروا إلى القاهرة ومصر أنحس سيرة من العسف بالناس والجور . أما أقطاي زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيك ونفوذه فطش وتجهز وبغى وتكبر ... وأمره مطاع في الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز (أيك) معه باسم الملك لا غير ،^(١) وقد بالغ أقطاي في احتقار السلطان أيك فصار لا يسميه إلا أيكا ، كما أخذ أقطاي ينتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التي كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه بالملك الجواد^(٢) .

وأخيراً خطب أقطاي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماء ، ثم طلب من المعز أيك أن يسكنها قلعة الجبل ، لتكونها من بنات الملوك ولا يلبق سكنها بالبلد ، وعندئذ أدرك أيك ما يحول بنفس أقطاي ، لأن قلعة الجبل في ذلك العصر كانت المقر الرسمي للحكم ، فكان معنى طلب أقطاي أن نفسه د حديثه بالملك . هذا إلى أن زواج أقطاي من أميرة من أميرات البيت الأيوبي كان كفيلاً بأن يجعل له سنداً شرعياً في الحكم ، وهو أمر

(١) ابن أيك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأبيك . لذلك قرر أليك التخلص من أقطاي بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أليك وهبوه بالسيوف حتى مات ، (١) .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة ، فاجتمع بيبرس البندقدارى وقلاون الألفى وسنقر الأشقر ويبرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاي ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أليك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاي من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أليك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذى عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢) .

وقد بدت تلك الحركة التى اتخذها أليك ضد البحرية وقد خلاصته من خطر جسيم ، إذ استطاع أليك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودى في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقة أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهرى ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا ثأرهم وظلوا يسبون المتاعب لأبيك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن اتصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ ويذكر المقرئى أن قطز . الذى ولى السلطنة فيما بعد كان ممن شاركوا في قتل أقطاي .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٢ .

وأغروه بفتح مهر ، وفعلًا ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعز أيك .
سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة
الخليفة العباسي (١)

والغريب أن أيك الذي ثبت ذلك الثبات في وجه خصومه في الداخل
والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ما واجهه من مشاكل متعددة ، جاءت
نهايته أخيرًا على يد زوجته شجر الدر التي ذقت طعم السلطان وتولت السلطنة
فعلًا ثمانين يومًا ، من عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهي
من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها د صعبة الخلق قوية
البأس ، كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت د سكرانة من خمر العجب
والتيه ، (٢) وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن
يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز
الدين أيك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلي عن السلطنة لترضى شعور المسلمين
ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم في أيك
وشئون الدولة جميعًا . وفعلًا أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد
السلطان المعز أيك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده علي ، وحرمت
عليه زيارتها هي وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر د مستولية على أيك
في جميع أحواله ليس له معها كلام ، (٣)

ولم يلبث أن ستم المعز أيك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من
غائلتها لا سيما بعد أن أخبره أحد المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأة . وكان

(١) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطاب المعز أيك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، ففضيت شجر الدر لذلك « وكانت شديدة الغيرة » ، وقد أسرعت شجر الدر في تدبير مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيك - الذي كان قد غادر القلعة في منظر اللوق - تسترضيه وتطلب عفوّه ، فتدع أيك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث احتفت به حفاوة بالغة . ولم يكد أيك يدخل الحمام في الليل ، حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أهدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاعت شجر الدر أن المعز أيك مات فجأة أثناء الليل ، ولكن ممالك أيك لم يصدقوها وهبوا للنار لاستأذهم فقبضوا على شجر وبعض أهوانها . ويقال إنه بلغ من صلابة شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على الوقوع في أيدي أعدائها جمعت معظم مالهيا من جواهر ولآلىء وألقتها بأن كسرتها في الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضررتها أم علي بن أيك من بعدها (٢) . ولكن ذلك كله لم ينجها من سوء المصير ، فقتلها ممالك أيك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، إلى أن دحمت في قفّة ، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيك وشجر الدر جميعاً (٣) .

السلطان المنصور علي بن أيك : (١٢٥٧ — ١٢٥٩)

لم يؤمن الممالك بنظام وراثّة العرش . ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذي جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً

(١) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء المماليك عقب وفاة كل سلطان. وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الامراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلاً من أبيه ، لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينبجلى الموقف بين الامراء ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الامراء ، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل .

وكان هذا هو الموقف فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك ، إذ اجتمع كبار الامراء واختاروا ابنه نور الدين على - الذى تلقب بالمنصور - سلطاناً ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبي أن يصمد فى وجه كبار الامراء أو أن يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيبك أنه كان يقضى وقته فى التلمى بركوب الخيل والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسرعان ما ظهر التنافس بين كبار الامراء فى الدولة ، فقبض الأمير قطز - الذى كان نائب السلطة وأقوى الامراء نفوذاً فى شئون الدولة - على الأمير علم الدين سنجر الحلبي أنابك العسكر ، وعين بدله فى ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاي . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطز وأنه ينوى عزله مع بقية المماليك المعزية ، ولكن بعض الامراء توسطوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطز المعزى من ناحية أخرى^(١) وهكذا عاشت القاهرة فى تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهى المظاهر التى نشأت عن قيام صبي قاصر فى السلطنة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ - ٤٣ .

ومجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسى السلطنة .

وفي ذلك الوقت كان المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام في عهد المعز أيبك بعد مقتل كبيرهم أقطاي ، مازالوا يتحينون الفرص للثأر لأنفسهم . ولم ينس زعماء البحرية بالشام أن السلطان المنصور على إنما هو ابن المعز أيبك الذي تسبب في تشريدهم ومقتل زعيمهم ، كذلك لم ينسوا أن الأمير قطز نائب السلطنة في مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هربوا بسيوفهم على رقبة أقطاي تنفيذاً لأوامر المعز أيبك ، وكانت العلاقة قد ساءت بين الناصريوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحرية بالشام من ناحية أخرى ، فاتجه البحرية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبي في ملك مصر^(١) . وفعلوا استجاب المغيث عمر لدعوة البحرية فأمدهم بالمال والسلاح وخرج البحرية متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصري لصد خطر البحرية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة عند الصالحية ، حيث أسر منهم بعض الأمراء مثل قلاون الألفي وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلاحق بأصحابه^(٢) .

على أن البحرية لم يكفوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فاتهمروا فرصة الفوضى التي حلت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ، وزينوا المغيث عمر مرة أخرى للخروج معهم لأخذ مصر . وفي تلك المرة - سنة ١٢٥٨ - خرج المغيث عمر بنفسه معجبة البحرية ، ولكن الأمير قطز تصدى للغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى عند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو القدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .

إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار^(١) . ويبدو أن حركات البحرية في ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبي فتصدى لهم وأخذ يطاردهم ، وهدد المفتي عمر بتسليم من لديه منهم ، وكان ذلك في الوقت الذي اشتد خطر التتار ليهده الأيوبيين والمماليك جميعاً في الشام ومصر .

ذلك أن الأخبار أخذت تترى - سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامة هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد ، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم . وفي ذلك الموقف الحرج وجد قطز فرصته سانحة لعزل الصبي المنصور علي بن أيبك والجلوس محله على كرسی السلطنة ، فجمع د الأعيان والأمراء بالديار المصرية ، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب ، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطيحه كل أحد ، وينتصب للجهاد في التتار . فأجابه الجميع : ليس لها غيرك !! ،^(٢)

وهكذا تم الأمر لقطز ، فقبض على المنصور علي بن أيبك وأخيه قاتان ابن أيبك وأمهما ، واعتقلهم جميعاً في برج بالقاهرة ، وتولى هو السلطنة بأقب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩ .

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) أبو المحاسن : الذجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٥٥ .

الفصل الثاني

الممالك والتتار

سقوط المملوكية العباسية في بغداد :

عرفت قارة آسيا في التاريخ بأنها المخزن البشري الضخم الذي خرجت منه غزوات كثيرة في العصور الوسطى لتؤثر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في أوضاع بلدان الشرق الأدنى حينئذ ، وبلدان شرق أوروبا ووسطها أحياناً . ويفسر الباحثون تلك الغزوات التي تدفقت من جوف القارة الآسيوية في العصور الوسطى في ضوء العامل الاقتصادي ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان وزيادة ضخمة وتناقص الأمطار في بعض الأوقات ، مما يدفع الشعوب الرحوية الآسيوية إلى الهجرة في صورة غزوات هدامة ضخمة ، فتدمر الزرع والضرع وتحرق في طريقها المدن والقرى ، ولا يعنيها في كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجوع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نهج زعيمهم جنكيزخان في توحيد قبائلهم ثم في الاستيلاء على الصين في أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غدا التتار قوة رهيبية لم تقنع بالاقليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى ، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حريياً عنيفاً واسع النطاق .

ويمننا من أمر تلك الغزوات المغولية التي شهدتها النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أن منكوكخان - خاقان التتار الأعظم - أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والعراق ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن . وفعلا لم يكبد
ينتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قهضوا على الدولة الخوارزمية
وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس ؛ وبذلك
جاء دور الخلافة العباسية في بغداد (١) . وكانت الخلافة العباسية عند منتصف
القرن الثالث عشر - في عهد الخليفة المستعصم بالله - تعاني آلام الموت ؛ بعد
أن عتراها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة
الأمراء على الخلافة وشؤونها ؛ ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود على وجه
الغزو المغولي للعراق سنة ١٢٥٧ . في الوقت الذي فشلت جهود الخليفة المستعصم
العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في العراق ومصر لصد ذلك
الخطر (٢) .

وهكذا اقتحم التتار بغداد في فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها
في مذبحه رهينة استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار في المدينة بعد ذلك
فأنت على كثير من تراث العباسيين - بل تراث الحضارة الإسلامية - في
الأدب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم بالله العباسي فقد قتلته التتار في ٣٠
فبراير بعد أن حصلوا منه على كل دماء كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال
خمسة قرون ، (٣) . ولم يكتف التتار بقتل الخليفة العباسي نفسه بل أرادوا
أن يحدثوا مذبحه لاستئصال جذور البيت العباسي كله فقهضوا على كل شخص
وجده حيا من العباسيين ، (٤)

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ص ٢٩٤ .

التتار في الشام

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمرأؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلما استولوا على بلد - يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جندهم ولا كورسله و أقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم^(١) وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسليمان سلاجقة الروم . وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمرأؤهم بالشام فلم يسكنوا أحسن حالا ، إذ أسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ هـ بتحف وتقدم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه ، لعلمه بعجزه عن «التقى التتر»^(٢)

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

(١) رشيد الدين الحمذاني : جامع النوارينج م ٢ ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

إذ لم يكن إعلان ولاتهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظار هولاء عن الشام .
وقد بدأ التتار هجماتهم ضد بني أيوب بالاستيلاء على ميا فارقين في ديار بكر ،
وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل دحمه ، وعندما استولى التتار
على تلك المدينة ذبحوا من فيها من المسلمين ، في حين قطعوا جسد الكامل
محمد الأيوبي إرباً وحملوا رأسه على حربة ليظاف بها في جميع أنحاء الشام من
حلب إلى دمشق (١) .

أما الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل
ابنه العزيز إلى هولاء ، لأن الأخير تخرج بأن هدم حضور الناصر يوسف
بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له . ويرى
المقريزي أن العزيز طرد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاء كوصف له فيها ما حل
ببغداد على أيدي التتار ويذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد
أو شرط (٢) . وفي تلك الأثناء لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى
المماليك في مصر ، فأرسل إليهم صاحب كمال الدين بن العديم ليطلب معونتهم
لمواجهة خطر التتار ، فوعده المماليك بالمساعدة (٣) .

وهنا يصح أن نشير إلى أن غزو التتار لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً
صليبياً ذلك أن زوجة هولاء وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري ،
الامر الذي جعل هولاء كوصف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين في
الشرق الأدنى . وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق
الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصة طيبة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية
فأنصلوا بهم واستأثروا بهم ضد المسلمين . وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة

(١) D' Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(٢) المقريزي : السلوك س ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ — ٧٣ .

ما يثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحي اتصل بهولا كور رسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتداع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمها المسيحيون (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكرديستان على الجزيرة ، واستولى هولا كور على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقدر رفض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقطعوا المدينة في يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلا وأسرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام ، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولا كور ، في حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار . ولا شك في أن تحاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولا كور بعد ذلك الاستيلاء على دمشق في مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام في الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

السلطان المظفر قطز : (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

وفي تلك الأوقات التي شهدت سقوط بلاد الشام في أيدي التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف ليعزل على بن أيوبك وإعلان نفسه سلطانا ، كاسبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون للسلطان المظفر قطز بأنه « كان بطالا شجاعا

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) Greasset : Hist. des Croisades, Tome III, p587.

مقدماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار. (١)

والواقع أن قطار تولى منصب السلطة في ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ كان مطالباً منه أن يصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه. ولم يكبد قطار يستل عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاء كور يطلبون منه الاستسلام وينذكرونه بما فعله المغول وينذكرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة؛ ... فلما سمع بجميع البلاد معتبر وعن منازعة مزدجر، فاتهموا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعالينا بالطلب. (٢)

ولكن قطار لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنها والإفادة منها. وكان أن جمع السلطان قطار الأمراء واستشارهم في الأمر فقرروا المقاومة وعدم الاستسلام، وعندئذ أمر قطار بتوسيط رسل التتار — وكانوا أربعة — فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثاني عند باب ذويلة، والثالث عند باب النصر والرابع بالريدانية، ثم علفت رؤوسهم جميعاً على باب ذويلة (٣).

وفي تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية — الذين كانوا مازالوا هائمين على وجوههم بالشام — روحاً طيبة وحماة نادرة بما كان له أثر كبير في التغلب على التتار. وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية يصرون على مقاومتهم وعدم الاستسلام لهم. ويقال إن أحد أمراء دمشق — وهو زين الدين

(١) أبو الحسن : النجم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ .

(٢) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٣) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٩ .

الحافظي — أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام لهولاكو والدخول في طاعته ، ولكن الأمير بيبرس البندقداري — وهو أحد زعماء البحرية — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وصنع الأمير الحافظي على وجهه قائلا : أنتم سبب هلاك المسلمين ،^(١) وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس البندقداري ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار وقد رحب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله وأقطعهم قلوب وأعمالها^(٢) . وبذلك تماسك المماليك جميعا بحرية وغير بحرية — وأظهروا روحا طيبة لمواجهة ألدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفي الوقت الذي أظهر المماليك جميعاً تماسكا عظيما في صد خطر التتار ، إذا بالظروف نفسها تساعدهم في التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن منكوخان خاقان المغول العظيم توفي في أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه ، رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار في جوف آسيا ، فعاد إليها تاركا قيادة جيوشه بالشام لقائده كتيغا . ولا شك في أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي أخذ السلطان قطز يعددته لمواجهة خطرهم^(٣) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام للملاقاة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمراء في السير بعد أن تذكروا ما أحاط تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العبث في نظر كثير من المعاصرين . ولكن السلطان المظفر قطز هب في أمرائه صائحاً : يا أمراء المسلمين ! لكم زمان نأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون . أنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يحتر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين (١) .

وبمثل هذه الروح واصل الجيش المماليكي زحفه في اتجاه الشام في يولية سنة ١٢٦٠ . وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى اتجه إلى غزة ، في الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا . وقد أرسل بيدرا إلى كتبغا — الذى كان عندئذ فى بعلبك — يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكى ويطلب منه النجدة ، ولكن كتبغا رد عليه قائلاً : قف مكانك وانتظر ، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه . على أن المماليك فوتوا على التتار فرفضهم ، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى (٢) .

وكان لو وصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين في كافة مدن الشام ، إذ أروا فى ذلك النصر بادرة أمل ، وتشجعوا على مقاومة التتار (٣) . وفى الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظر فلم يحاولوا استئثار الصليبيين وحرصوا على معاملتهم حتى لا يماربوأ خصمين فى وقت واحد . وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الصليبية يستأذنونها فى السماح لجيوشهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٤٢٠ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ، فوافق الصليبيون على ذلك الطلب (١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بحذاء الساحل ، ومن الممالك بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا ؛ بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نخدة ، فمكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه ، (٢) . وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على ما لهم من ميرة وموئن ، اتجهوا شرقاً عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة . لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت — بين ييسان و نابلس — وترك مقدمة الجيش بقيادة يبرس تابع سيرها وحدها تجاه التتار . وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل و وكأنه بحر من الذهب بسبب الغيرة والغضب ، فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ (٣) . وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ؛ حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته دوا إسلاماه ، وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً ، وولوا الأدبار لا يلوون على شيء . أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتلاً (٤) .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة . فلوانتهصر التتار فى تلك الموقعة لفعلوا

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٥ - ١١٣٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل لأقاموا واستقروا بالشام مثلما أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى في دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً في تاريخها . ولكن انتصار المماليك في عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من همجية التتار ، بل أنقذ الشام أيضاً ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بهم في عين جالوت^(١).

ولكن مع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم في موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهي العوامل التي تستمر عادة في التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصي لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سلبياً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإزال ضربة قاصمة بالعدو المشترك ممثلاً في المسلمين . كذلك كانت عودة هولاكو ومعه معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاكو نفسه في المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً في نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كثيراً ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هي أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الغزو كالكرة التي تنطلق في أول أمرها في سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفترق قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً ، ولا توجد غزوة في التاريخ استمرت في حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

(١) صعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعثوا كثيراً عن مركزهم الأصلي في جوف القارة الآسيوية ، فضلاً عما استنفدوه من جهد وطاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان الفسيحة والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

نومبر مصر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت هي إعادة الوحدة بين مصر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك في مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لابد منها لمواجهة الأخطار التي واجهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . ولكن تقاعس ملوك البيت الأيوبي عن صد التتار وتفورهم من الجهاد ، بل تواطؤ بعضهم أبناء البيت الأيوبي مع التتار واشتراكم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ، أفقد بني أيوب أي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية خيز الجديرة بحكم المسلمين .

وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى دعامة تعتمد عليها في البقاء في الحكم ، ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شيء معتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلاً عن كونهم مجرحين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم في حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يضمن عليهم نوعاً من

التشريف ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشرعية ويجعل حكمهم مستساغاً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك في عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، في صورة الدرع الواقى للوطن الإسلامى في الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التى استطاعت الصمود في وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإنقاذ الشام ومصر من برايتهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فليس الناس أصلهم غير الحر ، وتناموا أنهم في حقيقة أمرهم مفتقدو العسك من ساداتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ؛ وأن بقاء المماليك فى الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين فى الشرق الأدنى ، وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة لإيداناً بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار خدأة موقعة عين جالوت سيد الموقف فى بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر ، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التى كانت لا تستطيع الصمود فى وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشراف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثانى صاحب حماة وأقره على حماة وبعين ، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين^(١) . أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة — وهو الذى تواطأ مع التتار وانضم

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٣

اليوم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال (١).

ولم يكف يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر د نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم (٢) ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه (٣).

السلطان الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ - ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريماً لبطولته إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز خطأ من التقدير بعدما أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يوليّه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فعلاً بمنحها إياه (٤) . ولكن قطز امتنع وتكرّر للجمل ، وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المكافأة التي أحرزها بيبرس في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولو كان قطز حكيماً لآلى بيبرس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

بقيا به حلب ، وبذلك يأمن منافسته له في مصر^(١) . ولا يخفى علينا أن البحرية -
ومنهام يبرس - لم ينسوا قتل قطز أنه شارك في قتل كبيرهم أقطاي زمن أيلك ،
ويعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائماً أن لهم ثأراً في عنق قطز ، ولذا
لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التعريض والاستئثار ضد قطز .

وكان أن صمم يبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه
من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة . وسرعان ما حانت الفرصة
عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة . ذلك أن
قطز أظهر رغبته في الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير يبرس
وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعى عليه بما أراد .
وقد تظاهر يبرس برغبته في تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين
شركائه المتآمرين ، فقبض يبرس على يد قطز لينزله من الحركة في حين انمال
عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وأقوه عن فرسه حتى أجهزوا
عليه . وبقتل قطز على ذلك الوجه في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا
البحر للبحرية وزعيمهم يبرس^(٢) .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير ركن
الدين يبرس ، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة
في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلاً عن موافقه المشرفة في محاربة المغول
من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا
بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على
سلطنة يبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند
باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر يبرس ص ٣٣ - ٣٤

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

الأتاك « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس « أنا » فنظر إليه الأتاك وقال « ياخوند ، اجلس في مرتبة السلطنة ! »^(١) وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل محل القتيل ، فاستدعى العسكر في الحال ليحلفوا السلطان الجديد قبل أن تجف دماء ضحيته ، وكان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز وبهنته بانتصاره في عين جالوت ، فاستدعى القاضي نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذي تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية في الصالحية . قال الأمير أقطاي لبيبرس « لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل » ، لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبه من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادي ينادى في طرقات القاهرة « ترحموا على الملك المظفر وادعوا اسلاطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل ، فالتقيه الأمير عز الدين أيمن نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطز ، فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد ونقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأراء ولاءهم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد^(٢).

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان فاضلا في الأدب وعلم التاريخ - دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له « ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسحل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ، لذلك أشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقباً جديداً هو « الملك الظاهر »^(٣).

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٦

(٢) المقريزي : السلوك ج ٩ ص ٤٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وبدخول بيمبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة في تاريخ دولة المماليك ، ذلك أن السلطان الظاهر بيمبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك في الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك في ذلك الدور . أما بيمبرس فيكفيه أنه شغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وإذا كان السلطان الظاهر بيمبرس قد بقي مدة طويلة في الحكم ، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية ، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيمبرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار التتار والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ، وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي ، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيمبرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجهاد ويثبت أركان دولته ، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لجأ بيمبرس إلى

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيمبرس ص ٢٧ .

عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ؛ ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحيي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام . وسنتكلم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعي في فصول هذا الكتاب ؛ ونكتفي في هذا الموضع بالكلام عن موقف بيبرس من تتار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التتار قد انسحبوا من الشام عقب هين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سمنحت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتتار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ هوراً لنشاطه ومجالاً لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تتار فارس بوصفهم وثنيين أولاً ومسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد ثانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أمراء المسلمين الذين استولوا التتار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يحرضونهم ضد المغول ؛ حتى أن يكون في ذلك التحريض تنفيذاً عما تمكنه صدورهم من حقد على المغول ، وسلوى لما لحقهم من خسارة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي هددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتتار جميعاً (٢) .

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 431.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٩ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة — وهي قلعة هامة على نهر الفرات — وحاصروها بغية الاستيلاء عليها . وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات ، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥ ، فوصل غزة في ٩ فبراير . ولما شكوا بعضهم إلى السلطان قلة الدواب قال : « ما أنا في قيد الجمال ، أنا في قيد نصر الإسلام » (١) . على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة؛ إذ وافته الأخبار وهو في دمشق بأن التتار ولو أمدرين أمام الإمدادات التي أرسلها بيبرس إلى البيرة صحبة الملك المنصور صاحب حماة (٢) ولما أدرك بيبرس أن التتار في فارس يتخذون البيرة مركزاً للعبور إلى بلاد الشام ؛ أمر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليسكنوا هيوناً له على التتار فيخبرونه بتحركاتهم وأحوالهم (٣) .

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار في فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك ، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً نسطورياً ، فتزوج من ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم علاقته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر . على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعد على الاستمرار في معاداة المسلمين في مصر والشام ، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح . ولكن بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصالح التتار ، وهم الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦ .

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام^(١). ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح ، عاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح . وفي تلك المرة وسط أبغا ملك أرمينية الصفري في طلب الصلح ، كما لجأ إلى مزيج من التهديد والترغيب ، فجاء في كتابه إلى بيبرس . وإن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد . ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا ؛ فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً . ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد العريج ؛ بل عمد على لسان رسوله — إلى تهرنج بيبرس بأصله المماليكي غير الحر ، والخط من قدره وقيمته بين الملوك ، فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث : أنت ملوك وأبعت في سيواس ، فكيف لشقيق الملوك ، ملوك الأرض ؟^(٢) .

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأهصاب التي حاول أبغا أن يهبطها عليه ، فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول التتار قائلا : « أعلم أني وراة بالمطالبة ولا أزال أنزع عن يده جميع البلاد التي استعوز عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض^(٣) ، وهكذا يثس أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحاربة الصليبيين . وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساحل — قرب حلب — وأنهم واعدوا فرنج الساحل ، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام . وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند ، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٣) العيني : عمد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

أصد التتار . ولم يكتف ببيرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكده يصل إلى دمشق حتى سمع بانهمزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم يقنع أبغا بذلك الفصل الذي مضى به في هجماته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن ببيرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقا من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحالت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم هم الآخرون^(١) .

ومرة أخرى ينس أبغا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين ببيرس والصليبيين مما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناوأة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبغا بعض الرسل إلى ببيرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتمهيد لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفي تلك المرة أكرم ببيرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع^(٢) . ويبدو أن أبغا أراد أن يستعجل الصلح ، فقام ببعض حركات عسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن ببيرس أهمل رسل التتار ولم يحتفل بهم ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان ببيرس بنفسه إلى بلاط أبغا لعقد الصلح ، وعندئذ رد ببيرس على رسل التتار قائلا : بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته .

وكان أن عادت جيوش أبغا إلى الإغارة من جديد على البهرة فنصبوا المجانيق لمهاجمتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ .

(٢) ببيرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٠٤ - ١٠٥ .

مفضل ابن أبي الفضائل : المتج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قواته لإيقاف البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله
الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد
وأسلحة (١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس إزاء تتار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما
تمددت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة
سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧
على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع
بيبرس أن يمزق الجيش التتاري في الأناضول عند أبلستين في ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ،
دون أن يستطيع كينغسرو الثالث - الذي كان صغيراً - أو وزيره معين
الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر (٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام
أسرع أبنا إلى أبلستين حيث « شاهد عسكر مصر على ولم يشاهد أحداً من عسكر
الروم مقتولاً ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين » (٣)
ويروي رشيد الدين الحمذاني أن أبنا بكى عندما شاهد قتل التتار مكديسين
وحزن على رجاله حزناً شديداً (٤) .

عبرتنا المماليك بقتل فارس بعد بيبرس :

وهكذا استمر العداء بين التتار في فارس والعراق من ناحية والمماليك في
مصر والشام من ناحية أخرى قائماً طوال عهد بيبرس ، ولا نكاد الحرب بين
الطرفين تهدأ حيناً إلا لتثور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفي

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٤) رشيد الدين الحمذاني : جوامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ .

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرها من أرض الإسلام وقتلهم الخليفة العباسي وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن وحرمانهم الإسلامية ... هذه الأحوال وغيرها أثارت لعنة المسلمين جميعاً على ر في فارس والعراق وجعلت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يعرفون بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدي تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس بمجرد اة حاكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة الفلق وعدم استقرار التي تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ وقيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام ، جدد بن بنفس الوحشية والهمجية التي عرفوا بها من قبل ولكن السلطان منصور قلاوون أظهر أنه لا يقل ثباتاً في وجه التتار عن سلفيه بيبرس وقطان ، يكذب يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل ضدّهم ملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولي التتار الأديبار (١) وعندما طرد أبغا الهجوم على الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان المنصور قلاوون التي استطاعت إزال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن وفي عهد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢ (٢) .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٨٠ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ١١٣ ،

النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ — ٩ .

أن تكودار الذي خلف أخاه أبنا في الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتقاله
عرش تمار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته في أن
يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية
الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم يخف أحمد تكودار في رسالته إلى المنصور
قلاون رغبته في توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين
التمار والممالك . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت
لما سبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزقى
وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب وعرفنا طريقنا
وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافنا وحرماننا على جميع العساكر
العمل بخلافها ، انرضى الله والرسول ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال
والقبول ، وتسريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلي بنور الائتلاف
ظلمة الاختلاف والغمة^(١) . وكان من الطبعي أن يرحب السلطان قلاون
بدخول ليلخان القتال في الإسلام ، وبإحلال السلام محل الحروب والعدوان
بين التمار والممالك^(٢) .

ولكن شاءت الظروف ألا يستمر أحمد تكودار في حكم تمار فارس ،
لذا نقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد
اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين في بلاده ، الأمر الذي أساء إلى العلاقة بين
تمار فارس وسلطنة الممالك مرة أخرى مما أدى إلى اشتداد الشعور في دولة الممالك
بضرورة إجلاء التمار عن العراق^(٣) . على أن سلاطين الممالك كانوا لا يستطيعون
القيام بذلك مباشرة الضخم في الوقت الذي استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيراً

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) هبى الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور

ص ١٠ - ١٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .

من جهودهم ؛ فاكثف السلطان الأشرف خليل بن قلاون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربي الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة لوثوب منها على بلاد الشام^(١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذي أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة في نصرة المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبوذية^(٢) على أن حماسة غازان للإسلام لم تقربه من سلطنة المماليك ، لأنه أبى إلا أن يتمسك بسياسة أسلافه التوسعية على حساب جيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . غير أن الناصر محمد لم يستطع أن يصمد في وجه التتار الذين أنزلوا الهزيمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه^(٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالي الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموي^(٤) ؛ تدف فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالي دمشق بأنه لن يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأهلها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريةهم .

ولكن غازان لم يحفظ وعده ، إذ لم يكف رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فساداً في المدينة وأهلها ، ثم انتشر التتار بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) Howarth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

(٤) الدويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

(٤) — العصر المماليكي

والكرك في جنوب فلسطين ، في الوقت الذي عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يعيشون فساداً في أرجاء الشام ، ولذلك عاد الناصر محمد إلى مصر ليمد جيشاً كبيراً خرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات^(١) وفي موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأدبار عبر الفرات وبذلك حادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك . ويبدو أن النصر الذي أحوزته السلطان الناصر محمد في موقعة مرج الصفر جعله يعتمد بنفسه ، فأرسل إلى غازان محقراً لياه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية ، وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فانت فانت لا محالة هالك ، وعن قريب يغزو منك العراق والمجمل وتبدل وجودك بالعدم .. فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ،^(٢) .. ويقال إن غازان لم يحتمل مراودة الهزيمة فمات من الغيظ في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أوجتايو بن أرغون .

وعلى الرغم من أن أوجتايو حاول في بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول : عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه الله ،^(٣) إلا أن اعتناق أوجتايو المذهب الشيعي جعله ينفّر من المماليك السنين ، فعاد إلى التفكير في مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أوجتايو على اتباع هذه السياسة الجديدة فرار اثنين من كبار أمراء المماليك هما قرا سنقر والافرم - إليه حيث دينا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلاً في مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد أن ضمهموا باقترب الناصر محمد

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٩ — ١٩٧ هـ

(٢) زكريا : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ — ١٢١ هـ

(٣) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرارة^(١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تنكروا سنة ١٣١٥ حول ماردین ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسبق أسراهم إلى حلب^(٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجاتيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول في العلاقات بين دولتي المماليك وتتار فارس ، إذ مهدت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد في القرن الرابع عشر ، في الوقت الذي أخذت دولة المماليك البحرية تعاني كثيراً من مظاهر التفكك في عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان في مصر ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئى السلوك ج ٢ ص ١٤٢ .

الفصل الثالث الممالك والصليبيون

الشرق الأدنى بين خطريه :

إذا كان الممالك قد واجهوا في فجر دولتهم التي أكاموها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونجحوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخر كان على الممالك مواجهة بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وأعقبت هذا الخطر الثاني خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحاً في بعض النواحي ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، في نواح أخرى . فنحن نرى أن الخطرين التتري والصليبي متفقان في أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتار في دولة فارس والعراق كانوا في الدور الأول من تاريخهم وثنيين بوفيين ؛ إلا أن الميل المسيحية النسطورية لا يمكن إخفاؤها في سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدور بالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة في بلاطه كانت مسيحية ، نسطورية ^(١) ، فضلاً عن أن بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى — وبخاصة مملكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار في القضاء على الكيان الإسلامي ، ولذلك تحالفت الأرمين مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية في غرب أوروبا

(١) رشيد الدين الهندي : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (م ٢ ج ١) .

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين التتار
والمسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات. لذلك لا عجب إذا همل
المسيحيون الشرقيون - في الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى - لحركة
التوسع التتري ، ولا عجب إذا سمعنا في المراجع أن رجال هولوكو كانوا كلما
استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية - مثل حلب أو دمشق -
أسرفوا في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا في
تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها (١).

وثمة وجه آخر من أوجه التشابه بين الخطرين الصليبي والتتري هو أن
كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل
غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامي في تلك المنطقة. فالتتار وفدوا
من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا
من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين في القرن
الثالث عشر يحسون بمראה قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شقي رحى ضخمة
تريد أن تسحقهم وتقضي على كياناتهم. وقد عبر المؤرخ ابن الأثير تعبيراً صادقا
عن ذلك الشعور في زفرة عميقة أرسلها قلبه إذ يقول : لم ينل المسلمون أذى
وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوه إليه الآن.
هذا العدو الكافر التتري قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربروها. والعدو
الآخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا
إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها .. فإنا لله وإنا إليه راجعون !
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... (٢)

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التتري والصليبي، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبي أعمق جذورا وأقدم عمرا من الخطر التتري، فبينما كان خطر التتار من النوع الدائم المفاجيء الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبي على الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى في القرن السابع الميلادى، ويتخذ مسحة دينية - ولرظاهرة - يظن وراءها أغراضا أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطرا على المسلمين في الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفا وبدت أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبي كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى في الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمركز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوروبا، وثمان بين المسافة بين غرب أوروبا والشام، والمسافة بين قراقورم - قاعدة التتار في جوف آسيا وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين في الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة، وطالما استمر جبهه الحجاج والصليبيين من غرب أوروبا إلى بلاد الشام، ضمنت الإمارات الصليبية في بلاد الشام قوة تغذيها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار في فارس والعراق فهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم في تلك البلدان البعيدة في الشرق الأدنى ضعفت الصلات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يجهدوا هذاه بشريا مستمرا يهي فيهم أصولهم الأولى، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والذوبان البطيء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن تقلل من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التتري، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضي مصر فضلاً عن إمارات ومستعمرات قوية أسسوها في الشام، ودول مسيحية مستقلة تنحازت معهم في أرمينية وقبرص. وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوربي الغربي، وتعتمد في تهديدها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة.

وهنا أظهر المماليك ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد. وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين في نفس الوقت الذي قاتلوا فيه التتار، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك.

لويس التاسع في بوز الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إزال العنيزة القاصمة بالجيش الصليبي قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا. وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك في حكم مصر، فكان على الدولة الجديدة أن تقوم بمجهود سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر. حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أميراً في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولكن الصليبيين كانوا ما زالوا يحتلون دمياط الأمر الذي شكل خطراً جسيماً على مصر ودولة المماليك الناشئة. ومن يدري، فإنه طالما ظلت دمياط في أيدي الصليبيين، فإن ذلك كان كفيلاً بأن يجعل منها قاعدة للصليبيين في الأراضي المصرية يمكن أن

تأتي إليها الوفود الصليبية من الغرب الأوسط للقيام بمحاولة أخرى لغزو مصر وفك أسر لويس التاسع . لذلك حرصت شجر الدر - أولى سلاطين المماليك في مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أسر لويس التاسع ، كما سبق أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع في تلك الاتفاقية ألا يقصد شواطئ الإسلام مرة أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى بلاده مباشرة وقد اطنحت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولاً عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه ماء وجهه . وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أحوالهم ما يكونون إلى زعيم قوي ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويبت فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع إليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً^(١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٦٤) حمل فيها جهاداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تاجعت بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أغاد لويس التاسع في الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، لأن كل فريق أخذ يخطب وده ويحاول مخالفته ضد الطرف الآخر . ومن ذلك أن المعز أيك سلطان المماليك في مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأفرج عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحو أربعين ألف أسير ، كما أرسل هدية إلى لويس التاسع^(٢) . أما الناصر يوسف - كبير الأيوبيين بالشام -

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256.

فقد يادو هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع في هكا يعرض عليه مخالفته ويعده بإعطائه بيت المقدس^(١) وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه أن يقبل العرض الأيوبي ويضحي بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبي مازالوا أسرى في مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك في مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين وإعفاء لويس التاسع من مؤخر القدية المستحق عليه ، فضلاً عن إعطاء بيت المقدس للصليبيين ، إن نهروهم على الشاميين ،^(٢) . وفي مقابل ذلك كله وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك في القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبي ، على أن تلتق جيوش الحلفاء عند ياقا في مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه حدث في تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسي في الصلح بين الأيوبيين والمماليك — كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين والمماليك^(٣) . ولم يجد لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين بالشام سوى الاتصال بالتمتار لمخالفتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك. ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤد إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع يغادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن هذا الصدام لم يستمر طويلاً ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين^(٤) وأمل السبب في ذلك هو أن كلا من الطرفين لم يكن مستعداً للدخول في حرب

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٥١ هـ (ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤) .

(٣) مسعود باشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٢ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم في خلافات داخلية خطيرة. - المماليك كانوا يقيمون دولة في دور التأسيس ولم تستطع أن تقف على قدميها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها .

وبانتصار المماليك على التتار في عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطرين واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين، وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام، وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية. ومادام المماليك قد ورثوا الأيوبيين في ملكهم في مصر والشام، فإنه كان من الطبيعي أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام. وإذا كان القدر لم يمهل قط بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يسهل بهمهم وافر في جهاد الصليبيين والتمهيد لطردهم كلية من بلاد الشام.

الظاهر بيبرس والاستيلاء على أنطاكية :

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك في أواخر سنة ١٢٦٠، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبدم نظراً. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك لحرب الصليبيين (١)، والواقع أن الحقيقة الكبرى التي تواجهنا في نشاط بيبرس الحربى ضد أعداء الوطن الإسلامى في تلك الحقبة هي أنه يصعب وضع خط فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيراً ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين، فيحارب

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٨ وما بعدها .

الآخر، أو يحارب الاثنين معاً. وإذا كنا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمهارة، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة متقطعة تأتي في أوقات متباعدة نسبياً، أي عندما يجرؤ التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابضين في العراق وفارس لا يبدأون بالهجوم على أطراف دولة المماليك في الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منتشرين في بلاد الشام شمالها وجنوبها - عن طريق عديد حصونهم ومعاقلهم التي أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر التتاري الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى في صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذي أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً خارجياً ضخماً كانت أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام^(١). وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، أي في نوفمبر سنة ١٢٦١ عندما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على مخالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢، وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢٢.

مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمنول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلاثمائة أسير (١) .

على أن بيبرس رأى قبل أن يتوجه بملكه إلى الفرنج ، — على قول المقرئى — (٢) أن يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليعزز سلطته المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المتحتمة ببيتها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى مخالفة تيار القفجاق — فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اعتنقوا الإسلام فأراد بيبرس أن يتخذ منهم حونا على هولاكو وتتار وفارس .

وقد بدأت الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح ، وببعض مناورات من جانب بيبرس لسبر فورم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ بيبرس حربه الشاملة ضدهم . ففى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان بيبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وهليلث وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاستنارية (٣) . وبعد استيلاء بيبرس على أرسوف جاء دور عكا ، ولكن هيو الثالث الوصى على عرش قبرس قام عندئذ بالوصاية على عكا أيضا ، فخطر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرس فى أبريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن عكا ، مما جعل بيبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

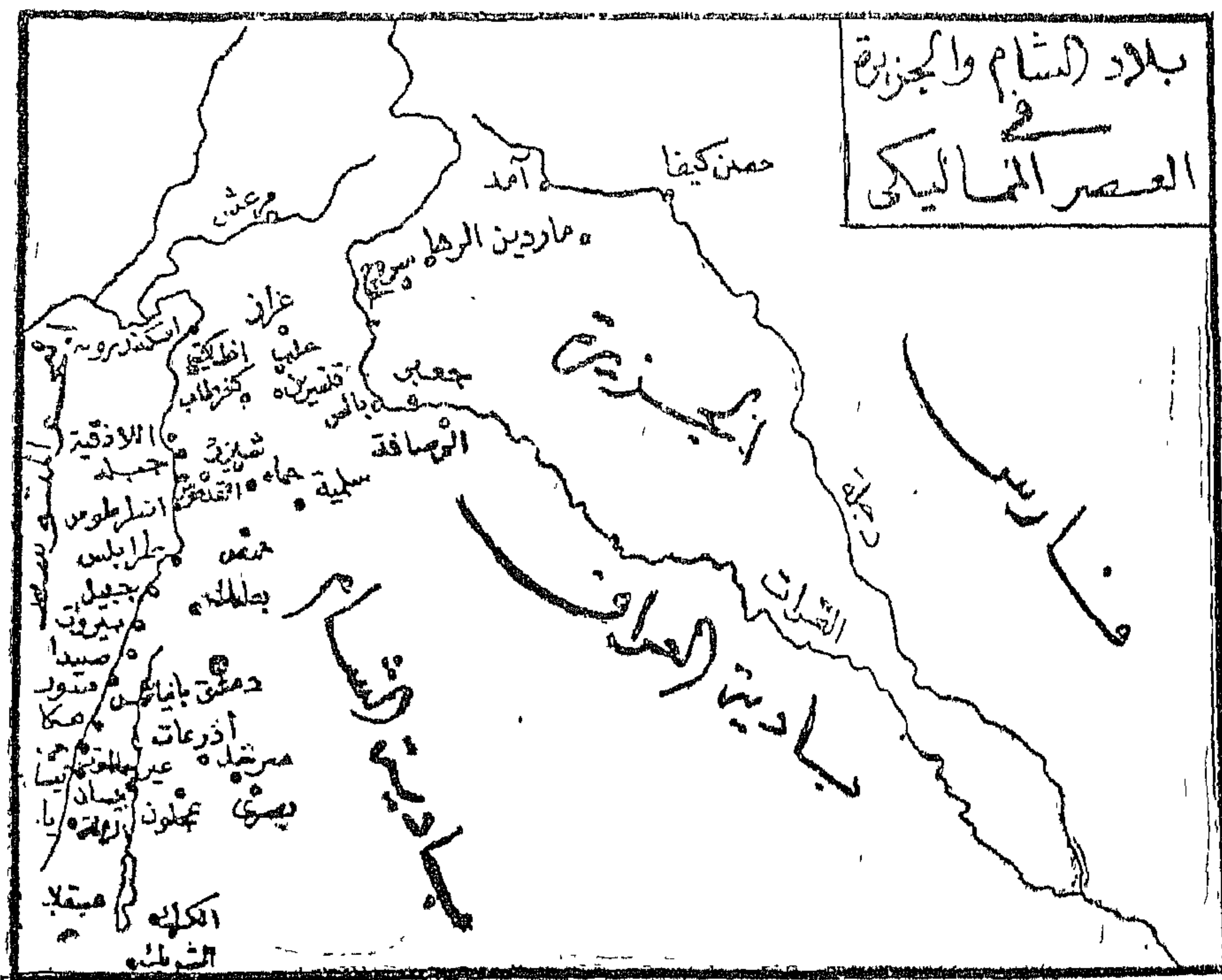
(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ .

(٤) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .

بلاد الشام والجزيرة
العصر المماليكي



ثم هاد بيرس في العام التالي - مايو سنة ١٢٦٦ - لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدتها هي الأخرى صعبة المنال ، فقصده صفد واستولى عليها في صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استسلمت هونين وتبنين ومدينة الرملة (١) . وبعد ذلك استولى بيرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرة .

ولم يلبس السلطان بيرس لأرمينية الصغرى موقفاً وموقف ملكها هيثوم الأول في موازنة التتار وحشهم على غزو الشام سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ . لذلك أرسل بيرس جيشاً كبيراً في صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاون والملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماء لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المماليك أن ينزلوا مريمسة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل في الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثاني ، في حين كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار (٢) . وبعد أن أغار المماليك على مدن أرمينية الرئيسية - وهي أذنه والمصيصة وطرسوس - وأشعلوا النار في عاصمتها سيس ، طردوا معهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى (٣) . والواقع إن ملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه أيو الثالث (٤)

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ .

أبو الفدا : المختصر حوادث ٦٦٤ هـ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ .

(٤) Runciman : op. cit; III p. 323.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طبرية وهكذا سنة ١٢٦٧ كما استولى على يافا والشقيف أرنون في العام التالي (١). أخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية ، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق د لإحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قسطنطينية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى ، في حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تتأجم المدينة . ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة ، بلغ من كثرتها أن د قسمت النقود بالطاسات . كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه د لم يبق غلام إلا وله غلام ، وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم (٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير .

ولا تخفى علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات في قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨ . أذ كانت ثاني إمارة - بعد الرها - أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ ، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في الشام في أواخر القرن الحادى عشر .

وفي سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكاً على ملكة بيت المقدس الصليبية ، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام . ولكن بيبرس لم يحترم الهدنة التي كان يعقدها مع الصليبيين بين حين وآخر ، وإنما هاجم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية ، وعلى حصن الأكراد وحصن

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢ .

العيني : هذه الجمان سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٨ .

عكار من الاستتارية^(١) . وفي طريق عودة بيبس من طرابلس استولى على حصن القرين — إلى الشمال الشرقي من عكا — في يونية سنة ١٢٧١ ، وكان من الحصون المنيعه التي احتفظ بها الفرسان القبتوتون حتى ذلك الوقت^(٢) .

وفي تلك الأثناء كان السلطان بيبس ناقماً على قبرس لجهود ملكها هيو الثالث في توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارسة على السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى . لذلك أرسل بيبس أسطولاً سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس ، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة ، مما جعل حملة بيبس تلتهم بالفشل^(٣) .

ويلاحظ أن جهود بيبس في ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين ، وإنما امتدت إلى تقليم أظافر الباطنية ، وهي الطائفة الهدامة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية . ولم يقنع الظاهر بيبس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين ، وإنما أخذ يستولى على معاقلهم بالشام ، وأقطعهم بدلا منها أراضي في مصر^(٤) .

وفي سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزي ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٩٨ — ١٩٩ هـ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨ هـ .

(٤) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ هـ .

سعيد عاشور : الظاهر بيبس ص ٨٢ — ٨٣ هـ .

(هـ - العصر المماليكي)

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوأل مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصبصة وسيس وأذنة وطر سوس وإياس . هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشحولة بحماية التتار ، واستطاع أن يمزق الجيش التتارى عند أبلستين في أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا (١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ - ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل علي ابن أيك وقيام قطز في السلطنة^(٢) ، إلى أن غريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه السعيد . وربما اغتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه ولبيته من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام في الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٧٤ لتنفيذ فرضه . ويروى المقرئى أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقم بديار مصر أثناء غيبة أبيه في حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بعامين

(١) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481—488.

هذه ماهر بن بيبس عساكرهم وولاهم لولي عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركة خان» (١).

ولم يلبث السلطان بيبس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد احتفالا كبيرا فأركبه بشمار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشيا على قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبس الأمراء والقضاة والفقهاء وقرأ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه « كانت شجرة المباركة قد امتد منها فرع تفر سنا فيه الزيادة والنمو وتوسعا منه حسن الجنى المرجو .. فليقلد الولد ما قلدها من أمور العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد » (٢).

ثم كان أن توفي السلطان الظاهر بيبس في دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فكتب الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار إلى الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاة أبيه ، وعندئذ جدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر الممسكر والقضاة والأعيان ودعا له الخطباء في الجوامع (٣) .

على أن الملك السعيد اتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء ، فقرب إليه جماعة من المماليك الأحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة ، الأمر الذي أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك الساقى . وهذا ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء حول على التخلص منهم ، فسيجن بعضهم ، الأمر الذي أثار الخواطر ضده ، وترغم حركة المقاومة بمجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيرا اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذارا إلى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٨١ - ٨٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه : إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فأما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن^(١) .

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تهدأ حيناً وتساء أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يطلع نفسه من السلطنة^(٢) . وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه السكر ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاوون ، فتظاهر بالزهد وتفنن قائلاً : أنا لم أخلع السعيد شراً إلى السلطنة وحرصاً على الممالك ، ولكن حفظاً للنظام وأتفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر^(٣) ، ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاوون الرغبة في الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان للظاهر إنما كان ادعاء باطلاً لعدم إيمان المماليك بمبدأ توريث الملك ، وكل ما هنالك هو أن قلاوون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختر أن يثري لاسيما وأن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية — أتباع الظاهر — فخشي أن يشعروا عنده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلامش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاوون أتابكاً له . وكانت هذه هي فرصة الأمير قلاوون ، فاستغل صغر سن السلطان الجديد وأخذ يمكن لنفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ، بل لقد جعل نفسه شريكاً للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو الحسن : الهجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت
السكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١) .

ولما أدرك الأمير قلاون أن الكثرة قد فضحت ، جمع الأمراء ، وتحدث
معهم في صغر سن السلطان العادل وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم
إلا برجل كامل ، فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى السكرك وتولية قلاون سلطنة
مصر (٢) .

السلطان المنصور قلاوون والصلبيين (١٢٧٩ - ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه
لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها
غيره من سلاطين المماليك . ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على
السلطان الجديد لأنهم يأفوا الخنوع لواحد منهم أو لا اعتقادهم أنهم أجدد منه
بالسلطنة . من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف
بالمنصور قلاون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب
بالمالك الكامل ودعى له في المسجد الأموي (٣) . على أن السلطان المنصور
قلاون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر
الذي اتصل بالقتار وأغرام على غزو الشام . وأخيراً خضع سنقر الأشقر
وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاون .

وقد اتبع السلطان المنصور قلاون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٨ .

أبو المحاسن النجوم ج ٧ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

بالمصاد للقتار ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه العمل على تقويض بناء الصليبيين بالشام . ويبدو أن السلطان قلاوون كان في الدور الأول من حكمه - أي حتى سنة ١٢٨٤ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر في الشام ، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٢٨١ ، الأمر الذي جعل قلاوون يحرص في ذلك الدور على مسالمة الصليبيين فهدد معهم صلحا لمدة عشر سنوات تبدأ بسنة ١٢٨١^(١) . على أن الأمور لم تسكد تهدأ السلطان المنصور قلاوون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصلح الذي سمي إليه بنفسه مع الصليبيين ، فشرع في مهاجمة الإسماعيلية واستولى منهم على حصن المرقب سنة ١٢٨٥^(٢) .

والواقع إن جميع الشواهد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا يملكون بدور الاحتضار ، بعد أن فترت معونة الغرب الأوربي من جهة وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة أخرى^(٣) . وقد استغل المماليك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام إجماعا تاما ، فأرسل السلطان المنصور قلاوون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرطاي استولت على اللاذقية في أبريل سنة ١٢٨٧ ، وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية^(٤) .

وشاءت الظروف أن يهتم الخلاف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد وفاة أميرها بوهيموند السابع . ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس استنجدت بالسلطان قلاوون طالبة تأييده فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة

(١) King : The Knights Hospitallers. 282.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والمصور ص ٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ - ١١٧٠ .

(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ .

محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والمصور ص ١٥١ .

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين . وهكذا أهد قلاون عدته ، وتحجز لأخذ طرابلس ،^(١) وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩ . وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المقاتلة ، وبهذه القوة الضاربة شرع قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ ومضايقتها مضايقة شديدة ، بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقبابون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر إبريل سنة ١٢٨٩^(٢) . ويروي أبو الفدا أن بعض أهالي طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر ، فنجوا أقلام في المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ، . وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين ، ولكن المماليك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة . وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة ، لكنه لم يستطع البقاء فيها من تنن القتل ،^(٣) . وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة ، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر ، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية^(٤) .

ولم يلبث الصليبيون أن أخذوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس - مثل بيروت وجبل - فاحتلها المماليك في سهولة . وإذا كانت جبيل قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات آخر ، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك ، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

(١) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ .

(٢) أبو المعاسن : الهجوم القاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ .

(٤) الماريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٤٨ .

للسلطان^(١) وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وعكا.

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات^(٢). ولكن لم تذكر المياه تدور إلى بحارها بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا في صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجسد أن يعبروا عن حماسهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين في إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذي قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين^(٣).

ذلك أن أخبار العدوان الصليبي لم تسد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى استشاط غضبا ، ورفض الأعذار الواهية التي تجميع بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفي الوقت الذي أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأهرس بالاستعداد للحرب في الشام^(٤) . على أنه لم يكن السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويغادر القاهرة فعلا لحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمته الموت في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠^(٥).

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(2) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) الماريني : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محمد بن الدين بن هبة الظاهر : تعريف الأيام ص ١٧٨ .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بحمل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فعرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلعة سنة ١٢٨٠ . وتلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه (١) .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨ . ويقال إن قلاوون حزن حزنا شديدا لوفاة ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاوون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي عيسى الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالأشرف (٢) .

ومن الثابت أن المنصور قلاوون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يعجل إليه ولا يرضى عن تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال - عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل - « أنا ما أولى خليلًا على المسلمين » (٣) . ويقال إن المنصور قلاوون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم ، فضلا عن اتهمائه بفساد السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين (٤) . ولهذا الأسباب توفي السلطان المنصور قلاوون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

(١) بيرس الدوادار : زبدة الفسكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٨ .

القلعشندی : صبیح الأعفی ج ١٠ ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٢) القلعشندی : صبیح الأعفی ج ١٠ ص ١٦٦ - ١٧٣ .

(٣) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٧٤٥ - ٧٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاون ، استدعى القاضي ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله : أين تقليدي؟ فأحضر القاضي التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف : إن السلطان امتنع أن يعطيني فأعطاني الله ، (١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاون .

وقد تعرض السلطان خليل في أول كلية للمؤامرات التقليدية التي تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، فحاول الأمير حسام الدين طرطاي نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش ولسكن السلطان الجديد فجمع في القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طرطاي وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين (٢) .

طرد البقايا الصليبية من الشام :

وكان الصليبيون قد هلكوا لوفاة المنصور قلاون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت بإرادة الله لا نقاذ عكا من مصيرها المحتوم . ولسكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التي أعدها أبوه إلى الشام ، في الوقت الذي أرسل إلى كافة القوات الإسلامية في مختلف المدن الشامية بمقابلاته أمام عكا (٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التي اشتركت في حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار (٤) .

ولم يكف السلطان الأشرف خليل يحصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

(٢) بيريوس النواهار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٧٥٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .

(4) Setton : op. cit. II, p. 595.

في خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق السكبار التي كان منها ما يرمى بقنطار دمشق وأكبر ، وبذلك أمكن إحداث عدة ثقوب في سور المدينة^(١) . وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط ، فجمعوا كل قراتهم في الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين ، حتى اجتمع في عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، فحاولت الهيئات والجاليات الصليبية أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلمتها^(٢) .

وفي ٤ مايو وصل هنري الثاني ملك قبرس إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات ، ففرح الصليبيون في عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتجمعوا على الثبات والمقاومة^(٣) . ولكن هنري الثاني لم يلبث أن فشل في التفاهم مع المسلمين من ناحية ، كما قنط من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافت من ناحية ثانية . ولذلك عاد هنري الثاني إلى قبرس ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المدافعين^(٤) .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلاً في اقتحام المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية ، حتى خسر كلاهما قتيلاً في المعركة^(٥) ولم يلبث أن وجد الصليبيون

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ - ٨ .

(2) King : op. cit., pp. 291-292

(3) Schlumberger : Prise de Saint-Jean d'Acre, pp. 23-36.

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Crousset : Hist. des. Croisades, III, pp. 755-758.

(5) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفسهم لاعاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ فهرعوا إلى السفن
فارين بأرواحهم ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تكن كافية ، فغرق بعضهم
في البحر بسبب ثقل حمولتها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة وكانت
النتيجة أن نسبة من الصليبيين في عكا وقعوا بين قتلى وغرقى وأسرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المماقل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ،
فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة في ١٩ مايو ، واستولى المماليك على
صيدا ودمروا قلعتها في ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها .
وبذلك لم يبق للصليبيين في الشام سوى موضعين هما انطراطوس وعثليث ،
فاستسلمت الأولى في ٣ أغسطس والثانية في ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١ ، وبذلك
تكملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام (١) .

ومكثت دالت دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك الجموع من الفزاة
الغربيين إلى حيث لا رجعة ، وهاضمت بلاد الشام من قبايقية شمالا حتى غزة
والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها إلا أبناءها الحقيقيون من العرب ولكن
طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لا يعني
نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر ، وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في
ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلى فيما بعد .

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ
المعري : السلوك ج ١ ص ٧٦٥ — ٧٦٦ .

الفصل الرابع

الممالك والنوبة

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمصر روابط قوية متينة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعي أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما يتعرض له مصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مصر قد تعرضت في النصف الأول من القرن السابع للميلاد لحركة الفتح العربي ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف في التاريخ أنه لم يكبد يتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، حتى أرسل عمرو وأخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع الفهري — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا للمملكة المسيحية هي ملكة دنقلة التي امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين ، واضطر الجيش الإسلامي إلى التراجع بعد أن تحمل خسائر كثيرة (١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عهد الله بن سعد بن أبي سرح أثناء ولايته على مصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفي تلك المرة أفاد عهد الله بن سعد من التجربة المريرة التي مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعنى بإعداد حملته إعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل ملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها (٢) . على أنه برصول الجيش العربي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩ .

الإسلامي إلى ذلك الحد ، كان قد استنفذ قواه وعجز عن القيام بأي جهد جديد ، الأمر الذي أدى إلى عقد اتفاقية البقط الشهيرة بين عبدالله بن سعد ابن أبي مرثد من ناحية وملك النوبة المسيحي من ناحية أخرى (١) . وبمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال في مصر خمسة وستين وثلاثمائة رأسمان من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مصر للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقط كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادي بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذي جعل ابن خردادبه يقول عن البقط إنه ليس « بجزية ولا خراج » (٢) ، كما قال البلاذري « ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق ، إنما هي هدنة بيننا » (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاقية البقط لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية ، وهي في الوقت نفسه لم تضع حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية في العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التحلل من شروط اتفاقية البقط ، كما لجأ النوبيون في سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تعتمد في أوقات عدم الاستقرار في مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك في أواخر الدولة الإخشيدية وفي أواخر الدولة

(١) اختلف الباحثون في تفسير أصل لفظ « البقط » فالبعض قال إنه تحريف من قبض غير أن الرأي الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة bak وهي كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التي كانت تهيى عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقط مشتق أيضاً من اللفظ اليوناني Pactum ومعناه عهد أو ميثاق .

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقط فيها غرم فادح لهم أو فيها
مهاينة ومساس بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثا - هو ابن ملك النوبة -
إلى الخليفة المعتصم العباسي يشكون إليه فداحة البقط ويطلبون إلغاؤه ، فنظر
المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط . . . ، وعندئذ
وافق المعتصم على ألا يكون البقط سنويا وإنما يدفع كل ثلاث سنوات (١) .

على أن أحكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبيهم تمسكا كبيرا بالبقط ،
فدأبوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقط المفروض عليهم ومن
تلك الحملات التي شنها أحكام مصر على النوبة الحملة التي أرسلها صلاح الدين
بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتي أوغلت في تلك البلاد حتى أبريم (٢)
على أنه يبدو في تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع
سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقط وربما
كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة
مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين محمد بأنه يسعى
لمد نفوذه جنوبا على حساب قوة مسيحية مجاورة . هذا وإن كان هناك
رأي يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يختبر مدى صلاحية النوبة
لتسكون ما يرى لأبناء البيت الأيوبي في حالة تفاقم الموقف بينه وبين نور الدين
وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين يلبذ تلك الفكرة
ويوجه أنظاره إلى اليمن (٣) .

(١) المقرئى : المواقف ، ج ١ ص ٣٠١

Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158,

(٢) المصنف : صبح الأمل ج ٢ ص ٢٧٦ ج ٦ ص ٥٠٦ - ٥١٦ .

(3) Lane-Poole : A Hist of Egypt, p. 197.

السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك في مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور في الداخل - يهزبون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تتار وصليبيين - لحماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية والتحكم لأنفسهم من طريق الظهور في صورة حماة المسلمين من الأخطار التي تهددتهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيرا من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التي عمت عصر الحروب الصليبية دون أن يلحق مملكة النوبة بعضا من رذاذها وإذا كان الصليبيون في بلاد الشام مسيحيين مخلصين يهددون الكيان الإسلامي فإن النوبيين كانوا عندئذ أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصاً لعقيدتهم وتهديداً للمسلمين في جنوب مصر عن الصليبيين في الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراعوا حرمان الجزيرة ، واستعمروا بين حين وآخر يستفزون بحكام مصر بإفراغاتهم العدوانية . من ذلك ما نسمعه من أن داود ملك النوبة انتزع فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بهزوبه في الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فنهب أسوان وأسر منها جمعاً كبيراً من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وهدم من موانئ مصر الكبرى على شاطئ البحر الأحمر في ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس في ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتمل إرسال تجهيدة العسكرية سنة ١٢٧٢

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩
ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .

مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نهضت هذه الحملة الصغيرة في حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، وقبض المماليك على صاحب الجبل وفهره من النوبيين فأحضروهم أسرى إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتت فرصة طيبة لبيرس للانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكند ملك النوبة الأسبق الذي عزل ابن أخيه داود وحل محله في الحكم ، فجاء شكند يطلب مساعدة السلطان بيرس في استرداد عرشه (١) . وكان أن أعد الظاهر بيرس حملة كبرى بقيادة الأميرين شمس الدين أقسنقر الفارقاني وعر الدين الأفرم ، وصحبتهما شكند الذي أمر بيرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة وتضلع لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين أقسنقر للسلطان بيرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن المماليك أغاروا على قلعة الدرح حيث قتلوا وسبوا كثير من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جزأرميكائيل عند شلال وادى حلفاء ، حتى اضطر الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قردولة الحرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول في طاعة الملك شكند وكان أن أظهر قردولة هذاهمة كبيرة بعد ذلك في معاونة الحملة المماليكية وإمدادها برجال كلما احتاج الأمر إلى ذلك ، وبعد أن أقام المماليك شكند في الملك بدلا من داود وألبسوه التاج ، نظم القائدان أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك وملكة النوبة على الوجه الآتي : —

١ — تعهد شكند بإرسال البعثة السنوية المعتادة إلى سلطان المماليك في مصر

(١) الألة شندی : سبع الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٢٦ .

مضافا إليه بعض الهدايا من الفهود والفيلة والزراف: على أن يقوم سلطان الممالك بإرسال الغلال إلى مملكة النوبة .

- ٢ — يستولى شكنده على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر
- ٣ — تفرض دولة الممالك سيادتها على الجزء الشمالي من بلاد النوبة ، أى دبلاد العلى وبلاد الجبل ، ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها . أما ما بقي من مملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الممالك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان بيبرس والنصف الآخر يبقى لملك النوبة لعمارة البلاد^(١).
- ٤ — خير ملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التى هامل بها المسلمون المغلوب — وهى الإسلام أو الجزية أو القتل — فاختار الجزية ، وتعمد بدفع دينار سنوياً عن كل فرد عاقل بالغ فى مملكته ولذلك أنعم السلطان بيبرس ديوانا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير ، للإشراف على جزية النوبة وخراجها .

ه — أخذ عشرون أميراً من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت يد السلطان بيبرس ، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسره داود فى إمارته السابقة على أسوان وعيناب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقدم شكنده على احترامها . وذكر فى قسمه ما نصه : ... أنى أخلاصت نيتى وطوبى من وفى هذا وسأبقى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه ، وأنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وأنى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ...^(٢)

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٦٢٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع بيبرس أن يبسط سيطرته على مملكة النوبة المسيحية في المصور الوسطى . ولا أدل على حرص بيبرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه في تنظيمه للبريد أنشأ طريقاً هاماً يبدأ من قوص ثم يتشعب شعبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب (١) .

وأخيراً فادته حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان بيبرس بقدومه في القاهرة احتفالا كبيرا ؛ فخلع على الأميرين القائدين واستعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التي استولى عليها الفزاة ؛ هذا فضلا عن الرقيق الذين بلغ من كثيرهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان في بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلामها ولا يباع منهم شيء لغير المسلمين (٢) .

وقد اعترف جبهة المؤرخين بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبي الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر دما يفوق به على كل ملك تقدمه (٣) . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التي قام بها بحكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول : كل هذه غزوات وإنما الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر (٤) .

على أن قصة النوبة في عهد بيبرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذي أغار على أسوان وحيذاب — أسيراً في قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان بيبرس الذي أمر بحبسه مع أمه

(١) الألفندي : صبح الاعمى ج ١٤ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن شاكر السكتي : عيون التواريخ ج ٢١ ق ١ ورقة ٢٥ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

وأخيه حتى مات في سجنه^(١) .

والواقع إن بيرس لم يستطع أن يفسى ما حل ببلاده على أيدي النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن إلى شككته ، فعهد إلى أحد الباطنية الفدائية — واسمه إسماعيل — بالتردد على النوبة سرّاً ومراقبة شككته وأحواله ، خوفاً من أن يندبر بالمد ويدخل بأسوان وعيناب مثلما فعل داود . وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه في بعض سفرياته إلى النوبة ، فانقض ذلك الزميل على شككته وقتل به بقاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر بيرس^(٢) .

السلطان المنصور قهوجي والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين المماليك بالنوبة عند حد جهود بيرس ، وإنما استمر تدخل المماليك في شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من لغارات التوبيين واعتداءاتهم على الأهالي الأمنين . هذا فضلاً عن أن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر . وساعد على ازدياد تدخل المماليك في شئون ملكة النوبة — تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الكانم والبرنو ، وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة المماليك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة^(٣) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٨٢ . ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاوون الذي اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩ حريصاً على اقتفاء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء في دفع خطر التتار أو قطع دابر الصليبيين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة^(١) . ولا يخفى علينا أن شككده عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت ضغط المماليك العسكري من ناحية واشعوره بأنه يدين في استرداد عرشه للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء شككده من ملوك النوبة ينتهزون الفرص لتفرض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة سلطنة المماليك في مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظفوا بالمرصاد لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك أن الملك برك — خليفة شككده — قام بمحاولة من هذا النوع ولكن الأمير علم الدين سنجر المسروى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى الأمر بقتل برك^(٢) .

وقد خلف برك في حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه كان ذا دهاء ومكر وبأس ، فسعى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها شككده مع سلطنة المماليك ، وأتم هذه الشروط مداومة إرسال البقظ إلى مصر . وصادف في ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ، وآدور ملك ملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراءه إلى السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨٧ حاملين إليه هدايا من جملة زرافة وفيل . وقد أكد آدور في رسالته ولامه وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى يلقاها من سمامون ملك دنقلة والنوبة^(٣) . ولما علم سمامون أن ملك الأبواب أرسل

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(١)

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر ، بادر هو الآخر بإرسال سفارة من قبله لتشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاوون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأيواب ، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل . ويقال إن سفارة سهامون حملت معها إلى السلطان قلاوون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق ومائتا بقرة (١) .

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى جميع كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرس أسباب النزاع على الطبيعة ، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمي مبعوثاً إلى ملك الأيواب والأمير علم الدين الحصني رسولاً إلى ملك دنقلة بالنوبة . وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وغيذاب والبحر الأحمر ، مخافة أن يقع في قبضة سهامون فيعذبه . وفعل استطاع الأمير سنجر المعظمي أن يتم مهمته بنجاح ، ولكنه في طريق عودته إلى مصر ألقى سهامون القبض عليه وفكر في قتله لولا أن حذره بعض رجاله فأقبة ذلك ، وقالوا له : تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا ، وعندئذ أطلق سراحه (٢) . أما الأمير علم الدين الحصني الذي قصد ملك دنقلة فلا توجد في المراجع إشارة عن عودته ؛ وإن كان يبدو أنه عاد سالمًا وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سهامون هو المعتدي .

ومهما يكن من أمر ، فقد قرر السلطان قلاوون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧ ويفهم من أخبار تلك الحملة في المراجع أن السلطان قلاوون اهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط متولى القاهرة ، والأمير عز الدين الكوراني كذلك كتب السلطان

(١) Quatrewere. Memoire sur l'Egyppte, Tome 2, pp 109-112

(٢) محمد بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والمنصور من ١٤٤٠ .

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدير السيفي متولى قوص بأن يشارك في تلك الحملة بكل ما يستطيع من ممالك وأجناد وعربان (١).

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط زحف على امتداد الشاطئ الغربي لنهر النيل ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين أيدير سار بجنداء الشاطئ الشرقي للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدير ، حيث أن المدن الهامة في مملكة النوبة — ومنها العاصمة دنقلة ذاتها — تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون — وهو الرجل الذي اتصف بالدهاء وسعة الحيلة كما سبق أن ذكرنا — وضع خطة مكررة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدركهم الكلل والتعب من طول الطريق ومشقته . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد في وجهها ، فمكأنوا يرحلون والعسكر (المماليك) وراهم منزلة بمنزلة (٢).

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمسلمين سواء (٣). أما سمامون فقد فر جنوباً ، وعندئذ تبعه الأمير أيدير حتى ابتعد عن دنقلة مسارب خمسة عشر يوماً ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بابن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدير في القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكاً على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremere : Memoires. p. 113.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبها حامية عسكرية^(١). كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقعة القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها شكنده . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد — والذي أورده القلقشندي — مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه شكنده من قبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصور قلاوون كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما انعقد له من نصر ؛ فبلغ السلطان على الرسول وأعاده إلى النوبة بكتاب إلى الأمير سنجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أيدير بدقعة مع حامية ليكون أميراً مقيماً من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد — ابن أخت الملك داود الذي أسر أيام بيبرس والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام — ليعاون أيدير في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر لسعد الدين أن يصل إلى النوبة عندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعاً — كما سيلى فيما بعد — الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص (٣) .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين سنجر المسروري إلى القاهرة ، ومعه « ملوك النوبة ونساؤهم وبناتهم وعدة أسرى كثيرة » ، ففرق السلطان الأسرى ونهأدهم الناس « وبيعوا بالثمن اليسير لسكرتهم » (٤) .

غير أن قلاوون يكذب هنا بذلك النصر حتى جاءت الأخبار بأن سمعون

(١) عبيد الدين بن عبد الظاهر : تشریف الايام والمصروف ١٥٤ .

(٢) القلقشندي : صبيح الأمل ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد مملكته ، وأنه نهج في إنزال الهزيمة بالحامية المالكية وسيطر على دنقلة ، في حين فر ملك النوبة الجديد . — بعده — وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة ، وقد غضب السلطان المنصور قلاوون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سهامون (١) .

وفي تلك المرة أراد قلاوون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقاً ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن — من حراريق وغيرها — ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ، فإلى جانب الأمير عز الدين أيبك الأفرم الذي عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبجاق المنصوري والأمير بكتمر الجوكندار والأمير أيدير والى قوص ، فضلاً عن ملك النوبة الطريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة — التي زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفاً — القاهرة ، فانضم إليها بالوجه القبلي كثير من أجناد الأمراء فضلاً عن العربان . ولكن لم تسكد الحملة تصل إلى نهر أسوان حتى توفي ملك النوبة فدفن هناك ، وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشير به فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود — كان معتقلاً بقلعة الجبل — لتعيينه ملكاً في دنقلة (٣) .

ويروى المقرئى أن تلك الحملة الجديدة التي أرسلها السلطان قلاوون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التي اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربي للنيل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقي تحت قيادة أيدير والى قوص

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبسكتهم . أما جريس الذى لقبه المقرينى بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند ومعه أولا كنز د ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات ، (١) : ويبدو أن حملة الممالك لم تصادف مقاومة في ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة — أى من بلاد الدالى — جزائريكاثيل — لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فكان العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وطادوا » . ومن جهة أخرى فإن الممالك احترموا أرواح الأهل وعملت كاتهم في تلك الجهات ، رهاية لجريس .

على أن سياسة الممالك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نفاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جلاوا عن البلاد « طاعة لملك النوبة » ، فأخذ الممالك ينهبون ويقتلون من يصادفونه من الناس « فرعوا الزروع وخرّبوا السواقي » (٢) . ويفهم من ذلك أن سيامون عاد إلى خطته القديمة فجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع الممالك في معركة فاصلة . وعندما وصل الممالك إلى دنقلا — عاصمة مملكة النوبة — وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا الممالك أن سيامون فر إلى جزيرة في النيل تبعد عن دنقلا خمسة عشر يوما (٣) .

وكان أن اتجه أيدير والى قوص بمن معه من جند إلى تلك الجزيرة لمطاردة سيامون ، حتى وصلوا إلى تجاههما فطلبوا منه الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سيامون خشى أن تحاصره سفن الممالك في تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جهة الأبواب هلى بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمراته فهتلا هن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقرينى : السالك ، ج ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك^(١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، خلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج^(٢) المماليك الملك الجديد — الذى كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان المماليك والوفاء بالالتزامات التى تعهد بها شكندره من قبل ، وبعد أن أحى المماليك في دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزينوا الحرايق والسفن فى النيل حيث لعب الزاقون بالنفط ، قفلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة فى دنقلة لمساندة الملك الجديد^(٣).

أما سمامون ، فإنه لم يكده يعلم بعودة المماليك ، حتى خرج من جحره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرد الأمير بيبرس المزى قائد الحامية المماليكية ، فى حين قبض على الملك الذى عينه المماليك وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات ، كما قتل جريس^(٤) .

وكان سمامون يعرف أن سلطنة المماليك فى مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، وإن تغفر له عمله ؛ فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأنه يقوم بالبقاء المقرر وزيادة ، وبعث رقيقا وغيره مقدمة . ويبدو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفدت مشاكله الداخلية وحروبه ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمامون وقبل تعهداته ، وأقره على ما يده من بلاد^(٥) ، وذلك بعد أن حلفه على يمين مشابه لليمين التى حلف عليها شكندره^(٦) . وقد ذكر النويرى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) القلقشندي : ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذى دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع فى النوبة . وإقرار
سمامون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت يتأهب
للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان
متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة (١).

وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر
النوبة جزءاً من مملكته الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية العهد الذى
كتب للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم
الدولة ، ومن جملتها مملكة النوبة وما احتوت عليه ، (٢).

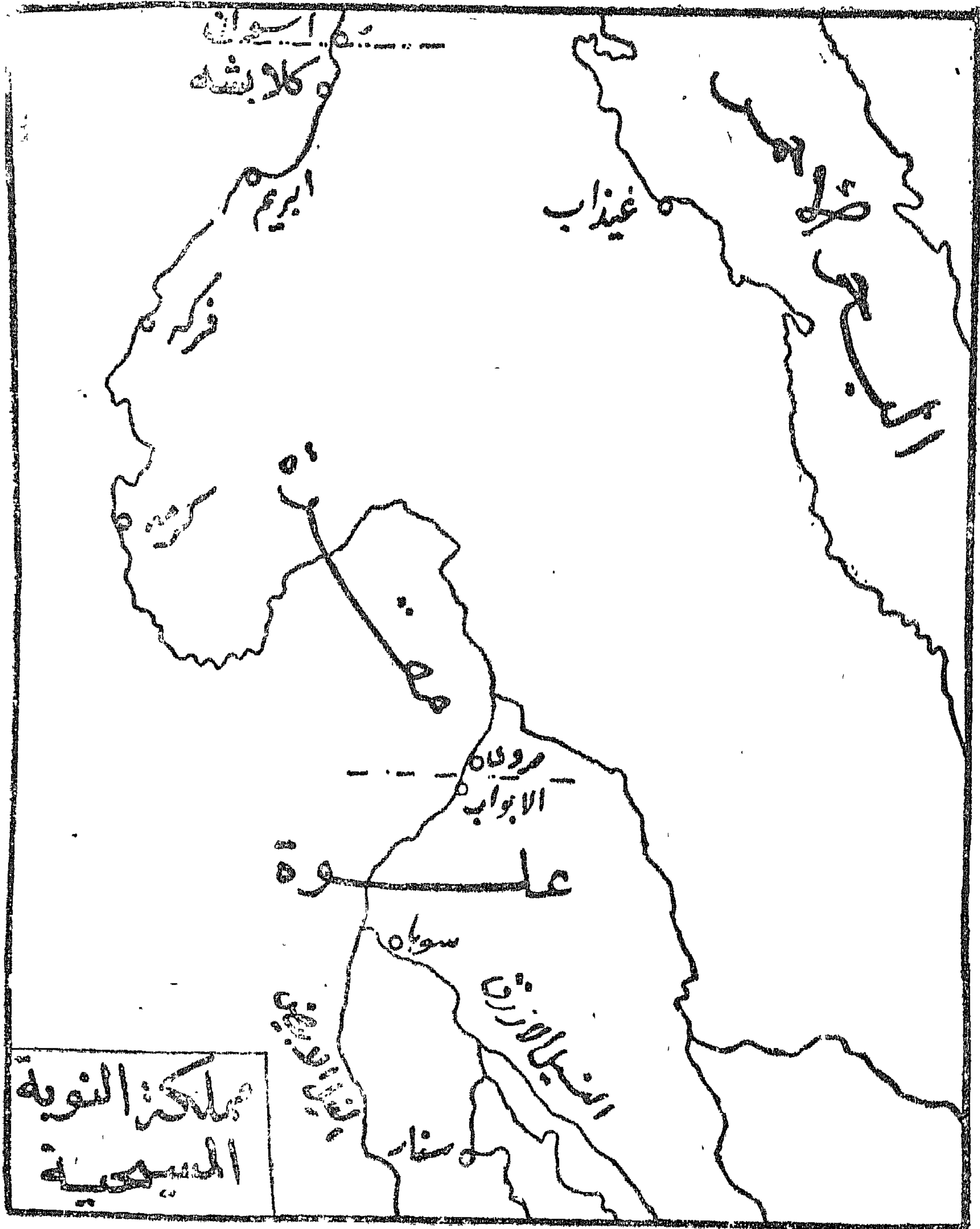
السلطان الأشرف خليل والنوبة :

على أن سمामون لم يف بالعهد الذى قطعه على نفسه إذ لم يكبد يعلم بوفاة
السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعث
إلى السلطان الأشرف خليل يعتذر بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة « دخول
المساكر الإسلامية إليها كره بعد كره » ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب
الأبواب قد زادت البلاد خراباً إلى خرابها ، (٣). لكن السلطان خليل
لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سمामون مهددة منكرة ، حتى سأل
الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سمامون
وعمته وبعض أهله بعطفه بوصفهم رهائن وأنزلهم فى دور الضيافة بالقاهرة
وبعد ذلك بإقليم أرسل سمامون أخاه جريس — وهو غير جريس الذى
سبقت الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه.

(١) الزبيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) المقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الحفية ص ٢٩ — ٣١ .



وقد ذكر سمامون في رسالته « إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء » إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان^(١) . ويظهر أن الهداء كان مستحكما في ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط في الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التي أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأي رسول يرسله ملك الأبواب^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم يتخذه بكلام سمامون المعمول ، بل ضاق ذرعا بمطامته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آني من ناحية أخرى . وقد ذكر محي الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة في اقتضاب ؛ فقال إن الأمير الأفرم أوغل في مملكة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوب دنقله في مطاردة الملك آني الذي فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الأنج^(٣) . ولمكن المماليك لم يستطيعوا الاستمرار في مطاردة آني بسبب « شدة العطش ، ولأن البلاد التي وصلوا إليها خراب ، مأوى الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام » مما يشير إلى أن المماليك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى المماليك بتأديب تلك الجهات « ورجعوا بغنيمة » إلى دنقلة^(٤) . أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شيء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة المماليك له .

وفي تلك الأثناء وصلت تعليمات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الحفية ، ص ٣١ .

(٣) محي الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والصور ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكاً على دنقلة ، وفي الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى المماليك وأكابر مملكة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية بيمين الولاء له ، ولكن ذلك اليقين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان المماليك ، ولولا مولانا السلطان ما أطمعناك ومتى تغيرت أمسكتناك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً فلاحاً أو جبلياً ، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته » (١) . وبعد ذلك حلف المماليك جريس — الذى كان نائباً للملك النوبة فى جزائر ميكائيل وعمل الدر — وبذلك تعهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان المماليك ، وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عوناً عليه لمولانا السلطان .

وبعد ذلك شرع الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جنود إلى القاهرة ، وبعد رحيله بخمسة أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدى الأمير الأفرم لأنه كان مشغولاً بمطاردة آفى ، وأنه يسعى للسيطرة على بلاد الأنج ، فإذا تم له ذلك د صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته » (٢) .

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحاً كبيراً ، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط ، . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثلثمائة رجل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره متجولة فى أحسن زى ، ومعهم أحوال عديدة من غلات النوبة (٣) .

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والمصور ص ١٥٣ .

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٣) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٥ .

السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك في القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون لايهم فيما ينشب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أمانى ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والى قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أنمت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥ (١).

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لآمانى ملك النوبة، بدليل أن أخاه كر نيس قتله سنة ١٣١١ ليحل محله في عرش دنقلة، وقد أحس الملك الجديد بحاجة إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلناً ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملاً الجزية والضرائب المفروضة على بلاده (٢).

ولكن كر نيس سرعان ما تنكر لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقطة إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كر نيس ووضع حد للمشكلة النوبية (٣) وحشد لهذه الحملة عدداً كبيراً من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيبك چهاركس عبد الملك (٤). واصططحت هذه الحملة معها أحد النوبيين - هو سيف الدين عبد الله

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦١ .

برشنبو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق - لتتويجه ملكاً على النوبة بدلاً من كر نبس وكان برشنبو قد أسر في إحدى الحملات السابقة التي أرسلها سلاطين الممالك إلى النوبة وتربى نشأاً في الطباق السلطانية ضمن جملة ممالك السلطان واعتنق الإسلام^(١). والواقع إن تفكير سلاطين الممالك في تعيين بعض أبناء النوبة - الذين عاشوا وشبوا في مصر وتربوا كثيراً من مظاهر الحضارة المماليكية الإسلامية - ملوكاً على مملكة دنقلة ، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه في التاريخ إلى أن اختيار حام كمسلم للنوبة كان كفيلاً بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام ، وبالتالي إلى زيادة نفوذ العنصر العربي فيها ؛ وكل هذه أدت في نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية^(٢) . ذلك أن بنى كنز - وهم من عرب ربيعة الذين تطرقوا إلى بلاد النوبة في العصور الوسطى - أخذوا يتطلعون في ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلاً عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالكي في النوبة ، حتى أن الملك كر نبس كان خال كنز الدولة أمير بنى كنز . ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت ، فإن الملك كر نبس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيين ملك مسلم في عرش دنقلة فإنه أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإعلاء السلطاني في توليته الملك . وقد جاء في رسالة كر نبس إلى السلطان الناصر محمد ما نصه : « إذا كان يقصدهم لانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم ، فهذا مسلم ، وهو ابن أختي . والملك ينتقل إليه من بعدى »^(٣) .

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة ، ومضت حملته بقيادة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٠ ورقة ٩٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) مصطفى حسنة : الإسلام والنوبة ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥ - ٩٦ .

الأمير عز الدين أيوب وصحبتهما عبد الله برشايو إلى النوبة . وقد فر كرئيس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذي طاد بهما إلى مصر سنة ١٣١٧ بعد أن تم تتويج عبد الله برشايو أول ملك مسلم على ملكة النوبة (١) .

أما كنز الدولة ، فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان ، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وعندئذ رحب به الناس وحيوه كعادتهم في تهيئة الملوك بلفظ « موشاي ! ... موشاي » (٢) وفي ذلك الوقت كان استقياؤ الأهل في النوبة من ملوكهم الجديد الذي عينه السلطان الناصر محمد « وهو عبد الله برشايو » قد بلغ أشده لأنه « غير قواعد البلاد وتعامل نوعاً من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله » ، وحامل أهل البلاد بغلظة وشدة « (٣) وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشايو وأن يقتله ، وجلس كنز الدولة على عرش دنقلة . وقد ذكر النويري أن كنز الدولة رفض أن يضع تاج الملك على رأسه « رعاية لحق أخواله وتعظيمهم وحفظاً لحرمتهم » (٤) ولكن يبدو أن السبب الرئيسي الذي جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه ، هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية (٥) .

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر أن ما فعله كنز الدولة

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً للمهيمنة السلطنة المالكية وإخلالاً بهيبتها ومكانتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرئيس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكذب أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام غدر بابن أخته وقبض عليه ليرسله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التي أوقفت ذلك الإجراء (١) .

ومكنا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليعتلى كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدي كنز الدولة له ولرجاله ، وإنما بادر بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن علي قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد هبة تلك الحملة كرئيس ليعتلى عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد في المراجع أن كرئيس اعتنق الإسلام عقب هيبته إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن نهضت تلك الحملة في تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرئيس العرش ، ولكن لم تكد الحملة تلمسحب من النوبة حائدة إلى مصر ، حتى ظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

المعركة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر المصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .
(٢) اللسانى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .
(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

في ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين . وكان لسلاطين المماليك سند قوى في تلك الحملات لأن ملكة النوبة كانت مسيحية ، حكمها ملوك مسيحيون ، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى في عصر الناصر محمد بن قلاوون بقيام كنز الدولة في حكمه ونقله ، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربي صريح . ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم ، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تصطبغ بالصبغة العربية الواضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية - عدا بني كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها (١) . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لا سيما إذا كانت هذه الدولة في عهد الجديده قد جندحت إلى السلم ولم تعد مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية . وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقعة ، فإن هذه الضرورية صار لا مبرر لها أيضاً بعد أن غلب الطابع العربي الإسلامي على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندي نصها : « فبعث السلطان كرنبس إليهم فلبسهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم » (٢) .

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا من ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ .

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكة النوبة المسيحية سقطت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتمدى بهن المبادلات التجارية المحدودة .

الفصل الخامس

بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك الأقوى والأكثر أتباعاً والأوفر ذكاً ، وربما حاول المماليك أن يظهر وقسطاً من الوفاء للسلطان الراحل فيعينون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنقشع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعي ، وأنهم لا يقلون أحقية في الملك عن السلطان الراحل ؛ ويكفي أنهم رضوا بحكمه حيناً من الدهر ، فلا مبرر لأن ينضموا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون - حيناً للنزاع - بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يبدؤملاؤه في سطوته وعصبية المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلحس في دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة ، - وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويخلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده - فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (١٢٧٩ - ١٣٨٢) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

في حقبة معينة بمبدأ وراثة الملك ، وإنما هي مجرد الصدف والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده فضلاً عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينتقدوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض السلاطين بنى قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلا في تلك الأثناء ، ولكن التيار القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة ، جعل عصر تلك الأسرة يكتب طابعاً خاصاً يميز في تاريخ المماليك، وربما كان في بقاء اسم الجدد قلاوون ، في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً يميزاً . هذا بالإضافة إلى أن جميع مميزات وخصائص العصر المماليكي اكتملت ونضجت في ذلك العصر ، فاستقر الحكم للمماليك تماماً في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي أنهارا بهرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتطور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها ، وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي قاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاوون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية وفي أرض النوبة من ناحية ثالثة ؛ فضلاً عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في إفريقية وأوروبا وآسيا ... أدركنا في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاوون في تاريخ دولة المماليك .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

والواقع إن السلطان المنصور قلاوون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل في أعقابه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل سلامش - ابن الظاهر بيبرس - من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه. وإذا كانت عاطفة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاوون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً في حياة أبيه، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفي في حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨. وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاوون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك، ومع ذلك فقد شامت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب مخاوفه من ابنه خليل. حقيقة إن خليلاً عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهودة في محاربة الصليبيين والتمتار والنوبيين، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو آية الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكن ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تعسفية في أخلاقه، ففقد بالأمراء ونداهم عليهم واستخف بهم، مما عجل بنهايته. وفي ذلك يقول المؤرخ ابن إياس « كان الأشرف بطلاً لا بكل من الحروب ليلاً ونهاراً. وكان مسعوداً في حركاته ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام... ولكنه كان يسمع الكلام في الناس بالباطل من وزيره ابن السلجوس، وكان ذلك سبباً لزوال ملكه... » (١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكديتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٦ .

حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الحكمة والنفوذ في عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل ولياً للعهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طر نطاي ، فحرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد ، ولكن طر نطاي رفض الاستجابة لهم . وكانت النتيجة أن السلطان خليل باذر بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طر نطاي وقتله غدراً ، الأمر الذي أثار استياء الأمراء ومخاوفهم^(١) . ولم يدرك السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حثفه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بدلاً من طر نطاي ، ومنعه إقطاع الأمير طر نطاي نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا في الدولة ، فأخذ يتطلع بدور إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذي انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلجوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلجوس في الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلجوس الوزير ، فأخذ الأخير يوشح قلب السلطان على بيدرا وأوممه أن أملاكه اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه^(٢) .

وقد أحس بيدرا بنية السلطان الأشرف خليل للغدر به ، ولكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه في سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيلة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة الإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتتم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

(١) بيبس المواد : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٦٧ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

في ناحية تروجه - قرب أبي المطامير بمديرية البحيرة - وانقض عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصوري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصوري . . . حتى خر السلطان قتيلًا بين أيديهم سنة ١٢٩٣ (١) . ويقال إن جيشان السلطان خليل ظل ملقى في العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها (٢) .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (سلطنة الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التثيلية التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذ اجتمع الأمراء المتآمرون في مسرح الجريمة وقبل أن تجف دماء ضحيتهم لينشأوا في مصير السلطنة . وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانًا فخلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه « الملك الرحيم » ، وقيل « الملك الأجد » ، أو « الملك القاهر » ، أو « الملك الأوحد » ، (٣)

ولكن المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا بزعمارة الأمير زين الدين كتبغا للنار لاستأذم ، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم في الطرائف من قرى كوم حمادة بالبحيرة (٤) . وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه ، وبذلك يكون بيدرا قد أباد « السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور خدرته » (٥) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٧٤ .

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه ، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة . ومن الواضح أن كلام هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه ، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد ، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون — أخى خليل (١)

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك ، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة ، فضلاً عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء . ولا نكون مباغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة ، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات .

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن — لم يتجاوز التاسعة من عمره — وقت اعتلائه العرش . وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى — التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢) .

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسمى كل من هذين الأميرين لانتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير . وفعلاً

(١) المقرئى : السلك ج ١ ص ٧٩٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الأنصار والأتباع . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسمى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق في تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له مانصه : إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولا بد من حضوره . فإنه بلغنا عنه ما أنكروا ، . ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوما كاملا . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خشيت عندئذ على ولدها ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هى الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول : إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل ! ، ولكنه كتبغا رد - على طريقة أمراء المماليك - متظاهرا بالزهد في السلطنة وبالرغبة في إقرار الأمور لا أكثر ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة (١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فأوحى إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكنه الشجاعى لم يعجبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان في القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه (٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى في شئون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فأدى ظهوره إلى

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - ممالك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال في القاهرة . وكان لاجين ما كراً ، فبادر بالانصال بالأمير كتبغا وزير له لإعلانه سلطاناً بعد خلع الناصر محمد ، لأن الأشرفية مادام الملك الناصر في الملك شوكتهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال في القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للتشاور في الموقف ، فقال بعضهم : « لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ، ومن رأى أن نولي سلطاناً كبيراً يجمع المماليك عن هذه الأفعال » ، (٢) وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

السلطان المماليك كتبغا : (١٢٩٤ - ١٢٩٦)

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل ، أما السلطان الناصر محمد فقد عزله كتبغا في بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كأمين صاحب نقر الدين الخليلي وزيراً (٣) .

على أن الظروف شاءت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتقال كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجذب ، حتى انتشرت المجاعة وفشت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨ .

الأمراض وحصار الناس يسقطون صرعى في الطرقات . ويروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التي نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت في القاهرة كل يوم بضعة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقاء بأمراضهم ،^(١) ولم تقتصر الطامة على مصر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاة للاستسقاء^(٢).

وإذا كانت المجاعة التي هبت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشامدون من حكمه وسوء طاعته ، فإن ثمة عاملاً آخر كان له أثره في ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولى الأصل أسره السلطان المنصور قلاوون في واقعة حمص الأولى وجعله في زمرة مماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة^(٣). ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينسه أصله وعشيرته ، فلم يكن يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على أنفسهم من غازان محمود إيلخان مغول فارس الذي اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم المويراتية أو الأويرانية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والجنود بالخروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأعطاهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلهم بالحسينية^(٤).

ولاشك في أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ - ٢٣ د

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم في الوقت الذي اشتد الغلاء في البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استياء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجند والشعب أن أولئك الأويرانية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا في صورة حامى الوثنيين . ولا يخفى علينا أن المسلمين في مصر والشام لم ينسوا للتتار عدوانهم على الوطن الإسلامي منذ أيام هولاكو ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لا يزال ماثلاً حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ؛ وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادل (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإنعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبل ، فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يهدقوا الهدايا والصلوات على الأمراء ، (٣)

ولا يخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستياء ضد كتبغا . حسام الدين هو الذي حرص كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه في المؤامرات التي انتهت بعزل الناصر ، ولذا فإنه كان يعتقد أن حقه في الملك لا يقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالتعفف والزهد في منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائباً للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بمخرج موقفه بوصفه من المتآمرين على قتل الأشرف خليل . ولكن مع مضي الأيام ثبت لاجين مركزه وضعف نفوذ المماليك الأشرفية الذين كان لاجين يخشى سطوتهم ، فلم يعد هناك

(1) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨١٧

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ٥٩٢ - ٥٩٤ .

مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيقي ويكيد للسلطان كتبغا لانزاع السلطنة منه .

وفعلًا أخذ لاجين يحرك عوامل البغض ضد كتبغا ، بل إنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون — قرب طبرية — سنة ١٢٩٦ ، أحس بالثأمة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

السلطان المنصور محمد بن : (١٢٩٦ — ١٢٩٨)

فر كتبغا ليحتمي بقلعة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذي استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبايعوه بالسلطنة ؛ فجمعهم وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست موليا عليكم من ماليكي أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ماليك العادل (كتبغا) وأنتم خوشداشيني (زملائي) ومحل إخوتي ، (١) . وبمثل هذه النغمة والعيارات المعسولة استطاع لاجين أن يكتسب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان مغتصب جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشتروا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط ماليكه — وخاصة منكوتمر — عليهم (٢) .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٨ — العصر المماليكي)

قاصداً مصر حيث خف أمراء مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ،
ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور^(١).

أما في بلاد الشام فقد خطب أولاً للمنصور لاجين في غزة والقدس
وصفد والسكر و نابلس ؛ لأن كتبنا كان لا يزال مقيماً في قلعة دمشق .
ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض
الناس والأمراء في شمال الشام عن كتبنا الذي لم يسمعه سوى أن يتنازل عن
السلطنة طائعاً مختاراً ؛ وأعلن أنه يرضى بالمكان الذي عينه السلطان
الملك المنصور حسام الدين لاجين^(٢) . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة
في صرخد — من أعمال دمشق — فذهب إليها معزراً — وأعله رأى ذلك
الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبنا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في
مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي ظل مقيماً في القاهرة
ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة . لذلك
فكر لاجين في إبعاد الناصر محمد إلى السرك بعد أن أمنه على حياته وتعهد
له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشيد^(٣) .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطري كتبنا والناصر محمد ، أخذ
ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً للسلطنة
ولكن لم يلبث أن هزله وعين بدلاً الأمير سيف الدين منكوتمر^(٤) ولا يخفى علينا
أن كبار الأمراء كانوا يخشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتمر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ — ٨٢٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب التمهيد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشترطوا - كما سبق أن رأينا - على لاجين ألا يدخلوا
ملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير ، فتضل ،^(١) . لذلك استاء الأمراء بما
فعله لاجين وأخذوا يكيدون له . وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين
لاجين رآك البلاد - وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامي -
وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجنود من أرض مصر . أما عامة الناس فقد
غضبوا من لاجين لإهماله وتمنى كل أحد زواله وكثر الدماء عليه ،^(٢) .

وفي ذلك الوقت كان مماليك الأشرف خليل يتحينون الفرصة للثأر من
لاجين الذي تأمر على قتل أستاذهم ، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة .
ولم يلبث المتآمرون - بزعماء الأمير كرجي مقدم البرجية - أن نجحوا
في قتل لاجين ومنكوتمر جميعاً سنة ١٢٩٨ ، وبذلك تجددت مشكلة ملء
العرش مرة أخرى^(٣) .

سلطنة الناصر محمد الثانية : (١٢٩٨ - ١٣٠٨)

اتجهت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً
مرة أخرى ولكن ثمة ظاهرة مسنّاه في تاريخ دولة المماليك منذ مولدها ، هي
أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة . لذلك حدث
عندما اجتمع الأمراء - عقب مقتل لاجين - لبحث الموقف واختيار سلطان
أن نهض الأمير كرجي وقال : يا أمراء ! أنا الذي قتلت السلطان وأخذت
نار أستاذي . والملك الناصر صغير ما يصلح . ولا يكون السلطان إلا هذا
- وأشار الأمير طنجي - وأنا نائبه ،^(٤) . ولم يلبث أن كثرت الطامعون واشتد

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

(٢) ابن أبي راس : بدائع الدهور ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : المهمل الصافي ج ٣ ورقة ٦٥ - ٦٨ (مخطوط) .

(٤) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٦ .

الشقاق . وكما هي العادة دائماً في تاريخ المماليك — روى حسبما للخلاف — اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء بأحققيته ، ولكن حتى ينجلى الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من السكرك سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل في القاهرة إستقبالا حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالي مصر أجمل ترحيب ، ولا يخفى علينا أن عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوعاً من الاستقرار وحسماً للمنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلعة ، وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستعبدا بالأمور ، واضيقا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلتا في أبسط أموره الشخصية مثل المهروف والمأكل والمشرب^(١) .

وفي ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر الذى أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد . وزاد من سوء الأحوال في تلك الفترة إحتدام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم يزداد تدريجياً ، في حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين بعض ، في الوقت الذى اشتد عبث العربان في الداخل ، وتجدد خطر التتار على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار في ذلك الدور .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

أما العربان ، فقد اقتهزوا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد ، وبخاصة في الوجه القبلي ، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات ؛ بل إنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سموا أحدهما بيبرس والآخر سلار^(١) . وكان أن أفتى العلماء والقضاة بقتالهم ، فخرج إليهم الأمراء ، « وضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد » ، أي أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلاً عن الأسرى^(٢) .

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضيق الأمراء عليه ، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار . ولكن هذين الأميرين عرفا خبر المؤامرة ، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعندئذ أرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول : « سبب هذا الركوب على باب اسطبلي ؟ إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه ، خذوه وأبعثوني أي موضع أردتم ! » فرد الأمراء عليه قائلين : « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء »^(٣) .

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمعوا وأخذوا يصيحون : « يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون ابن قلاون ! » الأمر الذي أدى إلى عدة اشتباكات بين المماليك والعامة^(٤) .

وأخيراً نفذ صبر الناصر محمد بعد أن شك ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد مغيثاً ، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

(١) المقربى : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، أبو المحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ — ١٥٢ .

(٣) أبو المحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة السكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨ (١)، وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف .

السلطانة المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء في الدولة أن يغزوهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلموا رسالته لأهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة في أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعه مائتيه ، وإلا طردوه من السكرك وحرموه من حقه في العرش . نفل عنك الصبي وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك نطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم (٢) . ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأسراء يقول لهم مانصه ودعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره .

وهكذا تجددت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وخاف أن يحل به ماحل بكتبغا ولاجين ، فأشار سلار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال : والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير — الذي تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلار نائباً للسلطنة — على عادته (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح السكر للناصر محمد، ظناً منه أن ذلك الحل فيه ترضية كافية للناصر وأشياعه. ولكن عدداً كبيراً من كبار الأمراء بالشام — وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماه وأسندمر نائب طرابلس — رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس. ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعاً في حلب وقرروا مكانة الناصر محمد في السكر ليعرضوا عليه مساعدتهم، فإما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيرنا. ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريث والصبر، لأن هذا الأمر ما يزال بالمجلة^(١). ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهداً فيها، ولكنه أثر الانتظار في السكر إلى أن تتضح الأمور وعندها يستطيع أن يسترد سلطانه بسهولة. هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريث قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي أطمأن بعد ذلك على مصير عرشه وقال: «الآن تم لي الملك»^(٢).

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في السكر؛ إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح فتى يافعا؛ فأخذ ينشط في معاملاته مع الناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه ماليكه^(٣). ويبدو أن ذلك النشاط أقلق مضاجع المظفر بيبرس، ففكر في الحد من نشاط الناصر، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٣) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٥٢.

ما عنده من الخيل والممالك وما استولى عليه من أموال الكرك ، وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية^(١) ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ، فرأى أن المغالطة أولى ، وحاول أن يستتر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له : المملوك محمد بن قلاون يقبـل الأرض . . . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرف لى والدا غيره ، وكل ما أنا فيه فنه وعلى يديه^(٢) ! وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام — أعنى نواب حلب وطرابلس وحماه — يشكو لهم سوء وضعه وتهديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم ما نصه : لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركتم لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد ؛ فما تراجعوا عني وأرسل المظفر يهدنى بالنفى إلى القسطنطينية . مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل "يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور (قلاون) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال^(٣) !

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماه فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوثوب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريث حتى يحين الوقت المناسب ، وهاهو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .

وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذي أخذ يعد
العدة للزحف على مصر . ولم يكبد أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد في
الحضور إليهم حتى أظهروا سرورهم ، وانفض معظم الأمراء في مصر ذاتها
عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم - مثل نوغاي - البلاد قاصدا الناصر
محمد لمؤازرته في استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد
على حقيقة الحال في مصر وشجعوه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة
الناس والجند ؛ الأمر الذي شجعه على اتخاذ تلك الخطوة (١) .

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلاً من أن يتدارك أموره ويرضى بالأمر
الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة
العباسي المستكفي بالله أن يجدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان
المنادون في القاهرة يصيحون : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن
تكلم فيما لا يعينه قتل (٢) ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلاح في تغيير مجرى
الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه ،
بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التي
أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلار نائب
السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه
وقال له : يامولانا السلطان ؛ إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد
تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالسكر ، وقد وقع الاختيار
على عوده ، ومن الرأي أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله في مكان تتوجه
إليه أنت وعيالك فاعمله يجيبك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر إلى هذا دهمتك
العساكر وهجموا علينا وأنت هنا (٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زيرشتين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء^(١) . ولم يسع السلطان المظفر بيبرس إزاء تلك الأخبار سوى أن يمان تنازله عن العرش ، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصحه^(٢) إن حبستني عددت ذلك خلوة وإن نفيقتي عددت ذلك سياحة وإن قتلتنى كان ذلك لي شهادة^(٣) ؛ وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماء . ريدو أن يببرس الجاشنكير أحسن فعلا بأن بقاءه في القاهرة صار متعذرا ، فقرر الخروج إلى أطفح بعد أن استولى على ما في خزائن الدولة من أموال . وعندما سمع العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجوه بالحجارة^(٤) .

سلطنة الناصر محمد الثالثة : (١٣٠٩ — ١٣٤٠)

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها في سلام واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والسرور ، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطنته الثالثة .

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية ، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شابا يافعا ، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لسكبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث في المرتين السابقتين . هذا إلى أن حكم الناصر محمد في تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) وهي مدة لم يتمتع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (خطوط) .

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذي أعطى عصر الناصر محمد طابعاً خاصاً فريداً ، والذي جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس . وساعد على يريق تلك الهالة التي أحاطت بعصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أقصى درجات الاتساع والعظمة بعد أن نجحت في قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدأت في صورة القوة العظمى في الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامي بوجه عام . وأخيراً فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملكاً عظيماً ، محظوظاً ، مطاعاً ، مهيباً ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... » (١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ، فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « أذكرك وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعتي في حق فلان ، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة فنفقتها ، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر فنفقتي يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به » (٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل ؛ في حين ألقى الأمير سلار في السجن إلى أن مات (٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد في ذلك الدور هو الناصر محمد الذي عهدوه في الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدير مؤامرة الخلع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شئون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له^(١).

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة بما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج فكانت به سائر الملوك وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته^(٢) ، ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانات وأوت وسبل وقصور ؛ وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقرئ السلطان الناصر محمد بأنه كان « محباً للعمارة » كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على العمارة سبعة آلاف درهم فضة ، أي ما يساوي ثلثمائة وخمسين ديناراً ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العصر^(٣).

هذا كله بالإضافة إلى انضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير - واستحدثت بدلها وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاوص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتنظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥ .

المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٦ .

الإعاش الاقتصادي ؛ مما يشير إليه في مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفي جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمجموعة طيبة من أمرائه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائماً عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تتصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه في التاريخ أنه كان يقرب الأمير منه ويزيد من ألقابه ويضفي عليه الكثير من ألوان التشريف ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى الذى ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفي علاقته بالأمير تمشكز الحسامى الناصرى الذى ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في ألقابه الكثير وصاحبه ، ثم أبعد عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر (١).

عصر أولاد الناصر محمد : (١٣٤٠ - ١٣٦١)

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من شاكاة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر الماليك والذين حكم الواحد منهم عاماً أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم سنين طويلة ، مما مكن لأولاده وأحفاده في قلوب الناس . ثم إن الظروف التى أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوابعه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التى اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الأموال والأقوات .. كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقاً بالناصر محمد وبيت قلاوون ويرون في بقائهم في الحكم ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة في الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ، من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين آتوك سنة ١٢٣١ فآثره الأمراء على ذلك ، وأذعنوا لذلك كلهم . وكان أن ركب آتوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن خير السلطان الناصر محمد رأيه ، ورسم أن يلبس آتوك شعار الأمراء ، وربما كان السبب في ذلك صغر سنه إذ كان عندئذ في التاسعة من عمره (١) . وكيفما كان الأمر ، فإن آتوك لم يلبث أن توفي بعد بضعة سنوات في حياة أبيه سنة ١٢٤٠ ، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوعاهم باختيار ابنه سيف الدين أبي بكر سلطانا من بعده ، فتعهدوا له بذلك (٢) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٢٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ - هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده في منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغارا أو أحيانا ما جملهم ألوية في أيدي كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا إحدى وعشرين سنة (١٢٤٠ - ١٣٦١) وبذلك يكون

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) لابغ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم الاستقرار الذى شهدته البلاد فى ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين أبو بكر الذى تلقب بالمنصور (١٣٤٠ - ١٤٣١) . ولم يكد هذا السلطان بلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أنابك العسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً فى العشرين من عمره ، ليست له خبرة بأخلاق كبار الأمراء والأعيان ، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده ، وقال لهم ما نصه : هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلى أحداً منكم ، (١) وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذى قبض على السلطان ونفاه إلى قوص حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتلائه عرش السلطنة (٢) .

وبعد قتل السلطان أبي بكر ، استحضرت قوصون أخاه علاء الدين كجك وولاه السلطنة بلقب الأشرف (سنة ١٣٤١) . وكان السلطان الأشرف كجك فى الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منتظراً أنه أن يكون له رأى مسموع فى إدارة شئون البلاد ، فظل فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام لم يكن له فيها أمر ولا نهى . وتدير أمور الدولة كلها إلى قوصون ، (٣) .

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذى لقب بالناصر (١٣٤٢) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطاناً مقيماً بالكرك . فلم يكد يحضر إلى مصر حتى رغب فى العودة إلى الكرك مرة أخرى ، وفعلاً انتقل إليها وترك الدواوين فى مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقيماً فى الكرك فى جوف الصحراء ناوركا مصر والشام الأمراء الذين د شق عليهم غيبة

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ - ٦٧٠ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء .. وعندما طلب
الأمراء من السلطان الحضور إلى قاعدة ماسك بالقاهرة ، رد عليهم قائلاً :
« إننى قاعد فى موضع أشتى ، وأى وقت أردت حضرت إليكم » (١) .

ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة - ثم
قتلوه فيما بعد - وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذى لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥) .
وقد وصف المقرئى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك
بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وقتئذ فإن العمار
والمنهآت ظلت تستأثر بمبالغ ضخمة من المال (٢) . ولاست هذه أهمية خاصة
لعمد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك فى قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد
بعد أن ساءت سيرته فى السكر . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض
وتوفى سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ - ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذى
تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً ومجوناً
واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين
ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعنفد أنه قتله أخوه حاجى الذى تولى السلطنة
وتلقب بالمظفر (١٣٤٦ - ١٣٤٧) (٣) .

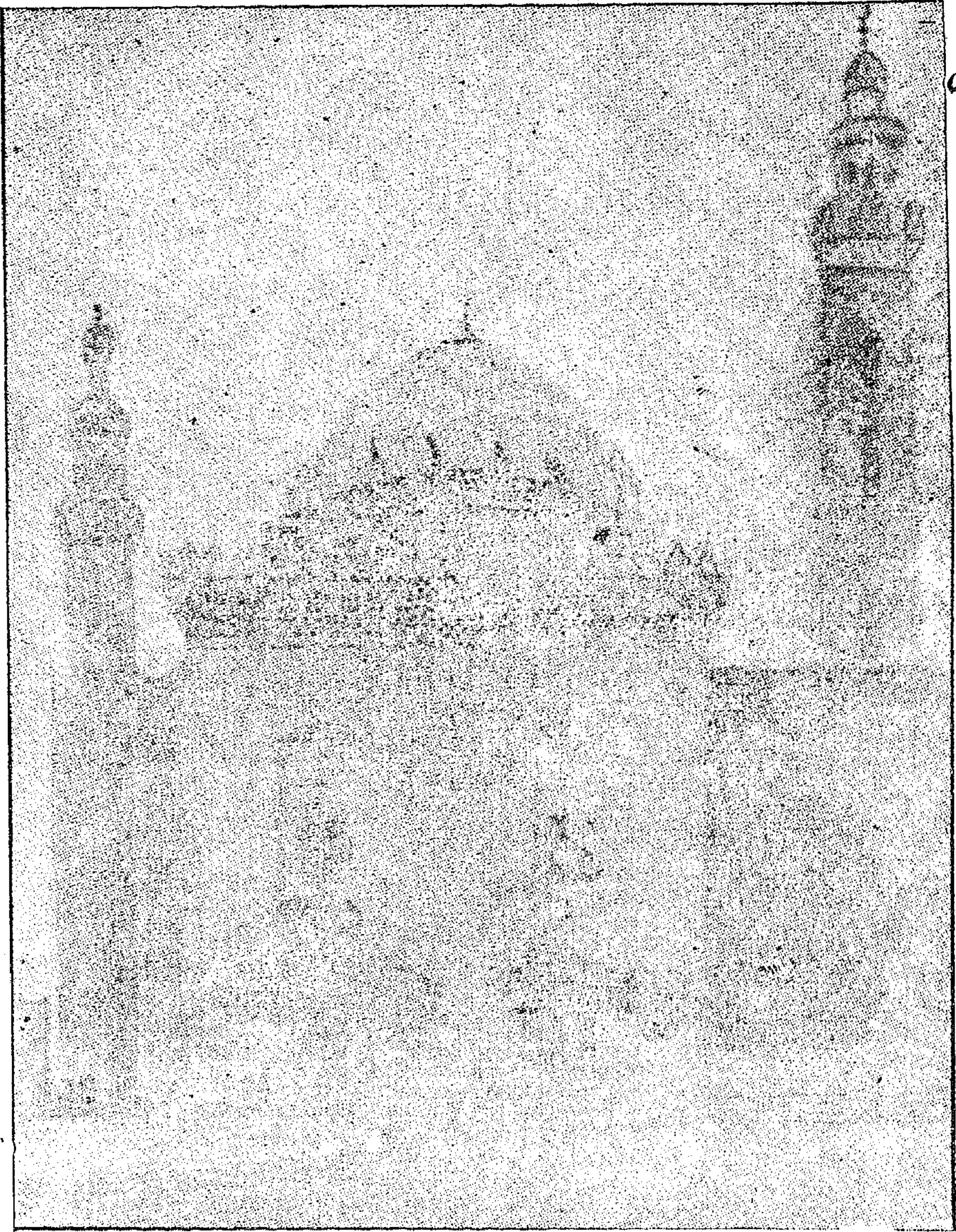
وكان المظفر زين الدين حاجى فى الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش
السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع « الأوباش » الأمر
الذى أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش (٤) .

(١) أبو الجاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) أبو الجاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ - ١٧٣ .



جامع السلطان حسن بالقاهرة

ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي ولى السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره ، فظل العوبة في يد كبار الأمراء الذين رتبوا المصروف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ، ولم يسمع بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك ، ويصرف الأمور بالعزل والولاية ، وتحمل إليه أموال مصر والشام ولا يتصرف فيها في شيء ،^(١) وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء ، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ - ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الصالح بأنه لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط ، لغلبة (الأمراء) شيخون وطراز وصرفتمش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليه أمورها لا غيرهم ،^(٢) . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة^(٣) .

وقد قضى السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية أكثر من ست سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٠) باشر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ سن الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فكان محبوباً للرعية ، وفيه لين جانب ، حمدة سائر خصاله . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثير من المباني الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء في شؤونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن ممالك يلبغا قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض ،^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن مياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٤ .

وبقتل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون،
وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر أبناء الناصر محمد، يتضح
لنا أن البلاد غدت نهياً لمجموعة من أمراء المماليك ، يتلاعبون بالسلطانين
الأحداث حسب ما يحلو لهم . أما طامة الأهالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف
المتفرج ، ليكون لمقتل سلطان ليقموا الأفراح والزيينات للسلطان الجديد .
وهكذا عاش أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة
بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة . وليس هناك
ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار
الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م (٧٤٩ هـ) .

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربيه - شهد في العصور الوسطى كثيراً من
الآزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعجز الإنسان
عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولا انتشار الجهل وضعف وسائل العناية
الصحية من ناحية أخرى . على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين
مثلما استأثر الوباء الأسود، نظراً لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره في
بلاد الشرق والغرب جميعاً^(١) . ويصف المؤرخ المقرئ كيفية انتشار هذا
الوباء فيقول ما نصه : ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم
الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان

(١) من الوباء الأسود وأثره في أوروبا ، انظر المؤلف :

أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٩ .

البحر وطير السماء ووحش البر، ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود حتى دانت خيولهم وصاروا كلهم جيفا مرمية، ثم أخذ الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغرباً عن طريق القسطنطينية، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر. أما أعراض ذلك الوباء، فكانت ظهور خراج صغير خلف أذن الإنسان وتحت إبطه، ولا يلبث بعد ذلك أن يصبغ المصاب دماً ثم يموت بعد عدة ساعات.

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشاراً فظاف صار الناس يموتون كل يوم بالآلاف، وغدت الأرض لا يوجد من يزرعها ووزهد أرباب الأموال في أموالهم وبذلوها للفقراء، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة مرياقوس ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء، إذ أقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، وأقفرت الأسواق من البائعين والمشتريين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر... وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز... وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس. وفي ذلك قال بعض الشعراء (١):

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيئ أشغاله	وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصلح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر محمد جاء ليزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء.

(١) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ - ٧٨٥.

عصر أمجاد الناصر محمد (١٣٦١ - ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير يلبيغا يهزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطانا سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دست السلطنة ، وهي الحقيقة التي تتضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبوالمعالى شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين علي (١٣٧٦ - ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ - ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ - كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد ، وتلاعهم بالسلاطين الصغار - إما بال عزل أو بالتميين - وفق أهوائهم .

٣ - اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيئا واحدا بايتقالتون في شوارع القاهرة بين حين وآخر ، مما أغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضى .

٤ - ازداد نفوذ طائفة المماليك البرجية ، أو الجراكسة ، ازدياد مضطردا وهو الأمر الذي سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد . ونكفي الإشارة الآن إلى أن طائفة البرجية هي التي استطاعت أن تكسب الجولة النهائية في الصراع الذي

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أمرة قلاون .

- اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ، وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاد فاشتهر سلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، حتى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) إنه كان لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء ، كما أنه كان يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات .. (١) .

محمد بطرسى لوزمجان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود - كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ ، وإنما استمرت ذبول تلك الحروب أمداً طويلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامى من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملاً في تلقى ضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامى في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في الثأر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧ .

وكان لطرد الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ،
فنادى المتحمسون للحروب الصليبية — وعلى رأسهم البابوية — بأن دولة
المماليك هي السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضمار دولة المماليك
أولا . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار
التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين
الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ
مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع
دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالي يفقدون
الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (٢) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب
بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيراً من
التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على
مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة
بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط لتسيير ذلك النهج من التجار الأوربيين
الذين استمروا يغذون دولة المماليك بأموالهم ، ضارين عرض الحائط
بنداءات البابوية وأوامرها (٣) .

ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص
يتخذها الغرب الأوربي مركز المراقبة الشواطئ الإسلامية في مصر والشام من
جهة ، ولضرب المسلمين وشن إغارات على مواضعهم من جهة أخرى . والمعروف
أن جزيرة قبرص دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٩٩ - ١٢٠٨ .

(2) Heyd : Hist du Commerce, II, p . 560 & I p . 26 .

عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط ، وهو الدور الذي ازداد قوة وبروزا عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط^(١).

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك ، ولم يقتنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوربية لمنعها من الوصول من موانئ مصر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حيثما وجدوهم : في آسيا الصغرى والشام ومصر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أو آخر العصور الوسطى^(٢) .

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنّها ملوك قبرس على بلاد الإسلام في القرن الرابع عشر ، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ . وقد مهد الملك بطرس لحملة برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوربي فضلاً عن البابوية ، وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحرارية ومادية كبيرة وأخير اجتمعت تلك الجهود في جزيرة رودس تمهيداً لاختيار أصح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم . وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن تتجه الحملة ضد

(١) سعيد طاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٥ .

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦ .

الإسكندرية على أن يهاجها الصليبيون يوم الجمعة والمسلمون في المساجد (١) .

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لوزجنان ملك قبرس في أكتوبر سنة ١٢٦٥ ؛ في وقت كانت دولة المماليك تعاني خلا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر — هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون — ووصى جاثم متغطرس عسوف هو الأمير يلبنغا الخاصكى (٢) . هذا في حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في أداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إنزال قواتهم إلى الشاطئ ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم في شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال (٣) .

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحو من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ الثغر ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرعت من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم المسلمون والمسلمة واليهودى واليهودية والنصراني والنصرانية ... (٤) . هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها في البحر لتخفف من كثرة الوسق (٥) .

(١) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ :

(٣) الزويرى السكندرى : الإمام بالأعلام ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٣٥ (مخطوط) ٩

ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) الزويرى : الإمام ج ١ ص ٣٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى إلى الإسكندرية في جند كثيف كالجراد المنتشر ، بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ، ورأى جيش القتل وقد اتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق (١) . وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلالاته وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه دخلها لصا وخرج منها لصاً ، (٢) .

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أغار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإغارة قد منيت بالفشل (٣) . وهكذا تذكر عدوان الصليبيين على موانئ مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط ، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تزود عن البلاد وتثار للعباد .

(١) سعيد هاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) النويرى : الإسلام ج ١ ورقة ١٦٥ (مخطوط) .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٦٥ (مخطوط) .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجية ونسبهم :

إذا أردنا أن نختار صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبيات، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبيات شتى ، لكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية ولكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولي نعمتهم . وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليك بقدر ما يستطيع الصمود في وجه منافسات الأمرأه ومؤامراتهم وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمرأه ، بل من مغالبة السلطان نفسه وانتزاع دامت السلطنة منه ، كما حدث في كثير من الحالات .

لذلك لا عجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم، فنسمع من الصالحية والظاهرية والمنصورية والأشرفية .. ثم تعدد الأسماء في كتب التاريخ بتكرار ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباي . وهكذا . وإذا كان السلطان شديد اليأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتم أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمرأه القائمين، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الخيلة ، فعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد فارقة في حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولعل هذا هو السر في أن كل سلطان بعيد النظر، وكل

أمير حريص على تحقيق مطامعه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء الممالك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا في المستقبل عدته وأمله في البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاوون ، الذي سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلي السلطنة وبعد أن وليها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفي النوبة . ويهمنا الآن أن نشير إلى أن السلطان المنصور قلاوون أراد أن يكون طائفة جديدة من الممالك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ، وتختلف في أصولها عن الطوائف المماليكية الأخرى القائمة . وكان أن اختار قلاوون أن ينشأ فرقة الجديدة من عنصر الجر كس - الذين كانوا ينتشرون شمالي بحرقزوين وشرقي البحر الأسود - حتى لا تربطهم روابط القرى والعصبية بغيرهم من طوائف الممالك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزمية والأتراك (١) .

ولاندري بالضبط الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اختيار ممالك فرقة الجديدة من الجر كس بالذات ، فهل يرجع ذلك إلى توافرهم في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت السلطان قلاوون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذي دفع قلاوون إلى اختيار ممالك الجدد من عنصر الجر كس هو هذا أو ذاك من الأسباب ، فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نسقطها من اعتبارنا هي أن الرقيق الجر كس كانوا عندئذ - بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب - أرخص سعراً من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ١ ورقة ٢٤٧ .

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً في حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون بدأ في تنفيذ مشروعه حوالي سنة ١٢٨١، فأخذ يشتري أعداداً كبيرة من الجركس ليسكنوا مثل الحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين (٢)، وأسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن ثم اصطف هذه الطائفة في التاريخ تسمية «المماليك البرجية» (٣). ولم يلبث أن أكثر قلاوون من شراء الجراكسة حتى بلغوا في أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورعى الذهب، كما حباهم بعطفه ولم يضمن عليهم بالمال الوفير والطعام الشهى والملابس الجميل، فضلائع أنه — هر وأبنائه من بعده — اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى في البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلنها في صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يهتم أولاد السلطان المنصور بتلك الطائفة التي أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم. وساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينجح فقط في تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح أيضاً في تأسيس بيت مستمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد في تاريخ المماليك، ولو كان الملك انقرض في ذرية المنصور قلاوون لضعف

(١) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 559.

(٢) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٣.

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦.

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤.

(٥) ابن لماسة : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠.

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤.

شأن المماليك البرجية ، واسمعهنا في التاريخ أن الأمير الذي اعتلى دسست السلطنة بعد المنصور قلاوون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة ولكن الذي حدث هو أن المنصور قلاوون توفي ليخلفه ابنه الأشرف خليل فآتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور — قوة المماليك البرجية — حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩ — ١٢٩٣) ما يقرب من ألفي مملوك جركسي . وهكذا أضحي المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك ، مما جعلهم يشقون طريقهم في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

ظهور المماليك البرجية على مسرح الأحداث :

والواقع إنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية — بعد أن تكاثرت أعدادهم — بعيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاوون سمح لهم — لأول مرة — بمخادرة أبراجهم وطباقيهم بالقاعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة^(١) وقد ترتبت على ذلك نتيجةتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ما غدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لا تهدأ لها نائرة في ذلك العصر . وأول ما نسمعه عن المماليك البرجية في ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

(١) المقرئى : المواظ ج ٧ ص ٢١٣ .

الأشرف خليل، فثاروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ تأثيرتهم إلا عندما انتقموا لمقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة؛ ثم بإعلان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه (١).

ولم يكن في استطاعة الناصر محمد في سلطنته الأولى أن يصمد في وجه كبار الأمراء، فعدت البلاد مسرحاً لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقي رغبة كل أمير في الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد. وفي ذلك النزاع ظهرت الطائفية المماليكية على أشدها، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحياناً في بعض المراجع اسم الأشرافية نسبة إلى الأشرف خليل (٢).

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأزولوا الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم؛ وبذلك حقق البرجية نصراً جديداً أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية في ذلك العصر (٣).

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذهم وإنما يعمل من أجل نفسه، فانفضوا عنه، الأمر الذى أدى إلى رجوعان كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى. ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطور البرجية بعد أن أخذ درساً على أيديهم، فعمل على تشييت شمائمهم وتفريق صفوفهم، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

(١) أبو المحاسن : التيجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) السكتبى : عيول التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ — ١٠١ .

(٣) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ .

المفريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

في نواحي متباعدة من القاهرة ، ولم يترك في القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة^(١) . ولعل هذه الإجراءات التي اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثرها في إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين في القاهرة ، واتخذت هذه الثورات صورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ أرادوا في إنزالهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لهصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعيناً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان الناصر محمد في سلطنته الأولى طفلاً صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا - كما سبق أن فصلنا - هو كل شيء في الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٦ - ١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفي عهد هذين السلطانين المقتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك في مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الآخرون على مقاومة الترك في شخص كتبغا ولاجين^(٢) .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجي أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨^(٣) . ويبدو أن البرجية كانوا لا يزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاوون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تنهياً بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختراروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندما عارض بعض أمراء البرجية - مثل

(١) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .

(٣) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

كرجى وطنجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جبهة البرجية وعلى رأسهم
بيبرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ،
وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى (١).

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية
فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية
وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص
فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية
أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام الأمر
الذى جعل المؤرخ أبا المحاسن يهيد ببطولاتهم فى واقعة شقجوب - قرب دمشق -
سنة ١٣٠٢ ، فيقول : وصرخ (سلار) فى بيبرس الجاشنكير وفى البرجية فاتوه
دفعه واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً
وسلبوا أنفسهم اللوت . . وكانت اسلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء
على المسلمين (٢) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من المماليك الجراكسة كانوا قد
أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا
فى النهاية سر ما صار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق المماليك كانت تتألف
فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يعتمدونهم استاذهم - سلطاناً كان أو أميراً -
بالرعاية والعناية كما تعتمد الدجاجة أفراسها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من
تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم
طبيعة دور الفشاة الذين يملكونهم به على استاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يترعرعون
ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أى يصبحوا أمراء ، وعندئذ تصبح

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٦٠ - ١٦١ .

لهم قيادة ذاتية تنبع من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكبة عندما أسسها السلطان المنصور قلاوون ، تتألف من عماليك صفار لا حول لهم ولا قوة ، ولكن مع مضي السنين والأيام نما هؤلاء الصفار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا نسمع أن السلطان الناصر محمد عين في سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أيبك المنصوري - في الوزارة (١) . أما المقرئى ، فيقول في حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أى في سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه : وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس اليهم في الأشغال ، وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة... وصار في قبالة الأمير سيف الدين سار ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحدا من البرجية وقفت أصحاب سار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدا... (٢) .

على أن طبيعة البشر كثيرا ما تجعل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاوون وأن واجبهم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاوون وليس عرش بيت قلاوون هو الذي يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويفكرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وما دامت السلطة غدت ضعيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية في تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالتهم .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس في سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجراكسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلازيم الترك وبيبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك للأميرين سلاز وبيبرس الجاشنكير إلى العمل معاً بما جعل مؤامرة الناصر محمد تنتهى بالفشل (١) . وعندما يثس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلاز وبيبرس الجاشنكير وتضييقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء في الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبرهم بيبرس الجاشنكير دست السلطنة في تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية يلبى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم : إن هؤلاء الجراكسة متى تمسكوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا ، (٢) . لذلك لم يوفق بيبرس الجاشنكير في سلطنته نتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية ، ثم كراهية الناس لبيبرس الجاشنكير لاسيما وأن سنة اعتلائه دست السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وغلاء الأسعار وفتشاور الناس بسلطنة المظفر بيبرس ، (٣) . وهكذا لم تطل سلطنة بيبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد عرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش في تلك المرة بعد أن بلغ من العمر ما يمكنه من الوقوف على قدميه في وجه كبار أمراء الترك والجرأ كسة جميعاً ، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله ، واتبع سياسة صارمة تجاه الجرا كسة جعلته يحرص على تقليم أظفارهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجرا كسة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ هـ ، إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل بزعمائها من البرجية تنكياً شديداً . ومن ذلك ما يرويه المقرئ في حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد دارت جمع ما كانت البرجية قد اشترته من أراضي الجيزة وغيرها ، (١) . أما العيني فيحكى أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) إلى تغريق من خشي خطره من البرجية في النيل (٢) .

ازدياد نفوذ الجرا كسة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع في سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجرا كسة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحداثاً وأطفالاً ، الأمر الذي جعلهم أداة سهلة في أيدي كبار الأمراء ، يلهمونهم وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التي كانوا يولونهم بها . وهكذا أتاحت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الحوادث هـ وفي تلك المرة تنكبوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجركسي ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والذمير في عهد الناصر محمد .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد قناروا سنة ١٣٤٥ بزعماء الأمير غرلو الجركسي شاد الدواوين ، في عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجي سنة ١٣٤٦^(١) . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة في الدولة ، الأمر الذي أثار حقد الترك ، فأوقعوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسي ليحملوا محله الأمير أرقطاي التركي في نيابة السلطنة^(٢) . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجي أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة في تلك الفترة نتيجة لرجحان كفة الترك وسيطرتهم على شئون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا في اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك في ذلك الدور الأمير يلبغا الخاصكي ، الذي زاد عدد مماليكه عن أربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده^(٣) . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا في الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلي لدولة المماليك ويده الأمر والنهي ،
في الوقت الذي ازداد عدد مماليكه وسيطر واعداد كبير من الوظائف العسكرية .
ولم يلبث طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم ، مما أتاح
فرصة للسلطان شعبان للتخلص من استبداد يلبغا الذي انتهى الأمر بقتله سنة
١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا تشييت المماليك اليلبغاوية في أنحاء الدولة
والتشكيل بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ،
ولم يكونوا جميعا أتراك ، وإنما كان منهم الجر كسي ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يديم
قوته ويتوسع في شراء المماليك لم يراع الجانب العنصري ، فجاء في صفوف
مماليكه الترك والجر كس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية
بما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاصكي ، وازداد هذا الاستياء
بصفة خاصة بين صفوف الجر كس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم
مزدوجا لما حل بهم من اضطهاد بوصفهم جراكسة أولا ويلبغاوية ثانيا .
وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم
بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء
هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله
من الجر كس .

برقوق وتأسيس دولة المماليك الجر كسة :

تزعّم الأمير برقوق المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن
ثم يرجع إليه الفضل في إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم
في دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يمهّد لليلبغاوية فحسب ، بل مهّد أيضاً

(١) أبو المحاسن : ج ١١ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٦٢٠٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دست السلطنة من الجراكسة . الأمر الذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسي الجانس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكي حوالى سنة ١٢٦٣ ، وأعتقه وجعله من جملة ممالكه (١) . ثم يروى أبو المحاسن أن برقوق استمر في خدمة يلبغا حتى ثار بعض المماليك اليلبغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لا يدرى أبو المحاسن هل كان برقوق ممن هو مع أستاذه يلبغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلبغا لما تعرض له جمهرة المماليك اليلبغاوية من اضطهاد وحبس بالكرك سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣ ؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة (٢) . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب - أى أميراً صغيراً - ؛ فإنه أسهم بسهم وافر في المؤامرة التي انتهت بقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطاناً سنة ١٣٧٦ (٣) .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلبغاوية ونجاحهم في التخلص من السلطان الأشرف وممالكه سيؤدي إلى صدام بين الأمراء اليلبغاوية وبعضهم وبعض ، لاسيما وأن السلطان المنصور على كان في السادسة من عمره ، مما أغرى كبار الأمراء اليلبغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهنأ رسم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أيبك اليدري ، حتى يبدو بعيداً عن حلقة الصراع ؛ وفي الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء بعضهم ببعض حتى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .

يصفوه له الجو وكان أخطر منافس للأمير أيوبك البدرى هو الأمير قرطاي الطازى ، فاصطدم الأميران وتمكن أيوبك من القبض على قرطاي ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧^(١) . وظن أيوبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت مهيأة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى ، إليك وأنباعه ليخلق عصية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى ، دفعة واحدة ، من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه^(٢) .

غير أن مطامع الأمير أيوبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثارت مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أيوبك سنة ١٣٧٧ بزحامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق وعندما سمع أيوبك نبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لإخماد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أيوبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرروا أيوبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلغيا الناصرى وبركة الجويانى^(٣) . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام وصحبها السلطان المنصور على الصغير ، وعندئذ بدأت أولى حلقات المؤامرة فتثار الجند على أيوبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أيوبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالعسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسنى درجات الإمارة فى نظام المماليك^(٤) .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلغيا الناصرى وبركة الجويانى ، فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستمعين به فى تحقيق مآربه ثم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ — ٣١٢

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه في نهاية الأمر وعند ما تخوف بعض الأمراء الترك من نوايا برقوق
رأشفقوا على مصير بيت قلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك
البيت ، تمايل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أتابكية
مصر (١) . ومن يدري ، فربما كان في حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة
طيبة للتخلص منه ، فضلاً عما في اختيار طشتمر لذلك المنصب الكبير في القاهرة
من إرضاء للترك ، غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمح
فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين
الطرفين سنة ١٣٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبس به بالإسكندرية ونفي عدد
كبير من أتباعه (٢) .

وبكذا خطا برقوق خطوة جديدة نحو الإمام فتولى منصب أتابك العساكر
في مصر وأصبح زميله بركة رأس نوبة كبيراً أتابكاً (٣) . أما يلبغا الناصري
فقد قبض عليه حينما ثم أرسل إلى نياطة طرابلس . ويصور أبو المحاسن الموقف
في ذلك الدور فيقول ما نصه : والممول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى
طمعت الناس بقوتهم : برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبة (٤) .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تفسد عليه خط سيره ، إذ ثار أحد
الأمراء الجراكسة . هو إينال اليوسفي - سنة ١٣٧٩ ضد برقوق وبركة
جميعاً . وتفصيل ذلك أن إينال كان يضمركرها شديداً لبركة ، وحاول بشتي
الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

(١) الشافعي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) الأتابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرفي .

الفاشي شندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

ألا يتعجل الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إينال وأخيراً أحرق إينال على بركة و برقوق جميعاً فانتزعت فرصة غياهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب ما فيه كما خدع صغار ممالك برقوق بأن مناهم بالأمان المعسولة ليعاونوه في خطته^(١). ولكن برقوق حادسراً وتمكن من إخماد الثورة، ويقال إن ممالك برقوق ما كادوا يرونه حتى سرت عما بقته في نفوسهم: نفر والده طائعين، وتحولوا ضد إينال الذي ولي الأديار. ولكن برقوق استطاع القبض على إينال وسجنه^(٢).

وكان لا بد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول يشكر في التخلص من الثاني. وقد فكر برقوق في استئارة الرأي العام ضد بركة، فخرضه على انتزاع بعض أراضي الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر الذي أثار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وجماعة العلماء والمسلمين^(٣). وفي الوقت الذي ثار الرأي العام ضد بركة، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم^(٤). وكان برقوق يعرف جيداً أن استبعاد بركة يعني ثورة الترك الذين يتعصبون لزعيمهم، ولذلك استعبد برقوق للمركة القادمة بتقوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا «صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة»، على قول المقرئ^(٥). ولم يكن هناك مناصاً من الصدام بين هاتين الفرقتين، فوقع الصدام سنة ١٨٢٠ وانتهى بالقبض على بركة وحبسه بالإسكندرية ومصادرة أمواله، حتى قتل بعد قليل^(٦).

(١) ابن أبياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: المعبر، ج ٥ ص ٤٦٨.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٣ ورقة ٢٣٦ (مخطوط).

(٤) ابن حجر: أنباء الغر ج ١ ص ١٠٩ — ١٢٦.

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٣ ص ٦١٠ — ٦١١.

(٦) ابن حجر: أنباء الغر ج ١ ص ١٤٣.

ابن أبياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفي السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، ولسكن برقوق رأى أن يترث قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان في الحادية عشرة من عمره^(١) . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتمجّل إعلان نفسه سلطانا قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عز عليهم ما حل بزعمهم بركة . لذلك ظل برقوق على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدها ، ولم يجسر على السلطنة ،^(٢) وفي الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم ، فأنقرضت دولة الأتراك بأسرها وتبعوها بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا ،^(٣) .

وطبيعي أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقروفا بشرط اشتراك الأمير برقوق معه في تدبير أمور الدولة ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفي الدولة فحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية في الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التي غدت في يده ليكن لنفسه ويملا الوظائف الكبرى باتباعه ومماليكه ، هذا إلى أنه أخذ يتحجب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذي أنعش الحياة الاقتصادية ، وجعل الناس يلمحون بشكره^(٤) . أما في الخارج فقد حدث سنة ١٣٨١ أن أغار التركمان على حلب

(١) ابن خلدون : المعراج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ .

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١١ .

ولكن برقوق استطاع صددهم وطردهم، الأمر الذي أظهره في صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها^(١).

وفي تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق في اغتصاب السلطنة. وكان أن دبر الترك مؤامرة لاغتيال برقوق، وكانت المؤامرة برعاية أيتمش الخاصكي وبطا الأشرفي، ولكن عين برقوق اليقظة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة ونفيهم وجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لنوال سلطان العنصر التركي وإيداناً بقيام دولة المماليك الجراكسة^(٢).

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ في التخوف، الأمر الذي دفع بعض المقربين إليه إلى أن يقدموا له النصيح بأن يتسلطن ويحتجب عن الناس ويستريح ويرج من هذا الذي هو فيه من الاحتراز من قيامه وعوده^(٣). ولكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشى وقوف كبار الأمراء في وجهه وخاف عاقبة ذلك. واعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية، وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات السكيفية بإجلالته على العرش، وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطوتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمير عبد الغني والأمير أيدير الشمسي. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين طابت نفسه، واستجاب لمؤيديه، وإن ظل «يقدم رجلاً ويؤخر أخرى»^(٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد لإثنان من أعوان برقوق وأخذوا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك وحملوه إلى أمهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفي الحال استعصر الخليفة العباسي المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر (١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٢ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الترك ، وبدأت دولة المماليك الجراكمة التي استمرت في الحكم حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ ، وقبل أن نتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين في تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لمصائبها العامة في التاريخ .

مصائب دولة المماليك الجراكمة :

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكمة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي ، ما عدا إثنين هما خشمقدم وتمرغا كافا من أصل يوناني

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار ، والذي ظهر بوضوح في بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثراً في دولة المماليك الجراكمة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن لمدة أشهر فقط . ذلك أن اختيار ابن السلطان

(١) المينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحل لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل مؤقت حتى ينجلى الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوى يستأثر بالعرش لنفسه .

وكان عمر دولة المماليك الجرا كسة مائة وأربع وثلاثين عاماً ، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطاناً . ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات ، في حين حكم الستة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجرا كسة فهم : برقوق وفرج وشيخ وبرزباى وحقق وإبنال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكائهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض (١) .

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجرا كسة بحبهم للأدب ومجالس العلم - مثل برقوق وشيخ وحقق وقايتباى والغورى - كما بالغ بعضهم العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها . وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإففاق عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم .

ولاشك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجرا كسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم ، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع ، مما أوجد جواً من الرعب والاضطراب وعدم الاستقرار في البلاد . وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم ، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيتحكمون في البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية بحثة ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بهيبتها ومكانتها في المحيط الدولي ، بل لقد تمكن المماليك في ذلك العصر من إزال ضرب قاصمة بقيمورانيك في وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولا أقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التي اتسمت بها دولة المماليك في ذلك العصر .

السلطان الظاهر برقوق : (١٢٨٢ - ١٢٩٩)

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه واختار الأمير سودون الفخري - وهو من الترك - نائبا للسلطنة في مصر كما عفا عن يلبغا الناصري وأقره في نيابة حلب (١) .

° على أن برقوق لم يستمر طويلا في تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتب له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية بمماليك السلطان شعبان . وقد أدت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣١ .

هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي انصف بها عهد برقوق ، منها ثورة الطنبغا السلطاني نائب أبلستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركي قال : لا أكون في دولة حاكمها جركسي ، مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجرأكة في ذلك الدور (١) . ولكن تلك الثورة باءت بالفشل وفرار الطنبغا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمع فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكف برقوق يستريح من ثورة الطنبغا حتى فوجيء بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله يطمع في السلطنة ، وأن أمراء الترك في القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله الخليفة الواثق بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذي جعل الأشرافية والبلغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفوف الترك — من أشرافية وبلغاوية — في صورة ثورة كبرى اندلعت نازها سنة ١٣٨٨ وتزعما منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرافية — ، وبلغا الناصري نائب حلب ، وهو زعيم البلغاوية (٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام عن طاعته وأن جيوش الثوار تفتقل من نصر إلى آخر في طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الحرمة بجيوش السلطان في دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفي تلك الأزمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يحصنوا

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٩ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفهر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (خطوط) .

(١٩) — العصر المالكي (

الدروب وأن يساعده في مقاومة العدو الباغي، (١).

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفاح في دهم مركز برقوقي، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الناصري. وكان ذلك في الوقت الذي انتشر الطاعون في القاهرة، مما جعل البلاد تفرق في الفوضى. وأخيراً لم يجد برقوقي مخرجاً أمامه فاتفق باكيأ وسط جنوده، وأمرع بالاختفاء في منزل خياط، في الوقت الذي دخلت جنود يلبغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة (٢).

وكان منتظراً - حسب العادة عند المماليك - أن يعلن يلبغا نفسه سلطاناً، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوقي، ولكنه خشي معارضة المماليك الأشرفية الترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغاوية، فرشح الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان في سلطنته الأولى يلقب بالناصر (٣).

أما برقوقي فقد ألقى القبض عليه، وعندئذ خشي يلبغا انتقام المماليك الجراكسة إذا هو مسمم بمصر، فاكتمل بنفيه إلى الكرك سنة ١٣٨٩. ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم يلبغا الناصري، في الوقت الذي بدأ الشقاق بين يلبغا وحليفه منطاش (٤). وفي الصراع الذي دار بين يلبغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوقي، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩، والتفت حوله الجراكسة من الشام ومصر فيكون منهم جيشاً زحف به إلى دمشق (٥).

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ - ٢٨٠

ابن دقاق : الجواهر الثمين ، ج ٢ ورقة ١٨٣ هـ

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) أبو المحاسن : مورد الطافة ص ٩٦

(٤) ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨

(٥) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ هـ

أما منطاش الذى آلت إليه السلطة فى مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم ؛ فأخذ يتحايل على جمع المال بمختلف الطرق ليعيد جيشاً يحارب به برقوق فى الشام^(١) . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه ، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق ، مما صار له أبعد الأثر فى نفوس رجال منطاش فحمل بهم الهزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة ، فى حين احتفى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وحاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة^(٢) . وكان أن استقبل برقوق فى القاهرة أجمل استقبال ، وجددت البيعة له فى القلعة ، فى حين انزوى المنصور حاجى حتى دس له السم بعض جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بجهود برقوق فى تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المماليك الترك والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصرى ومنطاش . وفعلا قبض برقوق على يلبغا الناصرى وقتله سنة ١٣٩١ ، فى حين قتل منطاش فى حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها فى شوارعها ثم علقت على باب زويلة^(٣) . هذا فى الوقت الذى استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعد آخر بمنزلهم مما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على مماليك من الجراكسة^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٥٧٣ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن حجر : الدور الكامنة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ - ٣٩ .

على أن المتاعب الداخلية التي صادفها برقوق في سلطنته الثانية لم تمكن كلها من جانب الترك وأسرانهم ، وإنما قار العربان في مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٢٩٤ . وأرسل زعيم العربان في مصر - وهو الشريف العنابي - إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان في إقليم السكرك يطلب منه معاوئته في الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ، على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقاتلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة ، فألقى القبض على الشريف العنابي وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا في السجن ، كما أخضع عرب هواردة في الصعيد^(١)

تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجي كبير هدد دولة المماليك في ذلك الدور - هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق . .

وكان تيمورلنك ينتمي إلى بيت من أشرف التتار ، ولد في مدينة سمرقند وتأنق نجمه فيها واتخذها قاعدة لأعماله التوسعية التي مكنته من الاستيلاء على بلاد ماوراءالنهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها في العام التالي^(٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرها أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التتري الجديد ، ولكن

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ع

المقريزي : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) .

(٢) ابن عرشاه : هجائب المقدور ص ٤٩ هـ

تيمورلنك كان أسرع في العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخربها وقتل كثيراً من أهلها (١).

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمراً قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوى كثيراً من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ يعقد اتفاقيات مع التركمان وبني عثمان لصد ذلك الخطر الجديد (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عوامل عديدة أجلت الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه في تأجيل ذلك الصدام بسبب انشغاله بتوطيد نفوذه في دولته الواسعة من ناحية ، فضلاً عن أنه فتح جبهة جديدة لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى (٣) وكان كل ما فعله برقوق هو أنه استغل فرصة غياب تيمورلنك في الهند، وكتب لأحمد بن أويس تقليداً بنبأ به السلطنة في بغداد، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، ثم أرسله سنة ١٣٩٤ إلى بغداد ، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد (٤).

وبمقتضى التقليد الذي كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير تابعا لسلطنة المماليك في مصر؛ ونائبا عن السلطان برقوق في حكم بغداد ، فضرب المسكة باسمه . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك ، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأمرع بالعودة من الهند سنة ١٣٩٩ ، في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق .

(١) المقرئى: السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ وما بعدها (مخطوط) .

(٢) ابن حجر: لنبأ النمر ج ١ ورقة ٣٦٢ — ٤٠٠ (مخطوط) .

(٣) أبو الهاسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦ .

(٤) المقرئى: السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١ .

مهمل أبناء برقوق :

وعندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده - وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم - على التوالي واختار برقوق مجلساً للوصاية على أبنائه برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك العسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفي سنة ١٢٩٩ (١) .

غير أن المماليك لم يؤمنوا - كما سبق أن رأينا - بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام فرج بن برقوق في منصب السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذى جعل السلطان فرج يزهد في العرش ، فهرب الهبي من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى في أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة (٢) .

وليسبت هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد ابن أويس من بغداد واحتفى بحلب ، فى حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعينتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام (٣) . ولم يستجب المماليك للإنذار الذى وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتجمعت الجيوش من نيايات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب سنة ١٤٠٠ لتعمل فيها قتلاً وأسراً ونهباً (٤) . وقد اهتزت مهمل لأبناء تلك

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٠٤

(٢) ابن حجر : لأبناء القمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها .

الهزيمة، وخروج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالمماليك قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠. وبعد ذلك هاجم فرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، في حين تمكن الأخير — عن طريق الحيلة — من دخول دمشق حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند.

ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه، فتم الصلح سنة ١٤٠١. وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢^(١). ولم يلبث أن توفي تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ في سمرقند، ثم تعرضت دولته الواسعة للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك خفت حدة خطر التتار على دولة المماليك في مصر والشام.

أما ما كان من أحوال سلطنة المماليك في مصر، فقد رأينا كيف أن فرج ابن برقوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضع الأمراء محل أخاه عبدالعزيز. ولكن الصراع بين أمراء المماليك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق ضد الآخر، فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته بهم وصايته على المنصور عبدالعزيز، سعوا لعودة فرج إلى العرش. وقد عاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ — ١٤١٢)، انصفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية، فاستمل حكمه بقتل أخويه^(٢)، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) ابن حجر : انباء الغرر ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها .

الموقف لم يصفر هن ظهور الرجل القوي بين صفوف الأمراء الذي يستطيع أن يضرب خصومه وينتزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن في أنحاء الدولة — وبخاصة في الشام — على عصر فرج بن برقوق . ففي سنة ١٤٠٧ تارجم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعدل ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلن الثورة على السلطان فرج في القاهرة ، بل لقد زحف بجيشهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتلة شناعة ، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسي سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

السلطان المؤيد شيخ الممردى : (١٤١٢ — ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراءً شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ بطمئن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هو دست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعي أن تكون المشكلة الأولى التي واجهت السلطان المؤيد شيخ هي التغلب على نفوذ نوروز الذي أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس هتيد (٢) .

وفي عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

(١) العيني : السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد . ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet, , L'Egypte, Arabe, pp. 542—548.

الشمالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه ابراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دغاادر . فأوغل ابراهيم حتى قونيه وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكماً والياً لسلطان المماليك من بيت دغاادر . وقد استقبل ابراهيم استقبالا حماسياً في القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ؛ وقيل إن أباه حقد عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدمس له السم (١) .

وقد توفي السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر ، الذي لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططر . وقد قضى محمد هذا في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباي ، الذي انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

السلطان الأشرف برسباي وفتح قبرسى :

حكم السلطان الأشرف برسباي ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية التي سنشئها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذي نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباي من القيام بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرس وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارصة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً للاثيوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist . of Egypt . p . 336 .

تجارة المسلمين ، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص بحملة الصليبية الكبرى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ . وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين جزيرة قبرص وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠ ، إلا أن الأفعال العدوانية التي تعرضت لها شواطئ مصر والشام لم تنقطع^(١) . وليس من الضروري أن يكون أهل جزيرة قبرص بالذات هم الذين قاموا بكل الإغارات التي تعرضت لها شواطئ سلطنة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، ولكن كان يكفي أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة الثغور الإسلامية في تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرص قاعدة لنشاطهم ، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم .

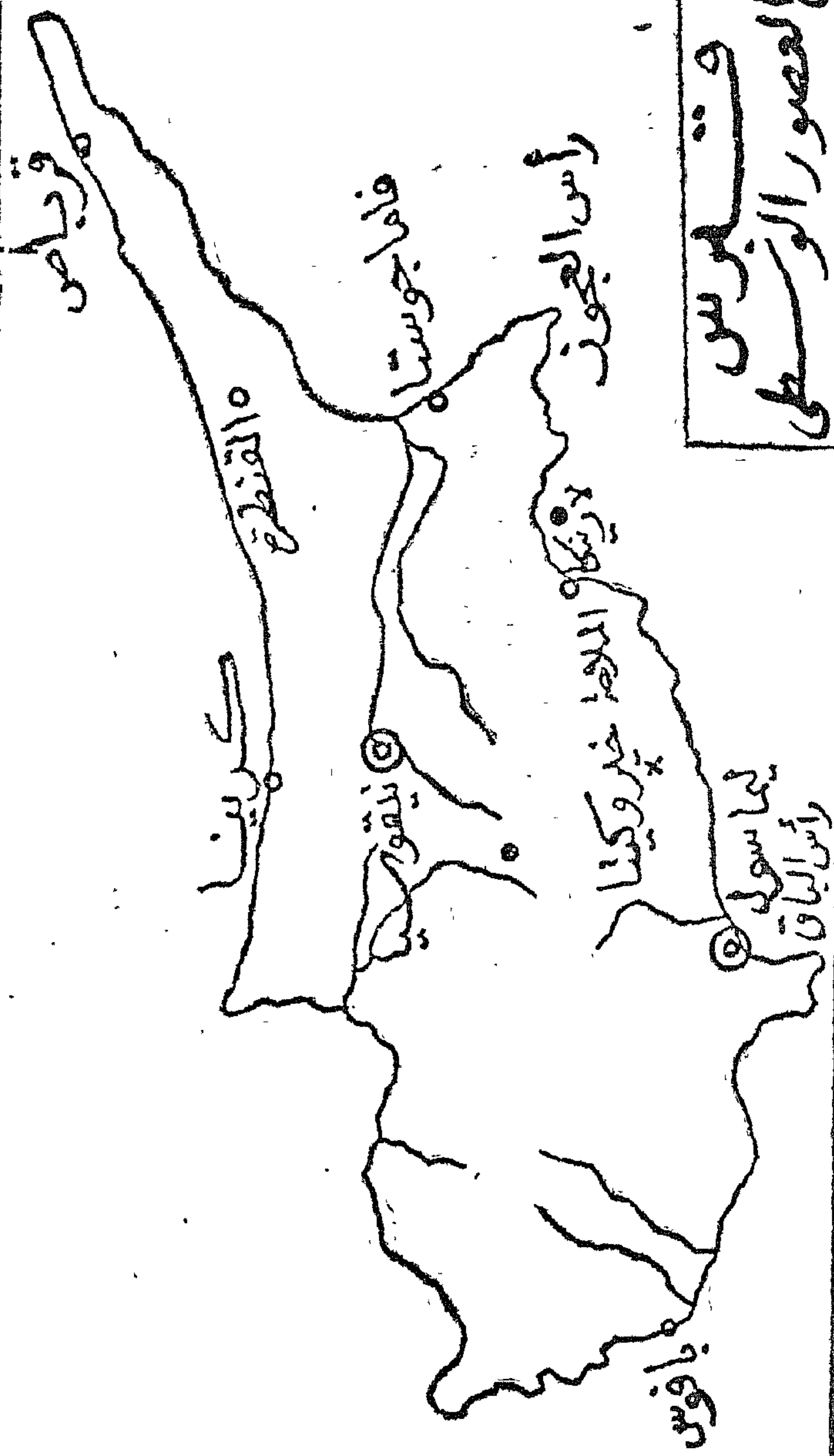
والواقع أن سلاطين المماليك في مصر حاولوا غزو قبرص أكثر من مرة لإحساسهم بخطارها ورغبتهم في دفع ذلك الخطر . وقد رأينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرص سنة ١٢٧٠ ، ولكن محاولته باءت بالفشل^(٢) . كذلك حاول يلبغا الخاسكي أن ينتقم مما حل بالإسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان ، فقامت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرص ، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة^(٣) . وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباي دست السلطنة سنة ١٤٢٢ ، فرأى في الجهاد ضد قبرص وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية . ودفع برسباي إلى المضي في ذلك التفكير أن إغارات القبارصة لم تنقطع عن شواطئ دولة المماليك ، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣ ، وأسروه وساقوه

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣ .

(٣) النويرى : الإلغام بالأعلام ج ١ ص ٧٦ ، ج ٢ ص ١٠٣ (مخطوط) .

في القصور الواسطي



إلى قبرس (١) ، ولم تجدد محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدي على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصالح لا يعني سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه (٢) .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباي سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب نقر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباي إلى السلطان مراد العثماني (٣) . وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد العدة لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباي ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هي في حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسئولية قبرس عن ذلك النفر من القراصنة الذي كان يتحرم في البحر (٤) . وقد أغارت تلك الحملة على النواحي القريبة من ليماسول . ثم عادت إلى مصر في أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن قنم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية (٥) .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هي أنها أهبطت السلطان برسباي

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٨ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .

(٤) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .

(٥) Makhtaras ; Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus d.633.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية ، وعن مدى مسئولية قبرس وملوكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس ، ودأب السلطان على زيارة دار صناعة السفن ببولاق كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن (١) . وما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه ، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مهجونا بالمجاديف المرسلة إلى مصر ؛ ثم قتلت بجاراتها وأشعلت النار فيها (٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية الشواطئ المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فاتجهت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاما جوستا على شاطئ قبرس ، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبحرت السفن إلى الملاحية فى حين سار شطر من جيش المماليك على الشاطئ . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بعض السفن لمناوشة السفن الإسلامية ، من ناحية ، كما أرسل جيشاً صغيراً ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تسير فى البر بجذاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن معونة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفريسان القبارصة ، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر (٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة ، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإزالة بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر ، فأخذ المماليك يحرقون القرى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفورنيا) .

والعقب : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون في الأهل إلى قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلات أيديهم بالغنائم (١). وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٥٨٢٨هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يتأهبون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثيرا من أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالًا حافلا ، وشقوا طرقهم إلى القلعة وصحبهم أكثر من ألف أسير ، فضلا عن الغنائم التي حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباي لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر في غزو قبرس من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لمجرد السلب والنهب والعودة بضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباي لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرس قبل أن تخضع الجزيرة نهائيا ، ولذلك بدا غير قانع بتلك النتائج التي حققتها جيوشه في الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرس في العام التالي (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباي إلى الإصرار على إخضاع قبرس لسيادته ، منها استمرار تحرير بعض الجنود له ضد جانوس بسبب عداوتهم لملك قبرس ، ومنها استنجد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرس وملوكها . هذا فضلا عما وصل إلى مسامع السلطان برسباي من أن جانوس ملك قبرس استنجد بملوك غرب أوروبا ضد دولة المماليك (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد هاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : إنباء الفرج ج ٢ ورقة ١١١ .

وقد وجد السلطان برسباى فى تلك العوامل مجتمعة حافزاً قويا لإرسال حملة كبرى ناللة لفتح قبرس ، عهد بقيادة جيوشها البرية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى ، وبقيادة قواتها البحرية إلى الأمير إينال الجسكى ، وحددا اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر ، (١) . وفى أول يونيو سنة ١٤٢٦ أفلعت الحملة من الأسكندرية . وعندئذ أكثر من مائة سفينة تحمل نحو أمن خمسة آلاف مقاتل . ولم تكبد الحملة تصل إلى منطقة لياسول حتى بدأت العمل فوراً ، فهاجم الغزاة مدينة لياسول واستولوا عليها وعانوا فيها نهبا وهدما وإحراقا (٢) .

وفى تلك الحملة لم يكتف المسلمون بمحصر نشاطهم فى الأقاليم الساحلية لجزيرة قبرس ، وإنما أوغلوا داخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته فى سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من لياسول . وفى الموقعة الفاصلة التى دارت بين الطرفين فى ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، فظلمت سيوف المماليك تعمل فى صفوفهم ، وأسنة الرماح تطعن فى أعضائهم فصارت كثيرتهم قلة وقوتهم ضعفاء (٣) . وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل بجيشه ولكن المماليك تبعوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى . وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى — أن يتبع تلك الضربة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس ، فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية ، وتقدم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان (٤) .

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشقوا القاهرة فى موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس د بغلا أعرجا . ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورودى ص ٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) .

(٣) المينى : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ .

دخل على السلطان برسباى قبل الأرض وأخذ يستعطف السلطان ، حتى وافق برسباى أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائى ألف دينار دفع منها جانوس النصف عاجلاً على أن يرسل الباقي بعد عودته إلى بلاده^(١) . كذلك اشترط السلطان برسباى أن تظل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائباً عنه في حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بالسفر إلى جزيرته التي وصلها في مارس سنة ١٤٢٧^(٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباى قد حقق نصراً كبيراً للدولة المماليك ، بما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن تتخذ الخطوة والاستقرار اللذين سادا عهد برسباى بأنهما دأبل على سعادة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب ، الأمر الذي جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨^(٣) .

السلطان الظاهر جقمق وشيخ رودي : (١٤٣٨ - ١٤٥٣)

لم يستطع الحزب يوسف بن برسباى (١٤٣٧ - ١٤٣٨) أن يحصى عرشه من أطماع الوصي عليه وهو الأمير جقمق ذلك أن الأمير يوسف كان في الرابعة عشرة من عمره ، فسهل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر - كما هي عادة المماليك - وتولى هو السلطنة بأقب الظاهر . وكان جقمق معتدلاً في حكمه ، إذا قيس بسلفه برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه لحرمة المعاصي وشرب الخمر^(٤) .

(١) ابن حجر : انباء الفخر ج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit, p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit, p. 340 .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ في ١ ص ٢٤٥ (طبعة كاليفورنيا) .

(١٢ - العصر المماليكي)

وكما اشتهر عهد السلطان برسباى فى التاريخ بغزو جزيرة قبرس، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس . والواقع ان جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عيافرسان الاستبارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم^(١) . ولم يكن الاستبارية أقل تحملاً لحرب المسلمين من آل لوزجنان فى قبرس ، الأمر الذى جعل المماليك يفكرون جدياً فى غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك فى أن الاستبارية فى رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرس ، فأسروا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى فى القاهرة ، وهرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، ولكن ذلك لم يفس السلطان برسباى موقف رودس والاستبارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بغزو تلك الجزيرة . ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى شجع بمحاولات لضم فرسان الاستبارية برودس إلى الحلف المسمى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوربا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين ، فقام السلطان العثمانى بتحريض جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليشغل الاستبارية عن الانضمام لذلك الحلف^(٢) . هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦ ، مما يدفع بحالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراجها ، مما أثار السلطان

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٣ - ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق في أن يحدو حذو برسباى ليحقق لنفسه مجداً يغطي به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية ، ويصرف أنظار المماليك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية ، أدركنا مجموعة الأسباب التي حركت جقمق لغزو جزيرة رودس .

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس في سنوات ١٤٤٠ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، لم تستطع أن تقوم بعمل يستحق الانتباه ، بل على العكس تصدى لها أسطول الاستبارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التي أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال الملاقي ضد رودس فقد كانت أكبر توفيقاً . فدمرت بعض الحصون الساحلية في رودس ثم قفلت راجعة إلى مصر بعد أن اضطرتهم أحوال الصيف إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهي كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفرها عدة وعناصراً ، فالتجمت صوب مدينة رودس حاصمة الاستبارية وحاصرتها نحو من أربعين يوماً . ولكن على الرغم من مما أبداه المماليك من شجاعة نادرة ، فإنهم عجزوا عن الاستمرار في القتال بسبب شدة مقاومة الاستبارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين في الحرب ببلاد الشام . هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقاها الاستبارية من العالم المسيحي الغربي ، وبخاصة برجنديا وقطالونيا . وهكذا رأى قائد الحملة - وهما الأميران إينال الملاقي وتماهاي - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤) . ولم يلبث أن تم الصلح بين

(١) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) السيوطي : غرر الخفيات ج ١ ص ١٤٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا) .

الاستراتيجية في ردوس والسلطان جقمق في مصر بعد أن تمهد الاستراتيجية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية (١).

هذا من نشاط السلطان جقمق في الميدان الخارجى . أما في الميدان الداخلى فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين في بداية حكمه قام بالاولى الأمير قرقاس الشعبانى الناصرى وقام بالثانية إينال الحكى نائب دمشق . وقد نجح جقمق في القضاء على هاتين الثورتين في سهولة (٢) . كذلك حدث في عهد جقمق أن ثار التمرد السود في منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، واسكن السلطان جقمق قضى تلك الفتنة وباع من في القاهرة من التمرد السود ، في حين أرسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك (٣) .

دولة المماليك في أواخر أيامها :

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو في الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فخلفه الجلبش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغشوشة غير سليمة (٤) .

وقد ولى السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣-١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك في ذلك الدور هي كثرة

(١) محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس من ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ - ٥٨ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٥ .

(٤) Wiet : op . cit . , p . 587 .

ثورات المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يحاربهم كل سلطان جديد .
والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر
أن يشتروا مماليكهم صغاراً أطفالا ويتعهدون تربيتهم وتنشأتهم نشأة خاصة ،
فيشرب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذي اشتراه وقام على تربيته وحباه
بعطفه . أما في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك - أى في القرن
الخامس عشر - فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً في سن البلوغ ،
مما جعل أولئك الجلبان لا يتشربون روح النظام والولاء لاستأذهم في طفولتهم ،
فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه ، وتعددت ثوراتهم حتى صار
السلاطين أنفسهم العوبة في أيديهم . ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه في ذلك
الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبقى
في منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويتم غيره . ومن وراء جميع هذه
الحركات الثورية والفتن والتفلاقل كان الجلبان في ذلك الدور الأخير من
تاريخ دولة المماليك الجراكسة (١) .

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان
في ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات في عهد السلطان إبنال البالغ
طوله ثمان سنوات (٢) .

ولم يستطع أحمد بن إبنال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه
سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء . ولم يعكر صفو
هذا الهدوء سوى المحاولة التي قام بها جانم بك نائب الشام لانتزاع العرش .
ولكن خشقدم استطاع في سهولة أن يتخلص من مؤامرة جانم بك وأعوانه ،
حتى قتله (٣) .

(١) أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن إياس : صفحات لم تنته من بدائم الزهور ص ٢٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٦ .

وبعد خشف قدم تولى السلطنة يلباي المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمر بغا الرومى فى العام نفسه . ولم يستطع تمر بغا إرضاء الممالك الخشقدمية وزعيمهم خير بك فعزله بعد شهرين . وبن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمر بغا إنما كان يبغي الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعل صعد خير بك إلى دست السلطنة أثناء الليل واقتب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً بأستاذ الظاهر خشف قدم . ولكن الأتابك قايتباي أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » لأنه لم يظل فى دست السلطنة سوى ليلة واحدة (١) .

ويعتبر السلطان قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة الممالك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً ، وهى مدة لم يحكمها أحد من سلاطين الممالك ، عدا السلطان الناصر محمد . وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباي أنه أمهر السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشئون العالم ، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن لياس بأنه كان « وافر العقل سديد الرأى ، عارفاً بأحوال الممالك ، يضع الأشياء فى محلها . . . موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية . . . » (٢) حقيقة إنه تعسف - مثل غيره من السلاطين - فى جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشأته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال فى المنشآت العامة أو فى حروبه الواسعة . ويعتبر مسجداً قايتباي بالقاهرة والوكالات التى شيدها من أجمل المباني العربية فى ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك السكتات العديدة

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٣٢٥ (نصر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلاع وغيرها (١).

وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والأسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر ؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحسينات وغيرها من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية (٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباي ؛ أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير . ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمّة لسلطين المماليك الجراكسة . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركمان ، وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزهد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م (٣).

أما عن أحوال مصر في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد امتازت بكثرة الضرائب وجمع الأموال للحرب ، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢ ؛ حتى أنه كان يموت في القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك ، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباي وابنته . ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون الموشى ، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار (٤) . ولت المماليك قدرها

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344 .

(٢) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ (نهر محمد مصطفى) .

(٣) Wiet: op. cit., pp. 590-592 .

(٤) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ (نهر محمد مصطفى) .

عندئذ خطورة تلك المهنة التي كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥

وأخيراً ساءت سمعة السلطان قايتباي بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفي في اليوم التالي مباشرة سنة ١٤٩٦^(١)

وقد تعاقب في منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه محمد (١٤٩٦ - ١٤٩٧) ثم قانصوه خسمائة الذي لم يثبت في العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباي مرة أخرى (١٤٩٧ - ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ - ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باي الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت البلاد في ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك^(٢) . ولا أدل على تلك الفوضى التي عمت جهاز الحكم في الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في ذلك الدور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون في تولي منصب السلطنة الذي غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١ ، تمتنع النوري — رغم أنه أقوى الأمراء — عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكي ، ويقال إن النوري قبل أخيراً أن يلي منصب السلطنة بعد أن « سجد وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي » ؛ واسكنه الله شرط على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم : « قبل ذلك بشرط ألا تقتلوني ؛ بل إذا أردتم خلعي وافقتكم »^(٣)

(١) Lane-poole : op. cit., p. 349 .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٢ — ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان الأشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦)

أنبت السلطان قانصوه الغورى أنه رجل قوى صلب ورغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملا مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستعصمة التي كانت تعانىها خزانة الدولة المفلسة .

وقد اتبع السلطان الغورى لإنعاش الخزانة العامة سياسة تيسيرية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر ، قدما دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضى والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجركية ، كما تلاعب في العملة لاستيفاد الخزانة من الفارق ، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً^(١) . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذى ازدادت حالته سوءاً ، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغورى من تلك الأموال - التى جدها - على ما يليكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، كما شيد مسجداً ومدرسة في الحى الذى سمي بعد ذلك باسمه ، وهو حى الغورية . كذلك عن السلطان الغورى بطريق الخرج ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتحسين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

(١) ابن مياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ (انظر محمد مصطفى) .

الغورى أنه عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت ممالكه وخيوله
وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية
بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث قلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ،
إذا استثنينا بعض الثورات من جانب الممالك الأجلاب والعربان . أما في
الميدان الخارجى ، فكان الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد في ذلك الدور
الأول من حكم السلطان الغورى آتيا من ناحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو
دى جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما ثبت
البرتغاليون أقدامهم في كلكتا سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادى
كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والعرب الأوربي ، وأذن بانتقال
زمام التجارة من أيدي الممالك إلى أيدي البرتغاليين (٢) . وإزاء هذا الخطر
الجسيم ، استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان
الغورى ، الذى رأى في الخطر الجديد تهديدا مباشرا للمورد الأساسى الذى
اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغورى أولا إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب
منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بسوء المسلمين في الشرق والغرب
ويبدو أن القوى الأوربية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف مما جعل الغورى
يشيد أسطولا جديدا في البحر الأحمر ، وفي الصراع الذى نشب بين الممالك
والبرتغاليين في المحيط العربى — غربى الهند — انتصر الممالك في أول الأمر
سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبث أن ثار البرتغاليون لأنفسهم في العام التالى في

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ (نصر محمد مصطفى)

(٢) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣ وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعا متواصلا (١) .

على أنه إذا كان الخطر الخارجى من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ، فإن ثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الغورى ، وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعنى بهذا الخطر الجديد ، خطر بنى عثمان .

سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت فى أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها بمفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التى شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون ، وفى أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد خرجوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا ، وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار فى التوسع فى أوروبا على حساب الأوربيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه طابع الجهاد الدينى ، وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم فى وسط أوروبا أو صلهم إلى مدينة فيينا ذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثمانى الاتجاه الأخير لاسيما وأن الخلاف المذهبى والسياسى كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والصفويين الشيعة فى فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثمانى أن حقق انتصارا كبيرا على الهام اسماعيل الصفوى فى موقعة جالدران سنة ١٥١٤

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نهر محمد مصطفى)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وديار بكر، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك، جعل العثمانيين قاب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق.

وقد استاء السلطان الغورى والأمراء لأخبار انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان، (١) ولم يخفف من مخاوف السلطان الغورى ما تردد من أخبار بعد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين. لذلك حسم الغورى على الخروج إلى حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصفوي وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا... (٢).

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة دلفادر، وهي الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك، الأمر الذي جعل السلطان الغورى يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذي ازداد ملازمة لحدود دولته (٣). وكان أن اتخذ السلطان الغورى عدة خطوات إيجابية، فتحالف مع اسماعيل الصفوي من ناحية (٤)، كما أوى الأمير قاسم العثماني - ابن أخى السلطان سليم - الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم) (٥).

(١) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧، وكذلك ص ٢٧٨، ٣٩٦، ٤٠٠ (نشر محمد مصطفى).

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٢.

(٣) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى).

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٥، وبذكر ابن لياس أن الغورى أرسل للصفوي عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثماني وكان لرسالة هذه الأفيال في الحفية في خبر سر بينه وبين الصفوي.

(٥) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى).

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقفاً بين لحظة وأخرى بين دولتي المماليك والعثمانيين . وسرعان ما جاءت الأخبار إلى السلطان الغوري بمظم الحشود والاستعدادات التي يجريها السلطان سليم العثماني قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغوري الإشاعات التي أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها محاربة الصفويين ، وإنما أوجس الغوري خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتدخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فثار الجلبان في القاهرة لتأخر روائهم ، الأمر الذي أغضب السلطان الغوري فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء : أنا مابقيت أحمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيري . . . وقد استغل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فنادوا في العيب ونهبوا الدكاكين في القاهرة ، واستمروا يشوشون على الناس ويخطفون العمائم ... وجعل منهم الضرر الشامل ،^(١) وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري ، فأنب المماليك قائلاً : د لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ،^(٢) وفي الوقت الذي أخذ الغوري يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بني عثمان ، إذا برسالة تصل من خير بك نائب حلب تطمئن السلطان الغوري وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشام اسماعيل الصفوي . وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خير بك هذا ، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

(١) ابن لياص : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٨٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٧ .

في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال الشام ، ولكي يسببك خاير بك أكله ، فإنه أخذ يروي في رسالته إلى السلطان الغوري تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين (١) ، كما اتصل بالأمير سيدي نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيدي إلى الغوري يخبره أن الأحوال الاقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتل البلاد بجيش السلطان ومعه جيشه الفقير ، لا سيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، وإن كان العدو متحرك فنحن له كفاية (٢) .

ولكن السلطان الغوري لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى في استعداداته فحشد الجند والأمراء في الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام . وفي تلك المرحلة وصلت السلطان الغوري رسالة ثانية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثماني لمفاوضته في الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغوري ، كلها ألفاظ معسولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وصرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغوري في رسالته : ... أنت والدي وأسالك الدعاء ... وجميع ماترونه ويريد السلطان فعلناه (٣) ... ومرة أخرى لم ينخدع الغوري بتلك الحيلة ، فلم يرض على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباي .

وعند غزوة سمع السلطان الغوري لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق التهمة ، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في يوليو سنة ١٥١٦ (٤) .

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٣ (نشر محمد مصطفى)
(٢) ابن دياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦ (نشر محمد مصطفى) .
(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥ (نشر محمد مصطفى)
(٤) ابن زنبيل : آخره المالك ص ١٥ .

وهناك في حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالى وأخرجوا الناس من بيوتهم وسبوا حريمهم وأولادهم وكان ذلك سببا (فيما بعد) لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لمدة ما حل بهم من الضرر منهم ،^(١) وكان أن وصل معسكر الغورى في حلب رسولان من قبل السلطان سليم العثماني يطلبان المفاوضة في الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة والطمانينة حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان في التمويه على الغورى فقالا له : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال متهما السلطان بـ « فعلوه ولا تشاوروني » . ويرى ابن إياس أنه من جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكر وحلوى في طلب كبار ، وكل ذلك حيل منه ،^(٢) ومع أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبته هو الآخر في الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحس بنية العثمانيين بتليب الغورى استدعى أمراءه جميعا — ومن جملةهم خير بك — وحلفهم على القرآن في حضرة الخليفة العباسي بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم^(٣) .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكف تصل الإمدادات بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملة الرسول الذى أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه في الصلح وقال له دقل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق ، وهكذا درسول الغورى إليه وهو في حال نحس ، ليخبره بما حدث ، وبأن العثمانيين تحركوا فعلا واستولوا على ملطيه وكركر وبهتسا

(١) ابن زنبيل : آخرة الممالك ص ٢٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٩٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن زنبيل : ص ٢٤

وغيره من القلاع^(١) وفي ذلك الموقف أدرك الأمير سيدي نائب الشام أن
خاير بك غرر به عندما استعنه على الكتابة للسلطان الغورى في مصر يطمأنه
من ناحية سليم ، فهاجم سيدي على خاير بك وأمسك به صائحا « يا مولانا
السلطان إن أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الفادر الخائن
في الحال ١ ، »^(٢) ، ولكن خاير بك لم يكن وحده في الخيانة إذ كان له شريك
هو الأمير جابر دى الغزالي نائب حماه ، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان
بعدم السماح لتلك التهم حتى لا يؤدي ذلك إلى بعثرة الجهود وفرقة الصفوف
وبذلك ترك خاير بك - عرأ طليقاً ليتم الدور الذى بدأه^(٣) .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متجهاً شمالاً لملاقاة العثمانيين . وعند
دابق — إحدى قرى بلدة عزاز — أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته
النهائية استعداداً للمعركة المقبلة ولم تلبث أن لاحت مقدمة الجيش العثماني
ثم دارت المعركة بين الطرفين في أغسطس سنة ١٥١٦ . وفي تلك المعركة أبدى
المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة أفاضت في وصفها كتب التاريخ ،
فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عديم وأعلامهم ، حتى لقد
فكر السلطان سليم نفسه في الهروب أو طلب الأمان ، على أن يتمكن من
إعادة تنظيم صفوفه^(٤) وفي تلك الساعة خرجة ظهر خاير بك ليتم دوره الأهم
فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيع
إن السلطان الغورى أمر مماليكه الأجلاب بالالتقدموا ، الأمر الذى جعل بقية
طوائف المماليك يستاءون من السلطان ويظنون أنه إنما يبغي أن يجعلهم وحدهم

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٨ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ (نهر محمد مصطفى) .

وقود تلك الحرب ويحفظ بماليكه سلاماً معافين^(١) ؛ وحيناً آخر يشيع
خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً في المعركة وبراجع هو وجنوده
موالين الأدهار ، ليحذو حذوهم بقية الجيش الماليكى^(٢) .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة أخيانته ، بعد أن وجد معظم جيشه
ولى الفرار . وحينئذ حاول الغورى أن يستعث جيشه على الثبات ، فأخذ يصيح
« يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ! يا أغوات ! تشجاعة !
صبر ساعة ! »^(٣) ، وكان أن تقدم الأمير ثمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ
العلم السلطان وحطاه خفية أن يقع في يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان
الغورى وقال له « يا مولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فأنج
بنفسك واهرب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل قسوة الموقف
فأصيب بفالج وطلب بعض المساء ليشرب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً
على الأرض^(٤) .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهى الموقعة الفاصلة بين الماليك
والعثمانيين التى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية ذلك أن ملول
الجيش الماليكى أسرعت إلى حلب ومنها إلى دمشق فمصر وهم فى آنس حال ،
فوصلوا القاهرة فى أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

(١) ابن زنبيل : آخره الماليك ص ٢٨ .

(٢) ويفهم من كلام المؤرخ ابن لياس (ج ٥ ص ٧٩) أن خاير بك لم يكن وحده فى
جريمة الخيانة ، وإنما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيانته كانوا موالين عليه ... وكانوا
مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة . ويشهد
هذا على مدى انحلال الماليك فى أواخر أيامهم .

(٣) ابن زنبيل : آخره الماليك ص ٣٠ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ (نهر محمد مصطفى) .
(ويرى ابن لياس أنه لم يثر على أثر لجثة السلطان الغورى فيما بعد « فمكان
الأرض انشقت وابتلعت فى الحال » ، فى حين روى ابن زنبيل (ص ٣١) أن بعض أمراء
الماليك قطعوا رأس الغورى ورموا بها فى حب سقى لا يعرف مسلم جثته) فيبحث بها .
(١٣ - - مصر الماليكى)

الهزيمة بعد أن رأوا بأعينهم فلول الممالك وقد عادوا في حالة سيئة من الكثرة والهزيمة ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، فقام العزاء والهراس ... ورجت القاهرة في ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقليل ... ، ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأسرع الأمراء في مصر باختيار طومان باي - نائب السلطنة - سلطاناً خلفاً للغوري فتمنع طومان باي في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء : ما عندنا سلطان إلا أنت طوهاً أو كرهاً (١) . ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، مما جعل كبار الأمراء يزدبون فيه . هذا إلى أن طومان باي - وهو أحد أمراء الممالك - كان يعرف ما اعتري أخلاف الممالك في ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطوه لا يخونونه ولا يخذلونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله (٢) .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس : ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر ، فاشتد الطمع وأخذ كثيرون يفسكرون في الهروب إلى الصعيد ، في الوقت الذي كان الناس دجرحهم طرى بسبب موت السلطان (الغوري) وكثرة المسكر (مرج دابق) .

وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود الممالك الموقف ، فاشتدوا على طومان باي للخروج والحرب مصاريق باهظة ، في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فملا غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب . وهكذا أخذ طومانباي يستحث العوام من الذعر والصبيان

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

والشطار ، حينئذ ؛ ويتوسل إلى المماليك أحياناً ويقول لهم داخروا وقاتلوا
عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ؛ فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار ،
وأنا واحد منكم ؛ إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ؛
وما عندي نفقة أنفقها عليكم^(١) .

ولم يتحرك المماليك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا في ديسمبر
سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالي - وهو الأمير الخائن
ومريك خاير بك . وقد رأى جان بردى الغزالي أن يسببك دونه في الحياة ،
فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غرة عرج عنها واتجه شمالاً حيث تظاهر
باشتبك مع العثمانيين في معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهم فيها^(٢) .

وفي أوائل سنة ١٥١٧ تسلم طومان باي رسالة من السلطان سليم العثماني
يعيره فيها بأصله المماليكي ، ويقول له : إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح
لك ولاية ملك ، ويطلب منه أن يكون نائباً عنه في مصر ، ويمدده إذا رفض
ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك ، أشق بطون الخوامل
وأقتل الجنين الذي في بطونها من الأتراك^(٣) ، وفي الوقت الذي أرسل السلطان
سليم رسالته وسفراءه لمطالبة طومانباي بالدخول في طاعته ، دأب خاير بك
الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر
د يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب في محاسنه وعده له في الرعية^(٤) .

(١) ابن أبيه : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ - ١٢١ (أمر محمد مصطفى) .

(٢) ابن زنبيل : آخرة المماليك ص ٤٥ - ٤٦ .

محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك ص ٢٢١ .

(٣) ابن أبيه : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

(٤) ابن أبيه : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

ويروي ابن زنبيل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن في نيته أن يغزو مصر
وأنه بعد أن احتل على حلب والشام فسكر في العودة إلى بلاده لولا خاير بك الذي حرضه على =

وقد أحس السلطان طومان باي بخرج موقفه وعظم الخطر الذي يهدده ويهدد مصر ، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثماني د بكي وحصل له غاية الرعب ، ومع ذلك فقد صمم طومان باي على الخروج لدفع العثمانيين ، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تخاذلوا ورفضوا الخروج ، بل تطاولوا على السلطان طومان باي وقالوا له : إن رحمت لعنة الله عليك ؛ غيرك يحيى يعمل سلطاناً (١) . وعندئذ لم يسع طومان باي سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثماني للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية في أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك ، فلاحق بهم طومانباي وأظهر دهمة عالية ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم ، واستمر طومانباي يقاوم في شجاعة نادرة ، حتى ألقى نفسه وحيداً في نهاية الأمر ، فاضطر إلى الفرار (٢) . والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جان بردى كان متصلاً بشريكه الخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء خطة المماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنّب العثمانيين تحصينات الريدانية ؛ بل نجح في إقناع طومانباي بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر في الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين (٣) .

ومن الواضح أن هزيمة المماليك في الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

عز و مصر ، وقال له : « نركب إلى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جلة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بمنايا الله ! »

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ — ١٤٦ (نشر محمد مصطفى) .

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة في اليوم التالي لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلقي مقاومة؛ وفي ذلك اليوم بالذات دعى في خطبة الجمعة في مساجد القاهرة للسلطان ، الملك المظفر سليم شاه ، وكان طبيعياً أن يعمل العثمانيون السيف في كل من صادفوه من المماليك في شوارع مصر ؛ كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة ، وافتتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وهبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... (١) . أما طومانباي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم في معركة الصليبة ، ولكنه هزم وفر إلى الهندسا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ؛ (٢) فأرسل يمرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويحمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويحمل له خراج البلاد ؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا تبقني في الجزيرة (٣) ، وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباي إلى الجزيرة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ؛ ثم التقى الفريقان في معركة هنيئة هزم وردان في أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولكنها انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم يأس طومانباي من المقاومة واستمر في ذلك الدور ينزل أفدح الحصار بالعثمانيين ، الأمر الذي أفاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذي حرضه على فتح مصر ، وقال له : أنت أفررتني وطمعتني في أخذ

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ - ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، ولا لها
برأسك ١١ (١) .

أما طومان باي فقد امرض في ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب تفرق رجاله
وانقضاءهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما
أوقعه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باي نفسه وحيداً طاجز عن المقاومة ،
لجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم ١١ اعلوا يا أغوات أن دولتنا قد دالت وأجالنا قد مالت ، وما بقي لنا
في هذه الديار نصيب ١١ ، ولم يجد طومان باي مخرجاً سوى أن يحتج
في مدينة سبخا بالشيخ حسن بن مرعي - أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين
طومان باي صداقة قديمة - وليكن الشيخ خاتمه ، وأرسل إلى سليم وسلمه
إليه (٢) . وما كاد السلطان سليم يتحقق من خبر القبض على طومان باي حتى
فرح فرحاً شديداً وقال : الآن ملكنا ملك مصر (٣) . وكان أن أحضر
طومان باي مقيداً بالجديد في حضرة السلطان سليم الذي أخذ يوبخه ويقرعه
على مقاومته وأنما له ، وليكن طومان باي لم يفقد رباطة جأشه ووقف أمام
سليم ليدافع في شجاعة عن سلوكه ويعلن في صراحة أنه لم يفعل إلا ما عليه عليه
واجبه وشرفه ، وما يؤثر عن طومان باي في ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم
العثماني : ألا نفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد
يخضع للذئب ؟ لأنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس في مسرك من يقايسني
في حومة الميدان ١١ ، ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم أعجب فعلاً بشجاعة
غريمه فأشار إلى طومان باي وقال : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، وأوشك

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٢٢ - ١٣١ .

(٣) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٣٢ .

أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية ،
لولا تهريض الخائنين خاير بك وجانبردى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر
بإعدام طومانباي^(١) .

وقد تلقى آخر سلاطين المماليك القرار بإعدامه في مصر وثبات ، فحمل
إلى باب زويلة في اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول
الطريق ، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشنقة ، وعندئذ طلب طومانباي
من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ
الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع ، ثم التفت إلى المشاعلى وقال له : اعمل
شغلك ، فوضع الحبل في رقبته ، وما هي إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين
المماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر
والهام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية^(٢) .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

ابن زبيل : آخره المماليك ص ١٣٦ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

الفصل السابع

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

اعتماد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بني أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بني أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيبك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الصالحية (١) .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزمامة هولاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر . حتى تم الصلح بين الطرفين في أبريل سنة ١٢٥٣ ، بمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين (٢) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٤ .

أبو القدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بني أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسي إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المنيف عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المنيف عمر سنتي ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي أملت بالوطن العربي في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون تخاذلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطور التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ؛ ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو في امتلاك حاب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأي حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرباب وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلا داعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشحت له . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم وريثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاءكو ، بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . ونروي لنا المراجع أن حلب لم تكن تسقط في أيدي التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهولاءكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حماه وشأنها (١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر وترك دمشق خالية (٢) . ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فمضاهه هولاءكو ووعدوه بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم ووثق معهم في ذل وهوان إلى أن قتل (٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاءكو الذي ولده على الصبيبة وبانياس . ولم يجعل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبيتهم دافعا لهم وأعلن الفسق

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢ .
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .
(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلكه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بني أيوب ليرثهم في ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره الحركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، لذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فعل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح المماليك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه فورة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن قرر المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناب السلطان المظفر قطار الأمير سنجر الحلبي في دمشق ، وإذا كان المظفر قطار قد أقر بمض ملوك بني أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠

2) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587 .

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر (١) . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المنيف عمر صاحب الكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من أسلم الهوبك من الملك المنيف . كما قبض على الملك المنيف نفسه سنة ١٢٥٣ واحتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للكرك (٢) .

وإذا كان المماليك قد ظهروا في صورة وريثة الأيوبيين في حكم مصر والشام ؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العريض لحسب ، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اختصاصهم بالحكم من أصحابه الفرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأرض في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكف بمضى على قيام دولة المماليك نحو من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي (٣) . ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨

(١) المقرئى السلوك ج ٩ ص ٤٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ١١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٢٢ ، ١٤٨ .

ثم على الثقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية
— كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في مايو سنة ١٢٩٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ،
وبذلك لم يبق للصليبيين من مملكتهم العريضة ببلاد الشام سوى عكا وصيدا
وصور وعكا ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا
سنة ١٢٩١ ، ولم تكمد تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية
بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام من انتشار الصليبيين جميعاً ، استقرت الأمور نسبياً
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها
يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن
أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة
المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛
تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النيابات فهي نيابة دمشق ونيابة
حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك ، ويبدو أن
هذا التقسيم في حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام
الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التي نراها في بلاد الشام على عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في

(١) تميمه عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٩٤

(٢) أبو اللدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

المصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب^(١) على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ، وذلك مثل نيابة السكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وئمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام انصفت - بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة أما حماه - فكما سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطر عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها^(٢) ، وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة السكرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس فتتبع نشأتها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩^(٣) .

(١) Demombynes : La Syrie a l'époque des Mamelouks ,

p. 108.

(٢) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٤٣٢ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ٢٢١

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانئ أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم «النيابات الصغار»^(١). ولكي تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . ، وهي كبرى نيابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندي اسم « نيابة الشام » ، أو «مملكة الشام» ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة »^(٢). وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورموس أبراجها التي كان التتار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضي الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترخيم الحائط الشمالي وتحديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الألبق الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من العمار^(٣).

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر في شئون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، في حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذي يعرف باسم البر - والى آخر^(٤). وكان يتبع نيابة دمشق عدة نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخند وعجلون وبعبك وحمص ومصياف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩ .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر^(١). وأما ولايات نيابة دمشق فمديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقاريا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات في مواجهة البصرة ، ونيابات الكختا وكركر وبهسنى وسميساط وعينتاب ودر بسالك والراوندان وبغراس والقصير والشعر وبكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية وديركي ودرنده والابستين وإياس وطر سوبس وأذنه وغيرها^(٢).

أما ولايات النيابة المحلية فأهمها برحلب وكفرطاب وعزاز وتل باشر ومنبج وتيزين والباب وبزاعا وأنطاكية^(٣).

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلقمندی . نيابات قلاع

(1) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) القلقمندی : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .

الدعوة ، أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة
الرصافة ونيابة الخوازي ونيابة القدهوس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيفة
و نيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هى : أنطوطوس ،
وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبة وأنفة^(١) .

رابعا : نيابة حماه ، ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا تتبعها نيابات
صغرى ، وإنما تتبعها ثلاث ولايات هى : ولاية برحماه ، وولاية بارين ،
وولاية المعرة^(٢) .

خامسا : نيابة صفد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر
نحو ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من
الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صغرى - مثل نيابة حماه - وإنما
تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ،
وولاية تبينين وهونين وولاية عثليت وولاية عكا ، وولاية صور وولاية
الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين^(٣) .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى وإنما
تتبعها أربع ولايات هى ولاية ير الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ،
وولاية معان^(٤) .

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنيابات الشام في عصر المماليك أما عن أنظمة الحكم في تلك النيابة ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغرة لسلطنة المماليك الكبرى في مصر . حتى لقد أطلق الفلقشندي على تلك النيابة اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاعفة للمملكة المستقلة » .

والتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابة الشامية كان في حقيقة أمره « سلطانا مختصرا » ، مع تبعية لسلطان مصر ، فكان لكل نائب حاشيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحيانا اسم « ملك الأسراء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأسراء على خدمته كخدمة السلطان (١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه ، والفراش خاناه ، والورد خاناه ، والطبلخاناه . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جانداز... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابة الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، هذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر للنظار » (٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، متلما كان الحال تماما في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلا عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نياية من نيايات الشام . فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش . وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ونائب صاحب ديوان الإنشاء كان نائب السر . ويبدو أن نائب السر في النيايات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التجسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب عنه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النياية ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش . فكان يتعرف على جيش النياية وتوزيع الأقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضى الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣ هـ؛ هذا ما يحكىه الروك الناصري ببلاد الشام، نسبه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن عدد الجند ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

أجناد الحلقة بدمشق وماليك الكافل والأسراء	١٥٠٠٠
أجناد الحلقة بحلب وماليك الكافل والأسراء	٨٠٠٠
أجناد الحلقة بطرابلس وماليك الكافل والأسراء	٥٠٠٠
أجناد الحلقة بصدد وماليك الكافل والأسراء	٢٠٠٠
أجناد الحلقة بحماه وماليك الكافل والأسراء	١٠٠٠

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الأقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ - ١٠٦ .

ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنياية السكر .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه التواقيع الكريمة ، ويكتب عنه المراسلات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشمها الخط السلطاني الشريف ، (١) » .

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، كما حدث في بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة ، فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل في شئونهم لأشعارهم بوجوده . وهذا إلى أن السلطان لم يكتب بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب ، وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الإقليم عينا له على النائب ، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان (٢) . ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة (٣) .

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة؛ وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقا يتصرف في كثير من النواحي . من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes ; op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥ .

العمري : التعريف ص ١٤٨ .

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان النواب يعيشون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها ، في حين كان التعيين في الوظائف من إمرة طبلخاناه فما فوقها من حق السلطان . أما وظائف أرباب الأقلام فكان النواب لا يعينون إلا صفار الموظفين مثل كتاب الدرج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف الدينية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين مثل قضاة القضاة ، في حين ترك للنواب تعيين صفار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة (١) .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر والشام وتشرف إشرافا تاما على سير الأمور في مختلف أرجاء الدولة المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامي في عصر المماليك :

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم وبالوظائف وحرمتهم من المهاركة مشاركة ذات قيمة في أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك في بلاد الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، في حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالي المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ - ٧ .

وزراعة . وكان كل ما يطعمون فيه هو أن يلي أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يحرمهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي نهض به الخضر من أهل الشام تطلب نوعاً من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم يمنعون إلى مسألة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ،

أما البدو : فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أنفاؤها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جسر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات^(١) . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا - بحكم موقع منازلهم - إلى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التي تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسبمه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي داب على مناصرة التتار حيناً والمماليك أحياناً حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن علاون ذرماً بآل فضل وطردهم ليحل محالهم إخوتهم من آل علي ، ؛ ولكن الناصر محمد عاد فعفا عن آل فضل وردهم إلى بلادهم وأعطاهم^(٢) .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحياناً إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطاً بدمور الولاء للدولة وخضوعاً لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران

(١) نقاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل على في المرج والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثير^(١) ، وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الانطاقي ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأنطوهم الإنطاقيات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أثبتت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدها كثيراً من حريتها فأخذت ما في النظام من مميزات ، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى العصبية النصارية التي وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك - مثل الأكراد والتركمان والأرمن - ؛ فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبية فيما يلي :

أولاً : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصارية والعلمانيين والمتأولة^(٢) . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصليبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم^(٣) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٨ - ٢١٠ .

(2) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٢٦ .

وعند ما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا ، ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالمسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم^(١) وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الفاهر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بمجملهم المنيع ، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح وغادوا الأمان . وكان أن فرض عليهم أقوش (أش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبرها بعد أن تعهدوا بالطاعة^(٢) .

ونمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التتوخيين عاونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداوة بين الكسروانيين والتتوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التتوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٠٥) ، فهاجم الكسروانيين وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأمر ستمائة رجل ، وغنمت المساكن منهم ما لا عظاما ...^(٣) . وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥ .

الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ،
الذي تذكر عنه المراجع مباالغته في التنكيل بالكسروانيين وقتلهم^(١) ، ويبدو
أن حملات الأمير أفوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم
والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيروي المقرئ أن السلطان الناصر محمد أقطع
« جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها « فزرعها
لهم الجبلية ورفعت أيدي الرفضة عنها »^(٢).

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا في جهات
متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً والمسلمين
أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين
وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخين جماعة البحريين
الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب ثقلهم ، فاعتقل
بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهي من حروبه ،
حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع
ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك في ولاء البحريين ، حتى أرسل ضدهم حملة
قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم في عنف^(٣) . وبعد بيبرس لجأ السلطان
قلاون إلى اضطهاد البحريين عاقبة عنادهم فعادوا إلى الولاء لدولة
المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة
بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف
خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢-٣٣

أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١).

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت وكانوا مواليين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك (٢).

ثالثاً : بنو ميم أو الممونيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين ندبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبلوا في ذلك بلاء حسناً ؛ كوشوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالفوا أقرباءهم التنوخيين في الغرب والشهابيين في وادي التيم (٣).

رابعاً : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٣ واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١. وقد حالف الشهابيون بني ميم وأصهروا إليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهم فرقة من خلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجهات الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين الدروز حول الزعامة على لبنان (٤) . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب شنو ذم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادساً : النهيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم (٥) .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .

(٢) الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynes : op. cit., p. 227.

صاحباً. الإسماعيلية، وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحواب والمنيفة والرسافة. وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على مصر الحروب الصليبية^(١)؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء. ولم يرض الممالك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقفهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى. لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية، وذلك لإفساد لنواويس الإسماعيلية وتمجيهاً لمن اكتفى شرهم بالهدية^(٢). ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها ينفذ في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين، وبخاصة الاستتارية في حصن الأكراد. لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاستتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية. ويرى المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا: هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين^(٣).

هل أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدايل أن نجم الدين حسون بن الشهراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال. وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سعيد هاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) العيني: عهد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩.

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛
وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين القميراني . وكان أن توجه
صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام -
حيث أخذ يباشر مهام منصبه (١) .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية
ببلاد الشام على عهد بيبرس ، بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية
أن تكون مصياف وبلادها للسلطان ؛ وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن
السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون
الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا
(١٢٧٠ - ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان
بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات في مصر ليعيشوا فيها (٢) .

تورات الشام في عصر المماليك :

لم تكن الشام في عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت
أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتهدد
على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات في وجه الأخطار الأسبوعية
الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ،
وأحيانا من جانب الأرمن والتركانيين العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك
منذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا في ظل وحدة تربط
بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) - سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) - المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كياناتهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك الأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلصقه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا بيمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار^(١) .

(١) المقريري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث في ذلك الدور - وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار - أن انقسم المماليك في مصر على أنفسهم ، فاجأ السلطان أيبك إلى قتل أنطاي زعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وفلاون وسنقر وبيبري وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية في الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ - ١٢٥٧) يسيرون المتاعب لسلطنة المماليك في مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جدية على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحرية في طاعة السلطان قطز ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد (١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين فحسب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ثار في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بهمار السلطنة (٢) . ولكن الظاهر بيبرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلي ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أخذ حركته (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور
التأسيسى لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك
بنى أيوب يشكون خطراً على سلطان دولة المماليك . من ذلك أن الملك المنيف
عمر الأيوبي صاحب الكرك استعان بمجموع الأكراد الفارين من وجه التتار
وأخذ يغير على القو بك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك .
ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المنيف عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة
الجل إلى أن قتل بعد ذلك (١) ،

ولما اعتلى المنصور قلاوون دامت السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس
الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ؛ بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته
وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموى . وفي أثناء النزاع
بين السلطان قلاوون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار ،
فاتصل بخان مغول فارس - وهو أبغا بن هولاكو - وحرضه على مهاجمة
بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تنته
المتاعب التي واجها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث
سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دبر الأمير
سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة
لاغتيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن
المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم رعاها
وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليأحقوا بالأمير شمس الدين سنقر
الاشقر (٤) .

(١) ابن شاكر السكيتي : عيول التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) الزويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ١٧٠ أ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) الزويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب .

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاوون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاوون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة المرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتبنا الذي اغتصب السلطنة سنة ١٣٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو المادلي . ولم يكد السلطان كتبنا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبنا إلى دمشق (١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق قائماً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك ليأمن خطره (٢) . غير أن السلطان لاجين أوفر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قفجق بالشام (قبجق) ثم رحل قفجق إلى بلاد التار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بمن الولاء

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ .

المرتضى : السلوك ج ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .

(٢) الويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٤٠ .

ليبرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وراد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن يبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ، الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكّرهم بأنهم ممالك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيأجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء (١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك الممالك الأشرفية لاتهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن الممالك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أقرش الأفرم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجايتو ليلخاا التتار في فارس (٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامي الناصري نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروي

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) - ١٥ - المصدر المماليكي

أبو الحاسن أن تمكن طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور (١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تمكن عزله وعزله وتخلص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير الطنبغا الصالحى (٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبي في أوضاع الدولة الداخلية، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والفتن في مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤)، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكامل نائب دمشق الذي اضطر إلى الحرب إلى غزة فاستولى عليها أرس نائب حلب على دمشق، حتى نجح السلطان في القضاء على الفتنة (٣).

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمي نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام، فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة (٤).

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه (٥).

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) أبو الحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧.

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧.

(٤) ابن دباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاقي).

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤.

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلاطنة ، ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، لسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق للبلغاوية لإبعاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧ ، وفي النزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلاطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجعل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة ، إذ سار ألتونغا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار^(١) . ويفهم من المراجع أن الأمير يلغا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقة سولي بن دلفادر التركاني - وهو أحد أعداء دولة البرجية - مما جعل برقوق يعزل يلغا نائب حلب سنة ١٣٨٥^(٢) . غير أن برقوق لم يكبد يفرغ من أمر يلغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦^(٣) . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلغا الناصري إلى نيابة حلب لمتخذة أداة في محاربة منطاش . على أن يلغا الناصري لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته^(٤) .

(١) أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حبير : أنباء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) المصنف : عقد الجمان ج ٣٤ ق ٢ ورقة ٢٢٨ .

ولم يلبث الأمير يلبغا الناصري أن أعلن ثورته علناً على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء مواليين لبرقوق (١) . وهكذا لم تكد تذهب سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعبك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، بما مكن يلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها (٢) .

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما يلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما رحنف إلى غزوة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ، فتنق إلى الكرك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشيفا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه (١) . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع سرير بين بلبن الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادية (٢) .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تيم نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب صفد وطرابلس وحماء وحلب (٣) . وقد استطاع السلطان إخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤) . والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناعات وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بمحضرة الشام ضرراً بليغاً .

وامتدحت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العدل ، وضرب السكة باسمه ولم يكذب قتل جكم بعد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٤ (هولاق) .

(٤) ابن عربشاه : عجائب المفرد في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نورو نائب الشام إلى شيخ طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفنا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحاً لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — همالاجين وشيخ — أن يصلوا إلى السلطنة ، وتمكن اثنان من الحرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وبجى خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا في دمشق فقط وهي إحدى نيابات الشام !

أثر نيابات الشام في أموال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين في مصر ، حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولأدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان يبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرع عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال ، د الآن تم لي الملك ا ، (٣)

(١) ابن لماس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet : les mosques du caire p.56. (٢)

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرض بمجرد اعتلائه
دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب
الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع
بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين
لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعهم قيام
خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة
١٢٧٨ عندما هلم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتمسا منهم العفو
متطاعا إليهم بأنواع الخضوع (١) . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا
إلى مصر ليعملوا على خلعهم ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث
حاصره الأمراء حتى اضطرروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن
بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار وسأهم أن يكون الشام بكاله
لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه (٢) .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام
فهو كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، الذي استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير
أيبك الحموي نائب دمشق وعين بدله مملوكا أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم
يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت
بذلك عادة السلاطين في مصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام
عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٢٨ (مخطوط) .

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد في الكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه (١) وكان أن خرج الناصر محمد من الكرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا — ونُفِرت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ، وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢) .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ ولقد تسلطن بعده أخوه أحمد (٣)

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساعدة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يفرج بها الدارس لتاريخ مصر سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام — كانوا غالبا ما يتنافسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ، وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان المروية في الشرق الأدنى في ذلك العصر .

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .
(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البعرج ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .
(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

الفصل الثامن

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، في حين نظرت إليها القوى الأخرى — خارج المحيطين العربي والإسلامي — نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ، فحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام بل لاحقتهم في مراكم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن نهض سلاطين المماليك في أحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدوانهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، اذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتهما .

وهكذا خدعت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قلبه الأصدقاء والأعداء جميعا ، الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبغون ملاحقتها ومساومتها ، أو مهاذنتها أثناء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى ، يبغون عقدا تجارية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة ؛ وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر المماليك قدما يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر ، ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى (١) .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قدم جنكيز خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيز خان ، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتهم ، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ، وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكف يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه ، يفريه بقتال هولاء ، ويرغبه في ذلك (٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس وغيرها ، وقد سبق الكلام على كل من دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربي .

(٢) القرينى : السلوك ١٧ ص ٤٦٥ .

الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولاكو
ففرروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم
هولاكو (١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة
للسلطان بيبرس جاء فيها دقيلعلم السلطان أني حاربت (هولاكو) الذي من
لحي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا أعصياً لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر
بالله ورسوله ... (٢) ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويّة
جمع فيها د من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولاكو وإظهار الميل
إليه ... (٣) ، ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء لبركة خان
بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل
صحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملة ما فيل ودرافه ، ويقال إن
رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة في بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم
إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ،
وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس (٤) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ ١٩٠

المقريزي : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ — ١٩٨ .

(٢) النيفي : هند الجاني ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك
القفجاق (انظر مثلاً جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦) ، وأخذوا
هذا الرأي من : Lane - Poole : op-Cit.p266

ولكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئاً ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى
ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصلة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع
فيه ابن بول ومن أخذ منه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى
زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوند الكبرى في حريم بيبرس وأم
ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنتا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلوات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبوأت السفارات والكتب بين بيبرس ومنسكوتغر — خليفة بركة خان — بقصد ترجيح القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبغا (١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداده لمشاركته في محاربة غازان إيلخان مغول فارس ، فأجابته الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلاتيو رضى بالصلح (٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدهم الصلوات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أربك خان ، بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أربك خان ليطلب الزواج من « بعض الجميلات الجنكزية ، أي أميرة من بيت جنكز خان » ، وذلك توثيقا لصلوات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أربك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط (٣) ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتا عن ذلك المشروع حتى عاد

= القفجاق ، ولا يبدو الأمر مجرد تهابه في الاسم أوجدها الخاط (المفرى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المفرى : السلوك ، ج ٢ ص ٧٩ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويرى نهاية الأوب ج ٢٠ ورقة ١٣٧ .

المفرى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أرسل خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال : قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكز خاني ، وفي سنة ١٣٣٠ وصلت الأميرة التتارية واسمها دلنبيه — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام^(١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجاني بك ابن أزبك ، وأن جاني بك كان يخطب في رسائل المماليك بعبارات التثنية والتقدير والمبالغة في الاحترام^(٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الاسلمية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بعارة الحرم النبوي وإرسال

(١) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

الكسرة إلى الحجاز (١) ، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ الممالك السياسية على الحجاز . ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر ، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلاً . كان الحال أيام الأيوبيين (٢) .

والواقع إن الخلافات بين أشرف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين الممالك لتحقيق أغراضهم . ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شبيحة ليشتكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جواز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جواز ، وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل ، فسكتب إلى جواز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة ، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس ، « فامتثل جواز » .

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي موسى وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس . وقد انتهر السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطاناً عليهما جميعاً ، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة ، بشرط ألا يجمعوا من أحد مكوساً ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض للتاجر . وأهم من هذا كله ، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه في الحرم والمشاعر ، وأن تضرب السكة باسمه ، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز . وبعد أن وافق أميراً مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام (٣) .

(١) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

(٢) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن تفد بيبرس عزمه سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانهى تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائباً عنه في مكة ليكون الحل والعقد على يديه^(١) . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أمير المدينة جواز ومالك رفضاً مقابلة السلطان بيبرس وفرا منه ، مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشرف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجد الشريف منصور عند ابن أخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور^(٣) .

أما في مكة فقد علت الشكوى من الآخرين حبيضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الفيث محلهم في الحكم^(٤) . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنته المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أوجلاتيو إيلخان

(١) العيني ، عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ٩

النويري . نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط) ١

(٢) المقرئزي . السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢

(٣) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨ ،

(٤) أبو الفدا . المختصر ج ٤ ص ٧٣ .

المغول في فارس اطلب النجدة منه^(١) . وهكذا ظلت مكة مسرحاً
لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر
بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو المناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن
سلاطين المماليك كثيراً ما قصروا الجواز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا
يفتتمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشا كل التي يعاني منها أهل الحرمين ،
وتوزيع القمح والعلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام
بالأراضي المقدسة^(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكمها من بني رسول بعلاقات الود مع
سلاطين المماليك في مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن
تعمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ (١٢٦٦) ،
١٢٦٩ ، ١٢٧٤) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور .
وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك
الهدايا بأحسن منها^(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين
المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ
أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام
الحلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعاً من الولاية على بقية
ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه
الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي « الديار المصرية
والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو
السبب في حرص ملوك بني رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٠ ، ٦٤١ .

في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعرد والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك اليمن ، فلي السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا يتناوله من ماضية مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . . (١) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمراءه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (٢) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع أسلافه من ملوك اليمن في التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستنفي بالله يندرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد بعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر بما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (٣) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم

(١) بيهرس السواداد : ربيعة المكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) ؛

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المهريري : الملوك ج ٢ ص ٢٤ - ٢٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أتاحت لسلطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طاب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب (١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلطين المماليك في مصر ويحرصون على إرضائهم بما حقق لأولئك السلطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهل (١٣٢٥ — ١٣٥١) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومخالفة سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى (٢) . ولطفاً الفرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما مهمم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٣١ يطلب معولته ضد المغول (٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسمي لكسب تأييد للسلطان الناصر

(١) الفريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(2) Lane — Poole : Med. India under Mohaumedan Rule, pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين خيرور : دولة بني قلاوون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكن بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٢٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تمويضا من الخليفة العباسي ، وأرسله الخليفة المعتضد بالله سنة ١٢٥٦ (١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت لإليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبنى حفص في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفريضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشيء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحمصي الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الامراء الراشدين^(١). وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بعد الموحدين — إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

وتشير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نعيم بن الحسن، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكة^(٢)، ولم تكن سفارة أبي نعيم هي الوحيدة التي وصلت إلى تونس، وإنما أعقبها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بني مرين والآخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصي لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أرجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس . والواقع إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمري من أن ملك تونس يخاطب بأمير المؤمنين في بلاده^(٣) . كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب الحفصيين لقريش ، وقال إنهم لبسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم^(٤) . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال مانعه دوفيا (٥٦٥٢) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة ولقب بالمستنصر ...^(٥) .

(١) Van Berchem : Titres Califieu, p. 292.

(٢) القهواني : المولى في أخبار إفريقية ومولس ، ص ١٧٨ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيت الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب « أمير المسلمين » ، وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة^(١) . وليس في القلقشندي سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب « أمير المؤمنين » ، وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة خطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكائية في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدد العالم الإسلامي عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار رحلة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بمرحلة دفع هادية للصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من عاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر^(٢) . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصي . هذا إلى أن بيرس أمر بحفر الآبار في الصحراء
الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لفجدة تونس (١) .

على أن السلطان بيرس لم يكن يرضى في استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت
لويس التاسع في تونس وفشل حملته ، الأمر الذي جعل بيرس يوقف استعداداته
الحربية لمساعدة تونس ويرسل البعثات إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص
من ذلك الخطر (٢) . ومع ذلك فإن السلطان بيرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة
الصليبية وسيلة للتشجيع على المستنصر الحفصي والخط من شأنه ويروي المقرئ
أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان
الظاهر بيرس ، ولكن بيرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس
تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان
بيرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأسراء دون أن يحتفظ
لنفسه بنصيب منها ، كما رد على ملك الحفصيين مستقبها بظاهرة بالمنكرات
واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة
الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروي المقرئ أن السلطان بيرس قال
للمستنصر الحفصي «ملاك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين» (٣) .

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين في تونس ؛ أما عن
علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامي - مثل بني زيان في تلمسان وبني مرين في
فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبني
مرين في فاس ، في الوقت الذي ساءت العلاقات بين بني زيان وبني مرين .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠ .

(٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيرس ص ١١٤ .

(٣) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ص ٦٠٩ .

والواقع إن الزيانيين تظاهروا في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى إلى نفور بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفور ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جليلة ، وبعد أن أقيمت السفارة من بني مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم (١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان وهو عندئذ أبو محمد موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعتب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيرا لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية (٢) . وعلى الرغم من أن أبائنا شافين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استيائه أسلافه هو د ميالكم إلى غيرتكم ، (يقصد بني مرين) (٣) ، فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن علي المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنئا (٤) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٥ (مخطوط)

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧

(٣) القلشندي صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٣٩٥ - ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك في مصر إلى بني مريد نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بإسبانيا^(١) .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البعثات إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهدده من جهة المشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاكو ثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم^(٢) .

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتصقون فيها بالعلم والرفق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أثراً عميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما تربى على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد إتمام الحج

(١) العمري : التعريف من ١٦ — ٣٣

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ من ٧٩ — ٨٤ ، ١٠٣ ج ٧ من ٤٠٧ — ٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لا تتعاض التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الحبوب والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والسكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة^(١) ، كما ذكر في موضع آخر : إن تهمار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعده الشقة وغلو أسعار بضائعهم^(٢) . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك صارت مهلاً سكنى العلماء ومحط رحال الفضلاء ، كما وصفها السيوطي^(٣) . لذلك قصدوا في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بمعطف سلاطين المماليك وسمعوا لهم بالتدريس في الأزهر^(٤) . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لائتداً بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

-
- (١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .
(٣) السيوطي . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .
(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ج ٤ ص ٢٢٧ .

العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك لبعدها الشقة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام^(١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى ينهوا ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولا شك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالي والتكرور هو متساوولي الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس^(٢) . وتغبرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكرورية وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكرروري على رأسهم متساوولي^(٣) . وقد أحاط

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلائشي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلائشي أن منسا معناها السلطان وولي معناها علي .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن سمة استرعت نظر المعاصرين ، وأقدم هذا يا جليلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون من بيتها حمل جليل من الذهب المحدثي الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمدّه بالخيل والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجارة (١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهر فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الججاز لأداء مريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه ويكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطاناً وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله (٢) » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكاتم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة الممالك (٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين الممالك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالي » ، في حين أن الفريق الثاني كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالي (٤) » .

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كتمت التذكي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢ .

(٣) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الممالك في مصر وملوك السودان العربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى العناية دولة الممالك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان العربي بأخبار دولة الممالك من ناحية أخرى وما تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية بعناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم^(١) .

ولاشك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى افتخر فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية^(٢) . كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسمعه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين^(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما^(٤) . وقد نبغ من التكرورة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكواتبي الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠^(٥) .

(1) Demombynes : Masalik Alabsar, Intr ; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السقاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابنتى تجار التكاروه بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق^(١)؛ وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الخيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يعيشوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات^(٢). ولا يخفى علينا أن كثيراً من التكاروة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الممالك، إذ يروى المقرئى أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس « عمل للتكاروة خزان حضره كثير من أهل الخبر »^(٣).

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة الممالك ودول السودان الغربى. وسنتكلم عن النشاط التجارى بين الجانبين فى مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفى بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر فى عصر الممالك على مجئ التجار التكاروة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة الممالك ودول السودان الغربى.

العلاقة بين سلطنة الممالك والحبيشة :

أما عن العلاقة بين سلطنة الممالك والحبيشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبيشة دولة مسيحية تتبع كنيسة الكنييسة المرفسية بالإسكندرية؛ ثم إنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أحرف على بنائها قبل منتصف القرن السابع الهجرى، وهو أيضاً أول من درس بها،
(٢) المقرئى المواظ والاهتبار ج ٢ ص ٦٩٥،
(٣) المقرئى : التلوك ج ١ ص ١٦٨٩

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر وممالك النوبة المسيحية في مصر الممالك ، أو بين سلطنة الممالك من ناحية والقوى الصليبية القريبة في الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والمادة جرت بأن تستورد الحبشة مطاراتها من مصر ، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين لإحداهما الحاكم مصر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالبا تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه^{١)} . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسالة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديفى قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الممالك ، وحقا قدرا كبيرا من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليبحث إلى الحبشة و مطرانها رجلا جيدا طالما لا يجب ذهب ولا فضة . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن لا يجب ذهب ولا فضة ، عما يفهم منه أن بعض المطارنة

1) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, ٤, I, p. 179.



المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالباً على المال؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشور رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والرفى، ومن ذلك قوله: «... وهذه الخاق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه...» (١).

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطراناً سورياً من بلاد الشام (٢).

خير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان، فكاتب ملك الحبشة يهبأصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور قلاوون يعتذر له ويسأله «إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين». كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له «وهؤلاء السريان المطارنة الذين هندا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خلبناهم عندنا أساقفة وطرديناهم» (٣).

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون بعد ذلك، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات، حتى أنه قال في إحدى رسائله «... اسمع يا سلطان مصر — نصرك الله — : إعطى البطريرك الدستور يبعث لى أسقفنا، فنحن وهم أمانتنا واحدة من ذمن مرقص وإلى اليوم...» (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور قلاوون لرجاء ملك الحبشة فسمح بتعيين المطران المطلوب وسفره إلى الحبشة.

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط).

(2) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تاريخ الأيام والمنصور ص ١٧٠ — ١٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣.

(١٧ - العصر المالكي)

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يرثبون أحياناً في العلاقة بين بطارقة الإسكندرية وملوك الحبشة ، ولهذا أصرروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسماً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقفه على كتابته ... (١) . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن يتوفى ما يأنيه سرّاً من تلقاء الحبشة (٢) ، ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين المماليك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذي طفق بروح التعصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة المماليك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران الحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمرور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جمالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقرّاً لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبآت إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣١٠ .

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يهبأ صيرون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاوون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمة ، وسأل إنقاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، وروى عليهم ألا يمتنعوا من دخول الهيكل ، (١) . كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم دسلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العباداة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سیرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمة ، وثيابي وهو زقاري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان . فمرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعواتكم ... ، (٢) .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلب نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفاري أنه شاهد قافلة تضم نحواً من ثلثمائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضي المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس (٣) .

والمتواتر في المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شجى دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش ببطونهم ولا يمتنعوا من زيارة كنيسة القيامة

(١) عيسى الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ص ٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٣) Alvarez i Portugeuse Embassy, pp. 243—244. (٣)

بالقدس (١).

والواقع إن وجود جمالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهمية من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول. ولم تنف عن البابوية وأصحاب المبادئ الصليبية في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر (٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين. وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل (٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتحويل مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (٤).

(١) ابن أبياس: بدائر الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد طاشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩.

(٣) المقرئى: الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤.

أبو الهامى: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ (طبعة كالفورنيا).

(٤) سعيد طاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

الموقف بين سلطنة المماليك ودول التركان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والمدوان أحياناً ، وفقاً أزمته الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أنابك السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بني دلفادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشام البيضاء ودولة الشام السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيائها ضد الأخطار الخارجية التي هددتها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بخطر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شبح ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرب إبراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملاً بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تهريب وتدمير ، فقام عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خرتبرت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك ويبدو أن قرايوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسباي يبادر بإرسال حملة خربت الرها - التابعة للشاه البيضاء - وأسرى حاكمها ها بيل بن عثمان قرايوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل امرأة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباي ما يعنيه قرايوك من تلك الهدية ، إذ برز الخروف إلى السلطان والمرأة إلى أن السلطان وأمرأته كالنساء ، في حين تشبه الخلعة إلى أن برسباي تابع لقرايوك . ولم يستطع السلطان برسباي أن يخفي غضبه فأمر بذيخ الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأجد الهزليين فرقص بها في حضرة السلطان وحطم المرأة ، ثم صرف رسل قرايوك بعد أن أمانهم وقص أذنان خيولهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات» فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التي شنها برسباي ضد قرايوك سنة ١٤٣٣ انتهت بصلح سريع تعهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ، إلا

(١) Wiet 1 op cit., pp. 546—547

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ - ٢٠

أن قرايلوك كان ينفك دائما بوعوده ، الأمر الذي سبب للسلطان برسباي متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباي أن اتهم فرصة استحكام الخلاف بين دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب دويلة وأمر بإقامة الزينات في القاهرة ابتهاجا بالخلاص من الد خصومه (١) .

وفي سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذي أنصف عهده بهدوء العلاقات مع التركمان فهاجر أمراء دغادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ في النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحداهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده (٢) . كذلك يروي السخاوي أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها (٣) . وفي العام التالي - أي سنة ١٤٥٢ - أرسل أوردون حسن - أمير الشاه البيضاء - مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن أنزع تلك المدينة من أخيه جهانكير الممادي لسلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح (٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التي سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم في شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفي العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(١) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوي : القبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلفادر، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال، فأكثرت السلطان بذلك، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ. ويبدو أن موقف إينال السلمي من أمير قرمان - وهو مسئول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة (١).

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين. من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفادر بين شاه سوار وأخيه بوداق، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له في العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار. ولكن جيش قايتباي دانكسر كسرة شنيعة، (٢). ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار، إذ منيت بنفس المصير من الفشل والهزيمة.

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والعيب بحدودها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان. لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لحياة دولة المماليك، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير يشبك اللوادار. وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن لباس: صفحات لم تنفر من ٧٣، ٤٧ (نشر محمد مصطفى).

(٢) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٣ من ١٢ (نشر محمد مصطفى).

له إمكانيات النصر، د ففوض إليه السلطان أمور البلاد الغامية والحلبيه وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملوك^(١) .
وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب ، كما استرد منه أذنه وطر سوس ، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١ .
ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا في الأغلال ، وذلك بعد أن هين بوداق أميرا على إمارة دلفادر بدلا من أخيه سوار .

ومع ذلك ، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلفادر ، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠ ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتهرىضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها .

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء ، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها ، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢^(٢) . على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققتها المماليك على حسن الطويل ، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة ، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا . وقد حدثت في الحروب التي شنها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسر يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠ . ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (ندر محمد مصطفى) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠ ، ٨٦ (نشر محمد مصطفى) .

ذلك الخبر واضطربت أحواله وما جت القاهرة عن آخرها وكان يوماءه ولا^(١).
وقد بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أركن
دولة الغناء البيضاء بادرته بالاعتذار مما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين
سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركان
ودولة المماليك جميعا .

الأمماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون
صفاء ، لأسباب وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها
التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية . وهو أمر قوبل
بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في
الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين
تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة
الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من
تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية^(٢) . وإذا كان السلطان
برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعدادا للتضامن معه
لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال : إني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن أبياس : بدافع الزهور ج ٣ ص ١٧٤ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) الخطيب : نزعة النفوس والأيدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ، (١) .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أغار بايزيد الأول العثماني على قيصريّة سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بحماية دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد افتراءً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) . ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفاً قوياً يساعد في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائة ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ، فضلاً عن أنه طالب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيباً حاذقاً في صناعة الطب ، ليداريه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض في حذر ، فمسكر السلطان العثماني واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صغير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي لمعالجة (٣) .

وثمة مظاهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً شرعياً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفّظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالي سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل التاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

الخطيب : نزعة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذا حاول العدوان^(١) ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير^(٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين. وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة^(٣). ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بني عثمان؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جهة متحدة في وجه تيمورلنك؛ ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه مذكرة بدموانه على ملطية. وهكذا أتاحت الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على الأفراد فزحف على دولة المماليك وأزل الهزيمة بهيموشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأزل به كارثة أقره سنة ١٤٠٢.

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك. وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن القاضي شعبة، ذيل تاريخ الإسلام ج ٣ ورقة ١٢٣ ٩.

ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٤٩٤.

(٣) العيني : عقد الجمل ج ٢٥ ورقة ٧٨.

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ انتهت السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعه هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين^(١). ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأمر ملكها جانوس لوزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوروبياً هدية للسلطان برسباي^(٢) .

وعند ما ارتقى جقمق دسك سلطنة المماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتبوءت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي عند قارنا سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فريخت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع في الفوارع والمآذن ودققت البشائر السلطانية بالقلمة عدة أيام^(٣) .

غير أنه لم يكفِ يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى طردوا يوجيون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مارالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها — وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلفادر — كانت مشمولة بالحماية المماليكية ؛ فأذا تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك ، وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتي المماليك والعثمانيين عند ما رحب السلطان قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه (١) .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد بمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلفادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعده بمجنود عثماني في الإغارة على ليابة ملطية التابعة للمماليك في آسيا الصغرى ولم تفلح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي المماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قد أحرزت عدة انتصارات في الجبهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريك الرغبة في الانتقام عنده .

وعند ما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد — الذي ولي

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ — ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلنه نبأ سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الحياة الذي سبق الإشارة إليه هند الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لمؤامراته وخيائنته إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قايقباي إلى القسطنطينية . وفي الوقت الذي اضطربت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العلل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد استعداداً جدياً للمركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

المماليك والدولة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ، وإنما كان هناك الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك لئلا يثقل خطراً حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس ، فلم تكن سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت تسمى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطن

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من المماليكين ليرعى شئون الطائفة المملوكية في دولته ، وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢ . الرشيد السكحال - وهو أحد رجال المذهب المملوكي - صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية ، واطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في تهيئته (١) وكان أن أسهم بيبرس في تعمير مسجد القسطنطينية فأرسل إليه الخمر العبداني والقناديل المذهبة والسطور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماه الوردة (٢) .

ومع أن الإمبراطور أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر ؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور طاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق . وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدم على أن الإمبراطور البيزنطي يخالف الأيمان ، على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة ، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه ، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليصار ضيقه (٣) .

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس ، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) العيني : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزائري وبطرك الأقباط حنا السابع ؛ وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الإمبراطور باعتلاء السلطان قلاوون دست السلطنة ورغبته في الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاوون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه ميمناً يتمسك بها فأرسل إليه قلاوون من حلفه على ذلك اليمين (١) .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك في مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثاني سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاوون تشتمل حملاً من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاوون بتلك الهدية سروراً كبيراً وغمر الرسل بالعطايا (٢) .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان طبيعياً أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجي الضخم الذي ميز دولة المماليك في ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتأسله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد في عهد السلطان بيبرس (٣) . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب في سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنين ، وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطي في التسامح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدواودار : زبد الفسكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥ ب .

(٣) المرجع السابق ج ٣٥ ورقة ٢٨٠ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته^(١) . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة^(٢) .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لزيادة نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركان^(٣) . ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة - واسمه مارينو ساندو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام^(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٢٦٩ لإزالة الأثر السيئ الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٢٦٥^(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج الجديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٣٩١ .

(٤) صفيح طشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .

(٥) المقريزي : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الامبراطور
حننا الخامس أرسل سفارة سنة ١٢٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه
الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالقنصلية ،
فأجاب السلطان الامبراطور البيزنطي إلى طلبه (١) . على أن الملاحظ هو أن
الامبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ
أواخر القرن الرابع عشر ، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن
تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الأباطرة
البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن
المسلمين جميعاً - داخل دولة المماليك وخارجها - كانوا ينظرون إلى توسع
العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون
الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور
الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً
« ودقت البشائر بالقلعة ، وزينت القاهرة لإبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ،
وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني ديهشته بهذا الفتح العظيم » (٢) .

سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها علاقات عديدة - تجارية أو عدائية -
مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط . ولم يكن
منتظراً من سلطنة المماليك - وهي لم تكن قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن خلدون : لأبناء الفخر ج ١ ورقة ٢٢٣ ،

(٢) ابن دياس : صفحات لم تذكر من بدايع الزهور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩^(١) . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية^(٢) . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جلية إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عين جالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس^(٣) . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(٢) Lane-Poole : op cit^o p. 268 & Enc. of Islam,

(٣) محمد جمال الدين ضرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما انفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقرئى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بغير من هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : بأن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه ،^(١) . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملك صقلية^(٢) .

• • •

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية — وبخاصة البندقية وجنوا — فتدبر بطناً بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرمى مصالحها . ولم يكن منتظراً من الجمهوريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، وإذ ذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبا إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التي أغارت على الاسكندرية لانت إلى البندقية بصفة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه^(٣) .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بهدان تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية ، من ذلك ما يرويه التويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق براً بعد واقعة الاسكندرية للتجارة كما أدت لهم.

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥١٣
(2) Lane—Poole : op: cit., p. 268.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فمنعهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم دأرجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحيثئذ يبيعون ببلدى وتبتاعون منه^(١) . وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجزوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ؛ وأخذت سفن الفرنجة تفد إلى الإسكندرية بكثرة ، واطمأنت الناس وما فات فات^(٢) .

والمعروف أن التنافس التجارى بين البندقية وجزوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتسكروا معظم النشاط التجارى في البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدي السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والصفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم^(٣) .

(١) النويرى : الإمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ .

النويرى : الإمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ورقة ٧٢٤

المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخت السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دواته^(١) ومرة أخرى عاد الجنوية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨^(٢).

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحياناً. وقد حدث سنة ١٤٠١ - على عهد السلطان فرج بن برقوق - أن أغار بعض القراصنة من الجنوية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع^(٣) وبعد ذلك بعاد من أعداء حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك^(٤). وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطباعها إلى جزيرة قبرص واستولت على ميناء قاعا جوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر : لمبأه النورج ص ٢٦٥-٢٧٤.

(٣) ابن قاضي شهابية : ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(4) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme. Siecle. pp. 89-90.

قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برسباي
سنة ١٤٢٦ (١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو
الذي دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة
المماليك — يوصل إلى الهند. وقد نجح الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل
الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كنارياتما يعتبر مقدسة للجهود التي أدت إلى
كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (٢).

* * *

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرت ظروفها التجارية وما كان
بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع
اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة ونيشيطال وأشبيلية. ويبدو
أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نهجيات من دولة المماليك
للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسألون سلاطين المماليك من ذلك
أن جيمس الأول ملك أرغونة نود إلى السلطان بيبس وباده الهدايا. وقد
استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين ملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك
من ناحية أخرى؛ فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة (١٢٩١ — ١٣٢٧)
عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون
لزيارة بيت المقدس، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق
رعاية تجمار كل بلد في البلد الآخر. وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها
لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين (٣).

(١) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ — ١٢٦.

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages'. p. 156.

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60—62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون من ناحية
والفونس العاهر صاحب قهتاله (١). أما أشبيلية فيروى النويرى أن صاحبها
الفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس
بإرسال سفارة تحمل هدايا جليلة وقدوة بات سفارة بيبرس بالخفاوة والإكرام
في أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى
الاسكندرية (٢).

وحدير بالذكر أن القوى الخربية التي طالما ناصبت ساطنة المماليك العداء
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالة المماليك رغبة في التخفيف
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على
الأماكن المقدسة عن طريق مسالة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا
حذا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى
القاهرة سنة ١٣٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون معاملة المسيحيين
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلتقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ،
وأنه مهما حمل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من
المسلمين مثله (٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠ ، ومع السفارة
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

(١) بيبرس الوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٧٢٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر
بردهم إلى بلادهم (١).

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق
والغرب جميعاً.

(١) التويرى . نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادي

الزراعة :

أهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر لإقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قيراط و الأمراء بعشرة، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضي الزراعية قيست ومسحت أكثر من مرة في عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتعديله ، وهي العملية المعروفة باسم الروك^(١). واشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٥.

أما عن الروك الحسامي فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلهم أغنيا لأعوانهم ومستخدميههم لذلك نذب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيلىك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري وجماعة من الكتتاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة، لروك

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضي مصر . وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضي المصرية وتعديله
وزعت الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على الأمراء والأجناس سنة ١٢٩٨
(٦٩٧ هـ) (١) .

على أن توزيع الأراضي المصرية لم يثبت أن تعرض للتغيير والتبديل .
الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلجأ في سلطنته الثالثة إلى
فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهي العملية المعروفة باسم الروك
الناصرى سنة ١٣١٥ (٧١٥ هـ) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض
أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ،
في حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التي
استغرقت خمسة وسبعين يوما (٢) .

• • •

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها وما ينتج
ذلك من قيمة محصولها . وأهم هذه الأقسام هي :- (٣) .

١ — الباق ؛ وهو خير الأراضي وأعلاها قيمة وأوقاها سعرا ؛ لأنها
تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما
وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ — البرائب ؛ وسعرها دون الباق اضعف الأرض وتصلح لزراعة
القرط والمقاتي ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ — البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها
للسنة الماضية .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٥ ص ٩١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

٤ — الوسخ ، وهو عبارة عن الأرض التي استحکم ريحها ولم يتمكن المزارعون من إزالته ، بل حرثوها وزرعوها . فجاء زرعها مختلطاً بالخلفاء ونحوها .

٥ — الخرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للمواهب .

٦ — الشراق ؛ وهو الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ — المستبحر ؛ وهو الأرض الوطئة التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصرفاً له .

٨ — السباخ ؛ وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها في زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

• • •

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر إزداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندي الجسور في ذلك العصر إلى نوعين : الجسور السلطانية ، وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري ، والجسور البلدية ، وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ، (١) .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجسور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة عدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لمهارة الجسور ، ويمر عن الأمر منهم باسم

(١) القلقشندي صبيح الأهمى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

« كاشف الجسور » ، كما كان « للجسور خولة ومهندسون لكل عمل ، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها » (١) . فإذا عاد الأمراء المعينون لكشف جسور الوجهين القبلي والبحري من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذي همضوا به (٢) . وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً لتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور . من ذلك ما يرويه المقرئ من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بتشريق بعض الجهات قرب شبين حتى سار بنفسه سنة ١٣٣٦ (٧٣٧ هـ) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحي ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شبين القصر إلى بناها العسل ، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه ، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة بتلك الناحية (٣) .

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذي كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه ، كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة . واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر — لا سيما في مناطق ملوى وقنط ونجع حمادى — ، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية (٤) . هذا كله فضلاً عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) المقرئ : الجزء ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٢٤ .

(٣) المقرئ : الموعظ ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

التي زرعت في الحدائق والبساتين (١).

وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلي كان عيناً من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وتحوها، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة تتراوح بين أرد بين وثلاثة. أما الوجه البحري فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل (٢). ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمدة عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية - إذ تنقص السنين القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة - فإن النظام الخراجي كان يقتضي تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها، وهذا هو السر في تلك الإشارات التي نجدها في المراجع المعاصرة فيقول المقرئ مثلاً في حوادث سنة ٨٦٩٧ هـ حولت سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة (٣).

* * *

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية على السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثرها من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها. ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي؛

(١) القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١ هـ

السيوطي : حین المحاضرة ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) القلعة شندی . صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ هـ

(٣) المقرئی : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ وكذلك حاشية ١ في نفس الصفحة هـ

القلعة شندی : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٠٤ هـ

ثم أودع بها ألفي رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلاً عن عدد كبير من البقر^(١). هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتتبع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة والين^(٢).

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها في عصر المماليك لا تعنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش في ذلك العصر قنناً مربوطاً إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد ومخصولات الأراضى الزراعية كانت فى الواقع خبيأ موزعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، فى حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاغرون. ويذكر الشربيني أن الفلاح فى آخر ما كوله كان لا يتناول إلا الشعير والخبز القريش والبصل^(٣). ولا عجب، فإن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى الذات رغباتهم، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين ونشردهم فى البلاد ..^(٤).

الصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت فى عصر المماليك نتيجة لكثرة الثروة والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيجنى فى

(١) محمد جمال الدين السمرور : دولة بنى الاوث فى مصر ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) الصريانى : هنر القهوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ص ٤٥٩ .

(٤) المقرئى : لغظة الأمامة ص ٣٩ ، ٤٦ .

النهاية تمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية، فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يرضى بمال يبذله في شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذي أثر في ارتفاع الصناعة والصناع على عصر الماليك، عندما فاقت الخزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأوا بعيدا في الدقة والإتقان^(١).

وقد رأينا في صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة الماليك كانت دولة حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة، وأثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن الماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أعلى الدرجات ويحقق أخصم الآمال بفضل مهارته في القتال واستعمال القوس والشارب والحرية.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكانا بارزا في النشاط الصناعي لدولة الماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخير بالأسلحة المتنوعة وبالصناع الذين كانوا يصنعونها فإذا حدثت فتنة أو نشب حرب هرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ ترفع أسعار الحديد وأجور الحدادين وصناع آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه^(٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حرص سلاطين الماليك

(١) سعيد عبد الفتاح طهوي: عصر في عصر دولة الماليك البحرية ص ٢٠٠

(٢) المقريزي: السلوك: ج ١ ص ٥١٢ هـ

(١٩) - العصر المالكي

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطئ مدولتهم الواسعة ويصد غارات المعتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عنى السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه ويرتب ما يجب ترتيبه ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن^(١)، ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاوون الذى عنى - أثناء حكمه القصير - بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلموس، حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستعرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود^(٢) .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحراريق والطرائد. أما الشوانى فكانت أعظمها شأناً وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها المساكن المسلحة بالآقواس والسهام والحرايق ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحراريق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجند والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاء عن الذخيرة والبارود والنفط . أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تتسع لنحو أربعين فرساً وأحياناً لثمانين فرساً^(٣) . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال اللبف . أما الأخشاب

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧ هـ

السلوك : ج ١ ص ٤٤٧ هـ

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ هـ

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢١٥ هـ

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوروبا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج في صناعة السفن^(١).

هذا عن الصناعات الحربية ، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الديبقي نسبة إلى دبيق^(٢). هذا فضلاً عن اشتهار لنيس - قرب القروا - بصناعة قماش رقيق سمي القصب صنعت منه عمامة الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها^(٣).

وسواء كانت الأقمشة التي صنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الحامة ومتانة النسيج ، كما تشهد على ذلك قطع النسيج المتبقية من ذلك العصر^(٤). وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية ، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخلع التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتنفق عليها أسماء السلاطين وأقاربهم ، كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والحبال المكسرة بالفطن والحرير

(١) آدم مينز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٢

المعريزي : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) القلبي شدي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بني قلاوون ص ٢٤٥ .

(٤) زكي محمد عسني : أطلال الفنون الزخرفية والقصور الإسلامية ص ٢٠٠ .

ولم تكن العناية بصناعة المعادن في عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفة خاصة في صناعة الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحون والطسوت وغيرها، كذلك استخدم النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء. وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديعة المنظر^(١)، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون.

وانتشرت في عصر المماليك صناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. ويشهد المقرئ على أن المعاصرين كانت لهم في النحاس المكفيت رغبة عظيمة... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفيت^(٢)، كذلك عني المصريون في عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة، فأكثروا من صنع الأواني والحلي الذهبية والفضية، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات. أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته في ذلك العصر، وإذا استوردت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوروبا. ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون في ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع، فضلاً عن الصباية والاقفال والمفاتيح^(٣).

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي؛ وكان أهم مراكزها القباطية والفيوم والأشهرين والإسكندرية. وتشهد بذلك أعداد المشكوات

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام من ١٥٠٠ :

(٢) المقرئ: المواعظ ج ٢ ص ١٠٥ (بولاقي) :

(٣) تميم عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٠٥ :



ميترة من عصر المماليك مصنوعة من النحاس المسكف بالذهب والفضة
ولها غطاء على شكل قبة

الزجاجية المحفوظة بدور الآثار والتي تمتاز بجمال أشكالها وانسجام زخرفتها وإتقان صنعها . وبالإضافة إلى ذلك صنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في الشبائيك ، وكذلك بعض أنواع البلور الصخري المحجب . أما الحرف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعاته في العالم الإسلامي ، ومنها انتشر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى وقد جرت العادة على أن تزين الألوان الحرفية المصنوعة خصيصاً للسلطين والأمراء برنوكهم أو شعاراتهم^(١) .

وبلغت المصنوعات الخشبية درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك والبع المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق منها الحشوات والخراط والتطعيم . فالحشوات استخدمت لتجنب تشقق الخشب من جهة والرغبة في زخرفته بأشكال هندسية من جهة أخرى . والخشب المخروط كانت تصنع منه الشبائيك والحواجر والمشربيات . أما تطعيم الخشب فكان يتم عادة بالعلاج أو البنوس ، لاسيما في الكراسي والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف^(٢) .

أما المصنوعات الجلدية - وبخاصة المروج - فكان لها شأن كبير في عصر المماليك ، إذ كانت المروج تصنع على أنواع وألوان مختلفة وأثمنها ما كان يصنع من الجلد البلغاري ، وأحياناً كانت تحلى بالذهب والفضة^(٣) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة الصناعات الصغيرة التي ازدهرت في عصر المماليك ، ولكن يكفي أن نختتم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر . ويذكر المقرئ أنه كان في سبعة عشر مئتي مصر القصب ، كما كان في ملوى

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٩٨ (بولاق) .

عدة معاصر^(١). ومن الواضح أن هذه المعاصر التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد في عصر المماليك، أنتجت كميات ضخمة من السكر، يدل عليها ما تشير إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر في عمل الحلوى في ذلك العصر، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ في شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية^(٢).

هذا عن الصناعة، أما الصنائع وأصحاب الحرف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشا كل أفراد النقابة ويرجعون إليه في كل ما يهمهم. ولما كان دخول أي فرد غريب في حرفة من الحرف يؤدي إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يبرنون أحدا على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمحون لأي شخص في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة.

التجارة الخارجية:

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بأزدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، وازدهار ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. ذلك أنه لم

(١) المقرئى : المواظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) سعيد طشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ — ٣٧

يكاد يمضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلاً عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزاً لدولته فى الشرق الأوسط ؛ وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن فى ذلك الطريق واعتماد اللصوص على القوافل والتجارة^(١) . وكان ذلك فى الوقت الذى قل إقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة فى معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المريعة عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن إليها وينزعوا قلاعها ودفنتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون نفثيهاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ؛ وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول العمامة والشعر والكفين وحرمة السراويل وتحت الأباط . كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها فى أعجازهن^(٢) ، فإذا ما أتم التاجر إزال بضاعته ودفع ما عليها من

(1) Marco Polo : Travels (vol,) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المنادى في طرقات عدن ويعلن في الأسواق أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل^(١). وهنا يجدر أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطي عدن شمالا في البحر الأحمر؛ وإنما كانت رحلتها تنتهى عند عدن ثم تقفل واجهة من حيث أنت ، في حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل في شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانئ مصر والحجاز .

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر - مصر ؛ الأمر الذى أتاح لسلطين المماليك في مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيان دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التى هددتها ؛ فإن السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) عمل على تنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاوون أخذ يتوحد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بحكامها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسأله ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان بيبرس قد امتن ملوك اليمن وأهائهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاوون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن^(٢) . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه أبى تى شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجارى بين الشرق والغرب

(١) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨

(٢) المفريزى : السلوك - ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرف التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر - وبخاصة عيذاب - إلى موانئ البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيهما إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطلّة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضربوا بيد من حديد على العابثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ، حتى أن قوافل الحجّاج أنفسهم لم تسلم من هبّهم^(١) . ويروى المقرئى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، أمر السلطان قلاون الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق »^(٢) .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاون أرسل إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية^(٣) . وقد أورد القلقشندي بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر ثغر الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر الثغر بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فإنهم هدايا البحور ودواب الثغور، ومن أسنتهم يطلع

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن القرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجننه الصدور ؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنة مراكبهم كالطيور...^(١) . ولا شك في أن أمثال هذه الوصية إنما كان يوجهها سلاطين الممالك إلى عمالهم بمختلف الثغور المصرية التي يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا .

كذلك كتب السلطان قلاوون منشورا إلى التجار الذين يقدون على مصر ومن الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم...، يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويفريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلة لمن تغرب عن الوطن... فن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن، والهند، والصين والسند، وغيرهم، فليأخذوا الأمانة في الارتحال إليها والقدوم عليها، ليجد الفعال في المقال أكبر، ويرى إحساننا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر...^(٢) .

وفي الوقت الذي دأب سلاطين الممالك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوربيين الذين يقدون إلى الاسكندرية ودمياط لهراء حاصلات الشرق. ولا أدل على اتساع أفق سلاطين الممالك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين — ومن خلفهم الغرب الأوربي .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

ولقد ترتب على تشجيع سلاطين الممالك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثرت عددهم ، فذكر البلوى المغربى فى رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٣٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس^(١). بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب فى الإسكندرية وحدها فى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد بحوالى ثلاثة آلاف تاجر أوربى^(٢) . ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدين التجارية والثغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط^(٣) . وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب فنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم وإذا ما حدث من طائفة أحدهم ما يشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك ،^(٤) كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ أمير فرنسى فذكر الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والكتلان والقبارسية وأهل نابلى وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم^(٥) . ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبى إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢/٠ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ؛ وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائمه ويجتمع بمواطنيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذى اعتاده فى بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبى من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام^(٦) .

المراجع

- (١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٤٥٤ (مخطوطة) .
 (2) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Egypte ; p . 17 .
 (3) Schefer : Le Voyage d'Outremer , p . 122 .
 (4) خليل بن شامى : زبدة كشف المالك فى ١١ .
 (5) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p . 122 .
 (6) Kammerer : op . cit . p . 20 .

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمر اللازمة لهم في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم^(١). ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمر بكميات ضخمة ، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٣٤٢ من إحضار الخمر إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ أربعين ألف دينار^(٢) .

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك فكانت مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فتسير بها السفن في النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من انشام ، وأصبحت التجارة تأتي من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوربا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتي إليهما السفن الأوربية محملة بالفراء والجوخ والأخشاب والحديد والتبذ وغيرها من المنتجات الأوربية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخزف والأقمشة وغيرها من منتجات الشرق^(٣) . وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربي وإفريقية الوسطى وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور^(٤) . وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك بضاعة

(١) Reinaud : Traité de Commerce, p. 40 .

(٢) المفريزي السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سميد طشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٠٨ .

(٤) من المرجح أن تكون تسمية ساحل مصر باسم بولاق التكرور نسبة إلى تجار التكرور الذين كانت تزرع بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل ، وكلها أصناف اشتهرت بها الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المرتفعة . ثم إنه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها لحسب ، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل (١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية في عصر المماليك اتخذوا مدينة قوص مركزاً لنشاطهم الواسع ، فقدت تلك المدينة الهامة في صعيد مصر سوقاً تجارياً واسماً لمنتجات إفريقية الوسطى واليمن والهند والحبشة . وهناك في قوص كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ، وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية (٢) . ولا شك في أن تجار الكارمية في مصر جنوا ثروة طائلة من وراء تجارتهم حتى قال المقرئى مانصه : « وكان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقترضون المال منهم أحياناً إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك (٣) .

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان .

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور السكولى التاجر السكارى المتوفى

سنة ٧١٣ هـ

(المقرئى . السلوك ج ١٣٢ - ١٣٣ ع

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٤ ،

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٢ ،

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التي عقدها سلاطين المماليك في مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلاء عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبا - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة المماليك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم في كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محاصيل وفيرة ، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون في سيلان كثير أمن الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة المماليك في سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان وأجرل لهم العطايا وأرسل صهيبتهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

وإذا كانت عيذاب وقوص قد نزعتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط والإسكندرية قامتتا في عصر المماليك بدور بارز في استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لابتياح حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب . ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط في أوائل عصر المماليك خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما يطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة (٢) . لذلك اختار

(١) يبرس اللوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٤٢

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٠٠

كثير من السفن الأوربية في عصر المماليك أن تستعير بالإسكندرية عن دمياط ؛ وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانئ دولة المماليك على البحر المتوسط ولها تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض ... (١) .

وكان من الطبيعي أن تراقب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة ، ففرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر ، وضربت عليه مكموسا اختلفت باختلاف الظروف والأحوال ، ثم تھتم البضاعة بھتم خاصر الدلالة على استيفاء المكس . وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش في بيعها . وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم مباشرى الختم ، كانوا أشبه بموظفي الجمارك في عصرنا الحالي (٢) . ويبدو أن هذه الضرائب التي فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحياناً في الإسكندرية للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا الثمن . وقد دفع ذلك التجار الأوربيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة ، فيروي المقرئى كيف قدمت رسل البنادقة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) بھدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم ، وأن يملكفوا من بيع بضائعهم على من يختارونه . وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع ، فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إيذائهم (٣) .

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ . (٢٠ - عصر المماليك)

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لعرقلة من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التي ألما سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرده الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت في إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسي لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين المتاجرة مع دولة المماليك^(١) . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراد والمدن والجمهوريات والدول التي تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أختصاصا معينة حرمت تصديرها إلى تلاميذ الدولة بعضها له أهميته في الحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والنفيد والزيت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه نظام المماليك^(٢) .

ولكن الجهود التي بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحل التجارة الأوروبية على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وباءت بالفشل . ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة لحرمانها من التجارة مع مصر ، وتحاللت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جاييم الثاني ملك أرغونه أن جدد إنفاقه التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذي استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت مملكة أرغونة بالذات على عدم سحب قناصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 & Heyd : Hist, du Commerce, II, p. 26.

نقد أرسلت سفيراً إلى مصر سنة ١٣٠٢ هـ - على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - ليبلغ المسئولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر ، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعداد الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات ، كما وافق على أن يكون فرانيسكو دي كنالي قنصلاً للبندقية في الإسكندرية يرعى مصالحها ومسالخ رعاياها الاقتصادية^(١) .

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ بمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول ، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد ، ولم يعد يكفي لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملوكهم العريض . لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية ، وللحصول على المال الوفير من أيسر طريق في نظرهم ، من ناحية أخرى .

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع أسعارها ، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص ، فضلاً عن المستهلك الأوربي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين^(٢) .

(1) Diehl : Venise, p . 72 .

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p . 573 .

وأخيراً دفع الضيق القوى التجارية في غرب أوربا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي^(١). وما زال الغرب الأوربي يحد لاكتشاف طريق بحري جديد إلى الهند، حتى توصل فاسكو دي جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر، فجاء ذلك إيذاناً بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية، وإعلاناً لأهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسي للتجارة بين الشرق والغرب في تلك الفترة من ناحية أخرى. ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجاري في أواخر عصر المماليك إلى إضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرّموا من المورد الأساسي الذي طالما أمدّهم بالمال والقوة

التجارة الداخلية:

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك، فاشتهرت المدن المصرية - وعلى رأسها القاهرة - بأسواقها العامة ذات الطابع الخاص المميز، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوق منها يختص بنوع معين من البضائع، فسوق الشماخين يختص ببيع الشمع، وسوق النحاسين يختص ببيع النحاس، وسوق الفرايين ببيع الفراء... وهكذا^(٢).

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها، لأن منافسيه على مقربة منه، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة. أما عيوب هذا النظام، فأهمها أن الفرد

(١) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3 . p . 31 .

(٢) المقرئى : المواظع ٢ ص ١٠٣ (بولاق) .

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع^(١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان ... فمثلا هنا اكتظاظها بمحمور المشتريين^(٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب ذويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة في عرضها ، ويتأنقون في تنسيقها واحتفافها بالرياحين والأزهار^(٣) .

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك والبنين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث يالفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفسق واللوز والجوز وغيرها - وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يضع أمواله وبضائعه في مأمن من كل سوء ، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من هبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها^(٤) .

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما همدوا إلى المحتسبين بالطواف أَيْلا ونهاراً للتفتيش على

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٨٦ .

(٢) المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٢٦ .

الباعة وضبط من يحاول التلاعب في الاسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعى في المحتسب دائماً أن يكون « ذا رأى وصرامة وخشونة في الدين » (١) . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأطمعة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرقات للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدّة (٢) .

المالية العامة :

تشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر ، والأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتتقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب هي :-

أولاً : ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضان من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض في كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذي أصبح عليه الوضع في عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالي ٢٪ أو ٢ ١/٢٪ ، وثانيهما

(١) ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٨ .

(٢) السبكي : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من مواشي أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة لارعى (١).

ثالثاً : الجوالى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه الجزية فى عصر المماليك حتى أصبحت تراوح بين خمسة وعشرين درهماً وعشرة دراهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر فى مصر والقاهرة يوليه السلطان ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، فى حين يخصص الباقي للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى بأن تكون جزية أهل الذمة فى كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : الثغور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية . والمعروف أن المقرر فى الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء التجار ، ولكن مذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفف هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان الوضع فى دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من بضائع « وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً » (٢) .

خامساً : الموارد الخشيرية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . وهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذه

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية من ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالديار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية. هذا فضلاً عن دور أخرى أقل أهمية في تروجه وفوه وبلاد الصعيد^(١)، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً.

سابعاً : المتجر، والمقصود به أن الحاكم - سواء كان خليفة أو سلطان - كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب؛ وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم.. وكان بعض الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب في استثمار أموالهم، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للمتاجرة فيها. وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للتقلب مما يعرضهم للخسارة، فظلا عن احتمال تلفها نتيجة للخبز، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حق عصر المماليك^(٢). وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبروه منافسة غير مشروعة لأن دار عاياًمة كافئون في اليسار متقاربون، ومراحة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على خرضه في شيء من حاجاته،^(٣).

ثامناً : المعادن المستخرجة من أراضي مصر وأهمها الزمرد والشب والنطرون، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوربيين عليها، وباعوها

(١) الماريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤ م

(٢) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

بأضعاف أثمانها وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ،
ومتى وجد مع أحد شيء من صنفه استهلك (صودر) ،^(١) .

* * *

أما الموارد المالية غير الشرعية فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد
سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها . ولم تكن جميع المكوس في عصر
المماليك من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة ، حتى أحدث
السلطان قطن مكوساً كثيرة لاجل جمع المال وقتال التتار ،^(٢) . كذلك يلاحظ
في أمر هذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر
المماليك ، فربما يتطرق أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها ؛ ثم يعقبه
سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس
أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة
على الغلات والاتجار فيها ، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرفاء الأسواق
ومقرر الحوائص والبغال ؛ ومقرر السجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من
يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طرح الفراريج فلا يمكن أحداً من الناس
في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فـلا فـوقه إلا من الضامن ،^(٣) ، ومقرر
الأقصاب والمعاصر وهو ما يجني من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر ،
ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ
من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) اللامبندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩

(٢) الميرزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٥ (بولاق)

(٣) الميرزى : المواعظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحصون فإذا حضر مبشر بفتح حصن تجمع ضريبة من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير ، (١) ، ومقرر وفاء النيل إذ يجمع من الناس لهذه المناسبة أموال تعمل بها شوى وحلوى وفاكة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخمر وبيوت البغاء وغيرها .

* * *

أما عن الأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق في تلك العصور بين مالية الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التي جمعوها في شراء المماليك وتربيتهم والإففاق عليهم في سخاء ، حتى أن الطبايق السلطانية كانت تعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أنفرا المأكولات ويلبسون أثمن الملابس . ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفي أن يقف الباحث على وصف لقلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المدمبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرسي الملون وما احتوت عليه من اسطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة ، وساحات الأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغرلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التي استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر (٢) . ولعل ما أفاضت في وصفه المراجع المعاصرة عن أفراح السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفي لتوضيح بعض الأوجه التي كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ما قيل من أن جهاز الأمير

(١) المنريزي : المواظ ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ — ٦٣ .

أنوك بن السلطان الناصر محمد بلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال وبلغ الذهب في المصاغ والملابس ثمانين قنطاراً ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاز (١) .

ولم يرضن سلاطين المماليك على نسائهم وجواريمهم بالمال والمتاع . بحيث أننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، ؛ على قول أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وحسبنا أن إحدى الخوحدات توفيت فلما حصرت تركتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلفت ثروة طائلة أفاضت المراجع في وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التي جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها في حياة الترف ؛ فإن هناك جانباً منها كان ينفق في دفع أرزاق موظفي الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلاً عما تطلبته البلاد من منشآت ومرافق وإصلاحات كالجسور والقرع والمساجد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد — وبخاصة ضد التتار والصليبيين — فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثيراً من الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلاً عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شواني وطرادات وحراريق وأغربة وغيرها .

السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التي يتعامل بها الناس في مصر والشام هي الدراهم الكاملية التي أمر السلطان الكامل الأيوبي بضرها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ، وكانت نوعين ؛ الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

عن نحاس ، والثاني دراهم الفلوس النحاسية وهي مصنوعة من النحاس ، وكثيراً استخدمها بعد الأزمات الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنة ٨٦٣٠ (١٢٢٣ م) والتي صاحبها انحطاط سعر الدراهم الفضية . وكان الوضع في أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدراهم والفلوس النحاسية (١) .

وكان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صاحبها سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك الأوائل — مثل شجر الدر والممزن أيبك والمنصور على بن أيبك والمظفر قطز — قد سكوا نقوداً بأسمائهم ، إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شئون الدولة ، وعندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكة عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة في عصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ؛ فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تعرض العملة الذهبية في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمناقل ، ولكنه قال عن الدنانير التي سكنت في مصر في عصر المماليك : إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كثافة ضربها (٢) .

(١) عبد الرحمن فهمي محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٧٦

(٢) القلشندي : صبح الأمل ج ٣ ص ٤٤١ .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير الممالكية ذلك الخلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ؛ إذا بالبندقية تلجأ في القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الافرنقية أو الدوكات تمتاز بمبارها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين . وقد وصف القلقشندي هذه العملة الأوربية فقال إنها معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصري ... وهذه الدنانير مخصصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صور تاتاريس وبواس الخواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالافرنقية جمع افرتى وأصله افرنسى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه عندم دوك ... (١) .

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقي وعم استعماله في مصر والشام وغيرها من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذي أزعج سلاطين المماليك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق حمل دنانير جديدة على زنة الدنانير الافرنقية المتقدمة الذكر ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة مثقال تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها وعم استعمالها ، ولكنها مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفريقية (٢) . وهكذا ظل مصروف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال ، على قول القلقشندي ؛ الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سلكها سلاطين المماليك لا تقوى على منافسة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

للدوكلات البندقية ، فأنحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندق^(١) .

أما الدراهم الفضية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس^(٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هي الأخرى أن تعرضت للفساد منذ أواخر القرن الثامن الهجري — أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) — عند ما انتشرت الدراهم الحورية التي ضربها المماليك بحماهم ، وقد تدمر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها حتى بلغت الثلثين ، مما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس النحاسية^(٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات في تلك العصور ، وكانت — على قول المقرئ — لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها^(٤) . ويروي القلقشندي أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون عفى بضرب فلوس جيدة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) اشتهرت بالفلوس الجدد جمع جديد ، وجعل ذلة كل فلس منها مثقال وخمسة في نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا^(٥) . غير أن الملاحظ في عصر المماليك أن الفلوس النحاسية هي الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعاً في الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلفوا في تقدير قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحياناً باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ، وفي جميع الأحوال يرغم التجار والأهالي على التعامل بها

-
- (١) عبد الرحمن فهدى محمد : النقود العربية ص ٩٨ .
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .
(٣) المقرئ : شذور المقود في أخبار المقود ص ٩٥ .
(٤) المقرئ : لغاة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ .
(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفق القيمة التي تحددها الحكومة مما يشيع حالة من القلق في الأسواق (١)

* * *

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة في عصر المماليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئى «وأدركت أنا والناس من أهل نجر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراده منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمئة ، وأدركنا ريف مصر وأهلهم يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات بببيض الدجاج وببنخال الدقيق ...» (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع في التجارة الخارجية وبخاصة في القرن الخامس عشر ، فكان الحمل الإسكندري من الفلفل يزن خمسمئة رطل فرورى ويشترى في الإسكندرية نقدا أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكى ؛ كما أنه يقايض أيضا بما كولات كبيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبنديك بماكة نابلي وفواكه أخرى ، ويعطى كذلك قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل ، (٣) .

(١) المقرئى : لغاية الأمة ص ٤٧ وما بعدها .

السلوك ج ٢ ص ٩٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) المقرئى . لغاية الأمة يكشف الغمة ص ٦٩ .

(٣) موفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢)

الفصل العاشر

الأحوال الداخلية

بناء المجتمع :

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كثيراً بين المحكوم والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكم أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام إرابة الدم أو الأصل والجنس ، مما جعل المماليك لا يهتمون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية متميزة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شئون الحكم فبأقدر محدود الذي تخوله صلاحيتهم . وتفسير الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركي والجرماني والمغولي والصيني والاسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تيجار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مواصلة تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يضمن سلاطين المماليك وأمرؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكونوا

لهم سنداً ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها ، وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينحط سعره . ولعل هذا هو السر في أن مملوكاً مثل قلاون عرف بالآلاف لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته (١) .

على أنه جرت العادة غالباً أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أي سيده الذي اشتراه بالمال ، فبيهرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليلية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحياناً إلى تاجره الذي جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهوراً مثل يلبغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان نثر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيراً من المماليك والجواري إلى السلاطين (٢) .

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عدداً من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كل منهم في طبقة جنسه بحيث لا يقيم في طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقاعة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك في الطباق مجموعة من الطواشيخ الحصيان ، فضلاء الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والحفظ وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساندة من سلاطين وأمرام

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١

أبو المحاسن : المنهل العاق ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط)

(٢١ - مصر المماليكية)

لم يضمنوا على ممالكهم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة
معبودة بالمعطف والحنان ، فحصرنا لهم أشهى الأطعمة وحصرنا لهم الكسوات
الفاخرة (١) .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية
حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطابق وانتقل في أدوار الخدمة
السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يغادر المملوك
الطابق تغطى له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان
ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمارة العشرات ثم الطبلخانات ،
وعندئذ يصبح الأمير سلطاناً مختصراً ، على قول القلقشندي (٢) .

على أنه يلاحظ أن الممالك ظلت طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر
والشام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جنسهم
اللائى جلبهن التجار . وقد دأبت حكومة الممالك دائماً على تحذير الناس من انتقال
مملوك من الممالك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامى ، أى إلى أحد من غير
طبقة الممالك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأكذى والعقوبة (٣) . ولا شك
في أن هذه العزلة التى عاش فيها الممالك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام
والحكوميين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في
مصر والشام ظلوا طول عصر الممالك لا يعرفون شيئاً من أمم الأحداث الكبرى
الداخلية والخارجية التى أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من
مواكب حافلة أو من منازعات صاخبة بين طوائف الممالك ، وما ترتب على

(١) سعيد عبد الفتاح طاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين الممالك ، ص ١١
وما بعدها .

(٢) القلقشندي : سبج الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

ذلك النزاح من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل في حقله والتاجر في متجره والفقير في مدرسته أو جامعته . . . ينفذون جميعا مشيئة سادة البلاد من الممالك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صافرون . حقيقة إن الممالك عملوا حسبا لبعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقا من التقدير والعطف، ولكن ذلك لم يمنعهم من التشكر لهم أحيانا . ثم إن هذه الفئة التي حظيت بقسط من عطف الحكام الممالك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، في حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين والعامة لا تلقى من الممالك سوى الهوان والمغارم (١) .

وإلى جانب طبقة الممالك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتّاب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر الممالك بميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحيانا . ويبدو أن الممالك أحسوا دائما بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى حماية يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالممالك احترموا للعلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون » (٢) . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمكائهم في عصر الممالك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال « إني لا أخاف أحد إلا شمس الدين الحريري قاضي فضاة الخنفة » (٣) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ١٥٨ .

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه المكانة الكبرى التي وصل إليها العلماء في عصر المماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرض المماليك أن تشاركهم فئة من السكان في ركوب الخيل ، فاشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انسابت جموع المماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها^(١).

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين المماليك ، لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يمدهم بالمال في ساعات الحرج والشدة . وتدل جميع القواعد على أن التجار تمتعوا في عصر المماليك بثروات طائلة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر حلقة النشاط التجاري بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين المماليك ، فأكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر ، فضلاً عن إثقافتهم بالرسوم الباهظة^(٢) . لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك على أموالهم وتجاريتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا ، عام فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم^(٣) .

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر المماليك بجموع كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمساكين والمعدمين أو أشباه المعدمين وهي الفئات التي جمعتها المراجعة المعاصرة تحت اسم «العوام» . وقد هاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من الطبقات المندمة ، حتى لاحظ بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في عصر المماليك أن القاهرة وحدها بها عدد يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلاماوى

(١) سعيد طشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سوى الطريق وقائه وبلا ملبس سوى أسمال بالية (١) . كذلك دهش البعض الآخر من كثرة المحاذين بالقاهرة في ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض العطف من السلاطين الممالك وأمرانهم - لا سيما في أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيء وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احترام السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات (٢) .

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم في عصر الممالك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ « فلاح » في ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم « غير العادة أضمافا » (٣) كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلخوا من أذى العربان وبطشهم ، فتمرضع القرى والمزارع لإغارات العربان بين حين وآخر ، وفي كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشي الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والوافع إن حركات العربان في مصر في عصر الممالك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح في أحوال مصر الداخلية في ذلك العصر .

(١) سعيد طاشور : المهتم المصري في عصر سلاطين الممالك ص ٣٨ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ (طبعة كالمفردية) .

(٣) ابن ملبس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

ثورات العربان :

وجدت في مصر في العصور الوسطى قبائل عديدة من العربان وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة للشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائماً أبادامصدر فتن ومتاعب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم في مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الأمنين من أهالي القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائماً إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيك أن يفيد من قوة العربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان اتفروا من الخضوع للمماليك، وثار قبيلة بني تغلب - وهي أقوى قبائل العربان في الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن تغلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد » (١) . وهكذا أعلن حصن الدين بن تغلب نفسه مملوكاً على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٥٣ يمرض عليه حلفاء مشتركاً ضد المعز أيك والمماليك ولم يكتف حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحري ليستثير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيك أرسل جيشاً كبيراً أخذه بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣ (٢) .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : البيان والإصرار ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر المماليك ؛ ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلا في وجه المماليك ، وفي كل مرة كانت الهزيمة تحمل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سببوا كثيراً من الفوضى والمتاعب في ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن ثعلب هاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشقه بالإسكندرية^(١) ، ويبدو أن شقيق حصن الدين بن ثعلب أحدث استياء العربان بالصعيد ، فتأرواد وكثر طمعهم وهموا بتغيير المماليك ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه^(٢) ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان في مصر كانت تراودهم في أوائل عصر المماليك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة المماليك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطالبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو انتهاء حكم سلطان قاصر ، وهي فترات الاضطراب عادة في تاريخ دولة المماليك .

وهكذا هاد العربان إلى الثورة في الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم ، ولكن الأمير طرطاي نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد ومعه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلاً عن

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٨٨ .

المقريزي : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتي فرس وألف جمل ، غنمها منهم^(١) ، ولم يرتدع العربان في الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهروا فرصة مرض السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة في منطقة قوص ولكن الأمير طرطاي حاد إليهم ليؤدبهم من جديد^(٢) .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون انتهى العربان فرصة الخطر الذي حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم في الصعيد وأنزل بهم الهزيمة عند قوص وبطش بهم بطشاً شديداً^(٣) ، وعندما اشتد خطر العربان في الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسيوط إلى منفلوط ، تظاهر الأميران بيبرس وسالار - أصحاب النفوذ في مصر في ذلك الوقت - بأنهما يمدان حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة انجحت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ويغتاطوا على سائر الأموال^(٤) . وكانت هزيمة العربان في تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بجثث القتلى ، في حين فر الباقون إلى المغاور والكهوف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم (سنة ١٣٠١)^(٥) ، وقد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ .

التويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .

أدى تطرف المماليك في الانتقام والقتل في تلك المرة إلى إقفار البلاد وخلوها من أهلها، بحيث أن الفرد كان يمشي في تلك الجهات دفلاً يجد في طريقه أحداً وينزل بالقربة فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار، (١).

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء على أيدي جيوش المماليك، دفعاد من سلم من معتدى العرب فقيراً ورعاً صالحاً، وحمل أكثرهم المسواك والمسبحة عوضاً عن حمل الرماح والأسلحة، (٢). وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم توقفت بعد سنة ١٣٠١، وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلاً سياسياً، وإنما اتخذت صورة اقتصادية، وهو ما تسميه المراجع عادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون في نهب الغلال وصبب المواشي، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنتي ١٣١٣، ١٣٣٠ (٥٧١٣، ٥٧٣١) في عهد السلطان الناصر محمد (٣) ومن أخطر الحركات التي من هذا النوع والتي قام بها العربان، حركة ابن الأحمد شيخ قبيلة عرك سنة ١٢٥٣ (٥٧٥٤) في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٤).

وفي نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية — بل القاهرة — من عبث العربان وإفاراتهم عليها أو على أطرافها بغية السلب والنهب (٥)، حتى الحجاج وهم في طريقهم إلى بيت الله

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢٢ .

(٢) بريس الدوا دار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٤٠٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٢٩ ، ٣٣٥ .

ابن حجر : إنباء الفهر ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم ج ٨ ص ١٤٩ .

العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١ .

الحرام هجر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١). وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا هامًا من مصادر الفتنة والقلق وعدم الاستقرار (٢).

الحياة في القرية :

انصفت المدن المصرية في عصر المماليك — مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد — بتلاحق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر في عصر المماليك بمظلمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوروبية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين في الطرقات ، فضلا عن كثرة الدواب . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس عنقه ويسرة ليشقوا طريقهم ، غير مباليين إذا سقط بعض المارة تصفع حوافر الخيل . والجمال العديدة يطوف بها السقاة ون وهي تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء . وقد روى المغربي عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتي ألف جمل ، وعدد السقاة بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء يجولوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣) . أما الخيول التي قامت بدور سيارات الأجرة في أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطعيمها ليستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ — ٥٤ .

(٣) رحلة البلوى المغربى ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسى باسل القاهرة فى عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منها له بابان وحارسان ، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لصد الحاجات اليومية للسكان . وفى الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأثرة وغلق الدروب وتمقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار فى الليل لغير سبب قبض عليه . وعينت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكس والرش بالماء ، وهى المهمة التى قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت . كذلك وضعت آنية ملوثة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسهيل إطفاء ما يقع من حرائق . وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وإصدار من يبقى منهم داخل أسوارها بالقتل^(١)

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة فى عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى ، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب ، والحمامات التى اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء ، فضلا عن عديد المساجد والمدارس . أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند ، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات . ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الخطية والقسوة وسوء معاملة المسجونين فيها ، حتى أن الإعدام كان فى كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن^(٢) .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٧٦١ .

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة في التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أمالي المدن . وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلي وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطئ النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلباً للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد (١) . كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل ، فضلاً عن ولع الناس بالتلهي بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التي كانت تتم عن طريق الرهان (٢) .

واشتهرت الحياة في المدن في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص طائلي ومنها ما هو عام شعبي ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذ جرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الخافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخباً كبيراً . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكراً - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التي تستحق مشاركة الأهل والأحباب في إحيائها (٣) .

أما الاحتفالات العامة فمنها ما هو ديني يرتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومي حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقاً

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الفجر ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافية ، ويطلع الخليفة والقضاء الأربعة إلى القلعة لينشروا السلطان بالعام الجديد (١). وفي حاشي المهرم يكون الاحتفال بعاشواره فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون في هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وطلائق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرسون على إقامة عزاء الحسين في ذلك اليوم فيشد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية ، في حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم (٢) ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتتلأ الأحواض بعصير السكر والليون ليقدّم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل فيتعاقب القارئون والمنشدون والوطاظ ، كما تمد الأسمطة بأنواع الحلوى والمأكولات الشهية (٣) . وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذي يستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمرّون في الذكر والسلطان جالس في صدر الخيمة . كذلك يترقب عامة الناس موعد المولد ليقيموا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوي خاصة بالنساء وعندئذ « تكثر البدع والمخالفات » (٤) .

وكان الاحتفال بدوران الحمل يتم مرتين في السنة في عصر الماليك الأولى في النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحج آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١٠ .

وبذلك ، تهيج العزومات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج^(١) ، وتكون الدورة الثانية في شوال وهي دورة خروج الحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون في زينة الحوانيت والأسواق ، ولا تكون دورة خروج الحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس ، فتوضع الكسوة - وهي من الحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة - على جمل ، ويطرف الحمل بموارع القاهرة حتى يصل إلى الفسطاط في يوم مشهور^(٢) .

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين في كل زمان ومكان ، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين برؤية هلال رمضان في عصر المماليك ، كما وصف غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كيفية إحياء الأهالي ليالي رمضان بإضاءة الفواويس والمشاعل في الطرقات والبيوت والحوانيت . هذا فضلاً عن الاحتفالات بالقلعة حيث يقرأ صحيح البخاري وتوزع الصدقات على المستحقين^(٣) ، وفي نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكعك والحلوى ، وإعداد الملابس الجديدة ، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء في عيد الفطر أو عيد الأضحى ، فتخرج جموعهم إلى شاطئ النيل لاستئجار المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء ، وفي جميع هذه الأحوال تسكن المفاصل الحلقية^(٤) ، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى .

أما الأعياد القومية في عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ما ارتبط بالسلطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو لإبلال السلطان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ (طبعة كاليفورنيا) ٩
مورد الامانة ص ٩٩ .

(٤) سعيد طاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٨٩ .

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفي جميع هذه الحالات تزين القاهرة ومصر بالزيينات الفاخرة ، ويخرج السلطان في موكب حافل فيخرج الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء (١) ، وئمة مناسبة سعيدة تحرص المصريون منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها كل عام هي عيد وفاة النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخليج في موكب تسير فيه الخرافيق والسفن المزينة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى مقباس الروضة يمد سباط كبير من الشواء والخلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم (٢) .

الثورات والفن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة في العاصمة ؛ ولا تلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتتحول تلك الصورة الهادئة المرحية إلى صورة مضطربة قائمة .

ومعظم الثورات والفن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي تحكم في تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ في داخل دولتهم ؛ هي اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً حقيقياً بأنهم جميعاً - بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذي مروا به - متساوون ، ولا فرق بين ملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالعبادة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) للوقوف على الحياة الاجتماعية في عصر المماليك في صورة مفصلة دقيقة ارجع إلى

كتاب :

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - للمؤلف .

في استخدام السلاح والقدرة على استغلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً في السلطنة ، والمملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذي يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن ينتزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولا شك في أن عدم وجود نظام وراثي أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدتها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التي شهدتها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفي أن يرجف بوفاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد^(١) ، وكان يكفي أن يعلن قيام سلطان جديد في الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - في الشام أو في مصر - عدم رضاهم عنه وأورثتهم عليه ، مما يندب بدور جديد من أدوار الشدة التي اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد في ذلك العصر ، وفي جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تهدد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للبيجان^(٢) ، ثم ينتشرون في الأسواق والطرق لنهب الحيوانات وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يهجمون أحياناً على النساء في بيوتهن وفي الحمامات

(١) ابن مياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ .

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

فيخطفوه من (١) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سبقت الإشارة إلى معظمها في صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتي المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة في الشام أو في مصر ، فإنها انفقت جميعاً في نتائجها وهي إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واخفافاته إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات في مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صبغ ذلك العصر بصبغة خاصة ليس لها نظير في تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وجعله يتصف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويكفي أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والحوانيت والأبواب التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتعطل جميع مظاهر النشاط العمراني ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقاسي الناس طواها الجوع والفوضى والفرع (٢) ،

المجاعات والأوبئة :

ولم تسكن الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعي وقلة النفقة الممنوعة لهم من السلطان لحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيرة ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات في

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤

أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم في مياه النيل في تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدي إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذي أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمراني في البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك ، ولذلك نكتفي بالإشارة السريعة إلى أهمها لتأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ما حدث سنة ٦٩٤ - ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار في الشام ، فاشتد الغلاء واضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء^(١) . وفي نفس الوقت - وكان ذلك في عهد السلطان العادل كتبغا - انخفض فيضان النيل عن مستواه فتزايد الغلاء واشتد البلاء ، وجاء الغلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضعة ألوف . ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقاً في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقماء بأمرائهم^(٢) .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير في قسوته ومصرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في مصر والشام ، وإنما هم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر^(٣) ، وقد عرف ذلك الوباء في أوروبا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقرئى الكثير عن البلاد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) بيمرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقرئى : السلوك - حوادث سنة ٨٤٩ هـ : ج ٢ ص ١٧٣ .

التي انتشرت فيها ، في آسيا وأوروبا وأفريقية ، فضلا عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقرئى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا فلم يوجد من يضم الزرع ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك في دمياط وهم في سفنهم والشباك بأيديهم مملوءة سمكا ميتاً ، وهكذا أفقر الريف من الزراع وأفقرت المدن من سكانها ، بحيث غدت القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمراني ، فتمطلت أكثر الصنائع . . . وصارت كتب العلم يتأدى عليها بالآحمال . . . وعلقت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام ، حتى المساجد والزوايا أغلق معظمها وتطل الأذان من عدة مواضع (١) .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضاً عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد (٢) . وقد حدث في عهد الأشرف قايتباي وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . عندما هجم الطاعون بالقاهرة ونشئ جملة واحدة ، وقتل في الناس فتكا ذريعا ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى جملة واحدة ، ومشى نحو بلاد الصعيد (٣) . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند تفشى الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيداً عن العاصمة طلباً للنجاة فيقصدون مرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحياناً من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن لباس من أن

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٢ - ٧٨٦ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٩٢ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان برسبای أصیب فی طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ، فحصل له ما يؤول إلى ، أى ارتباك في قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفي الكلاب إلى الحيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها (١) .

في كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الأزمات التي كانت تحل بهم في ضوء فساد الناس وخروجهم عن طاعة الله وإسرافهم في المعاصي مثل شرب الخمر وغير ذلك . لذلك نجد في المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تعالى في أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فيسارع الناس إلى إراقة الخمر ، والكف عن السيئات عسى أن يتوب الله عليهم ويكشف عنهم الغمة ، وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة - مثلاً حدث سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ - إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمر وتحريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة (٢) ، ولكن مفعول هذه الأوامر كان لا يستمر طويلاً ، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق وضعهم ولم ينتهوا عما هم فيه ، (٣) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) ابن حبير : أنباء الفجر ج ٢ ورقة ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٢٤٩ .

المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ .

العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

الفصل الحادى عشر

الحياة العلمية والدينية

النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم^(١) . والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً للنشاط العلمى واسع ؛ يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر . ويربط السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر، غدت هذه البلاد محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء^(٢) . أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم وهذا بلد ضيق عن علمى ، وهجروها إلى مصر^(٣) .

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لو لا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب^(٤) . وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن الحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، فصبغة لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ وظهر في عصر
بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم يحيى الدين بن عبد الظاهر وابن
خلكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغوري — من حرص
على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد
بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التي تناقش
فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء (٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء
المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية،
بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣).

المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على إنشاء كثير
من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس
مثل المساجد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين عني عناية خاصة بإنشاء
المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية
والمدرسة القممحية (٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بني أيوب قد
استثمروا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شيء مراعاة للمذهب السني
ومحاربة العقيدة الشيعية في البلاد؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء
المدارس لإظهاراً لشعور التقوى والزلفى من ناحية ولتخذوا من المدرسة أداة

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغوري ص ٤٩ .

(٣) السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .

(٤) المقرئى : المواظ ص ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ (يولان) .

تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعد على تدعيم مركزهم في أعين الشعب (١). ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق التي أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيد في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي. ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصرُوا في إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي أنشأ مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس من السلاطين. ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الجمالية أو المحمودية التي بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقرئ لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها من أحسن مدارس مصر (٢).

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويمد سجاد فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه. وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين، يعين المدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique en Egypte, pp . 60 — 64 .

(٢) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

والفراشين وغيرهم (١).

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر، يخضع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس تفسيراً كانت أو حديثاً. وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر «مكتون علمه» للطلاب، ويقبل على الدرس وهو طالق الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبة «ويربيهم كما يربي الوالد ولده» (٢). كذلك طلب من المدرس «أن ينظر في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال» (٣).

وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح (٤). أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث «لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ما يختارونه من أنواع العلوم الشرعية» (٥) وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيد ليتعلم على فقيه أو محدث مشهور (٦) فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك. ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية (٧).

(١) ابن حجر: لنبأ الفهر ج ١ ص ٧٧٢.

المقريزي: السلوك ج ٣ ص ٤٦٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١.

(٤) المقريزي: السلوك ج ١ ص ٧٠٠.

(٥) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥.

(٦) سعيد هاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦.

والواقع إن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكنها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف — من أراض وبيوت وأسواق ومعاصر وغيرها — ، وهي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين ومطلاب علم وموظفين (١) .

المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لاستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم . لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نهضة منقطعة النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلمة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر ، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محفظة بأهميتها ، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

أما مكتبات المدارس والجوامع في عصر المماليك فكانت على درجة عالية من الإعداد والعناية . فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم (٣) . وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٢١٢ .

أبو الهيثم : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم علي : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من « كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء »^(١) . وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد ، إذ أنشأ بها « خزانة كتب جليلة » .

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك ، فنسمع عن خزانة الكتب العامرة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم^(٢) . هذا مع ملاحظة أن خزانة الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس فحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانقوات والجوامع ، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة . وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب « خازن الكتب » ومهمة ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحجبها وترميمها بين حين وآخر ؛ فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة^(٣) .

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة ، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يحبسها صاحب المدرسة على خزنتها ، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء^(٤) . ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر ، هي التي تطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً يائناً إلا في حالات نادرة خاصة . ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصر على الاطلاع

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٩ .

الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على المكتب وعدم استئلاهما (١).

المطاب :

وإذا كانت المدارس في عصر الماليك تمثل المهاد العليا أو الجامعات . فإن المكاتب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم . ويبدو أن الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة في الثواب . وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب « المؤدب » الذي أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه » ؛ واشترط فيه أن يكون « خيرا دينيا أميناً على أطفال المسلمين ، متين الخلق هذا متزوجا عارفا بصناعاته صالحا للتعليم » . وساعد المؤدب في عمله « العريف » وهو أشبه بالمعيد في المدارس ، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال ، ويعرضون عليه الواحهم في غيبة المؤدب (٢) . وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك ، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم . وقد ذكر النويري كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل - الذي أنشأه - فقيهين - « يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم ؛ وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهما ، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف . ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزا ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف » (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) سميد هاشور : مصر في عصر دولة الماليك البحرية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة في الواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ؛ فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتيم ، صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذي^(١) .

فإذا أتم الصبي حفظ القرآن في المكتب ، احتفل به احتمالا كبيرا يسمى « الاصرافة » فتزين أرض المكتب وحيطاته وسقوفه بالحرير ، ويقوم أهل الصبي صاحب الاصرافة بزيئته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها نياب من حرير وعيائم ، على حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافة فتعطيه ما تقدر عليه من المال^(٢) .

النشاط الديني :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مفتصبون للحكم والعرش من أصحاب الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفي

(١) ابن الأخوة : معالم القرية في طلب الحسبة ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام الماليك مسلمين ، يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويمعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهم إذاً حكام صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .

وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن جزءاً كبيراً من النشاط الديني في عصر الماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي . ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر الماليك . وقد لجأ سلاطين الماليك إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة ، حتى أن الغامس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات . حتى يظهر التوبة من الرفض ، (١) . وفي الوقت نفسه حارب سلاطين الماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٥٦٦٥هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة ، وتحريم ما عداها ، كما أمر بالأيولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ، ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، (٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب ، وانبهم فيها سلاطين الماليك ، لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد ، هي إنشاء المدارس . وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) المقرئ : المواظ ج ٤ ص ١٦١ .

في مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة - قبل أى اعتبار آخر - مركزاً لتقديم الفقه السني . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين ، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب السنة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٢ (٥٦٤٠) ، وهي أول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الأربعة - الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي - واستمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - على أيام المؤرخ نقي الدين المقرئ (١) . وهكذا سار المالكي على سنة الأيوبيين في إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يحملوا منها أداة لخدمة السنة ومذاهبها . من ذلك ما أورده النويري من وصف للمدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ يقول أنه كان بها أربعة أواوين كل منها خاص بأحد مدرسي المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلي والشافعي بالإيوان البحري والحنفي بالإيوان الشرقي والحنبلي بالإيوان الغربي (٢) .

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي أكتسبت عصر الماليك طابعه الديني الخاص ؛ بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلامنا عن المدرسة والجامع في ذلك العصر ، قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة - كما يتضح من اسمها - استهدفت أولاً خدمة العلم وجاءت فيها الطابع الديني ضمناً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلاً ؛ وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد في التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانوياً ، لأن

(١) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٣٧٤ (بولاق) .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير — احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الديني في عصر المماليك تطلب إقامة دمالا يكاد يهصى، من المساجد، وبخاصة في مصر والشام. وقد قدر المقرئى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجدا، فى حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجد^(١). وفى عهد السلطان الناصر محمد، شيد السلطان الناصر وأمرأؤه ثمانية وعشرين مسجدا وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بافتتاحه فى حفل كبير^(٢).

التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة انصفت بها الحياة الدينية فى مصر على عصر سلاطين المماليك، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر فى ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق، حيث صادف أسلوهم قبولا كبيرا فى مصر بالذات . والمعروف فى التاريخ أن حركات العزلة والانقطاع للعبادة تقوى دائما نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتآلمهم لسوء أحوالهم، فينهجون نهجا دينيا ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها هسى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم^(٣).

(١) المقرئى . الخطط ج ٤ ص ١٩٠

خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ .

وكان المسلمون في عصر بالذات في القرن السابع الهجري يشعرون بسوء أحوالهم نظرا للأخطار التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ، فضلا عن تجمد الجماعات والأوبئة بين حين وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين ، فازدادت أعدادهم في سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم الفقراء ، إيمانا في لصق صفة الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر ، والرفاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها اللون الأسود وهكذا وأقامت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يخلف عليه السلطان في القلعة ثم يغادرها في حفل كبير وقد أحاط به أتباعه^(١) . فإذا ارتبط أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف ، وألزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء^(٢) وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك ، فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم ، ألا يبقى للمريد تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف في الملبس والمأكل حتى بالغ بعضهم في ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش بضعة أيام ، وإن كان بعض الصوفية بالغوا في التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش . وقد اشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين ، فخلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه ، وأزال

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشعراني : لوايح الأوار ٣ ص ٢٤٢ .

رموش عينيه ، حتى بدوا في صورة مخيفة أثارت دهشة من رؤهم من الرحالة المعاصرين (١) .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهي التي أطلق عليها خانقارات وربط وزوايا . ذلك أن سلاطين المماليك وأمراءهم عنوا عناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيّدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والأحوج يقدم للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتي الفقراء المغتربين ، كما كان يفضل الأعزب على المتزوج .

وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية من عرف بصحبة المشايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة (٢) وقد كوّنت كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها . بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفية في معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون في وصفها (٣) . أما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون كالمودع للنساء والأرامل ، أي ملاجئ لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أواخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس مما أثار استنكار المعاصرين (٤) .

(١) سعيد طاهر : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٩١ .

(٢) حجة وفتى بيبس الجاشنكير (المحسنة المرعية) .

(٣) المفريزي : المواظف ج ٤ ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) سعيد طاهر : المجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٣ - العصر المماليكي)

الظروف العباسية :

وثمة عمل خطير تم في عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالفسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسي أن يخلفه أحد أبناء بيته في بغداد ، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين في البلدان المجاورة أن يغتنموا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم ، مما يعود على من ينجح في ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعطفها وبيعتها (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبي - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في استمالة أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعلنه خليفة ، ويحظى من ذلك بعض المكاسب السياسية التي تمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث إلى صحبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فلما ذكر السلطان المظفر قطز في إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطي من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول في عين جالوت - بوصول أحد أمراء بني العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

(١) سعيد عبد الفتاح هاشور : الظاهر بغير من ص ٤٧ .

بغداد (١) . غير أن العمر لم يمهل فطن لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد .

وقد شاعت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في مصر بالذات . ومهما يقال من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس ، فإن هذه المشروعات لم تتحقق ، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية ، وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى (٢)

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس - وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي - وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه . وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام في خدمته وتعظيم حرمة ، كما أمره أن يرسل معه حجابا إلى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسي دمشق فصار بأوفر حرمة إلى جهة مصر ، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حائلا ، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل ، لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهودة ، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان د في مكان جليل قد هيء له بها ، وبالع في إكرامه وإقامة ناموسه ، (١) .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاعة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، في حين د جلس السلطان متأدياً إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربان وحادم من البغاددة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً د على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها (٢) . وبعد السلطان بايع جميع الناس د على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بلقب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسي الجديد ، فقد قام بدووه بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا في نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعى في الحكم بعد أن غدوا متمتعين ببيعة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفي يوم الجمعة التالى مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ودعا في الخطبة الملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك وثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة^(١) . وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه في هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصعبه السلطان للنزهة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة الملك الظاهر في اجتماع عام وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان والديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريّة والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفترات غورا ونجداً . .

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهى حبة بنفسجية اللون وحمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس وأنجه في مركب كبير نحو القاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح ووضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وأعواد نصره^(٢) . على أن هذه المظاهرة الضخمة التى صحبت لإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ،

(١) المرجع السابق ٢

ابن لياس : بدائم الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٢) المهریزی : السلوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحل دون تشكك بعض المؤرخين في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله .
من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول في حوادث سنة ٦٥٩ هـ : « قدم إلى مصر
جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر
بالله . » كما يقول أبو الفدا في موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة
الأسود . » أما مفضل بن أبي الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر
بالله الأسود » (١) .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء
العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد
سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة
التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة
العباسي أن أصبح شبه محجور عليه في القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسؤولين
في الدولة دون إذن السلطان . وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه
حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى
السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما
هذا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على
أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد (٢) . وقد عهد المقرئ
عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة إن خلافته « ليس فيها
أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٣) .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا في عصر دولة المماليك
الجرأة الخروج عن عزلتهم والمشاركة في الأحداث السياسية المحيطة بهم

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣ .

مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) المقرئ : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذى اقيه الخلفاء العباسيون منذ احياء الخلافة العباسية فى القاهرة على أيام بيمرس ، أثر فى تحريك الخلفاء فى الدولة النافية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك فى الثورات التى طفع بها عصر المماليك الجراكسة^(١) . وكان أن تحققت . مطامع الخلفاء العباسيين فى ذلك العصر عندما ولى الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م (٥٨١٥) ؛ وهى حالة فريدة من نوعها فى عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن إلا سداً للثغرة ، حتى ينبجلى الموقف بين الأميرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التى وضعه بها فيه .

(١) إبراهيم طوخال : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

الفصل الثاني عشر

نظام الحكم والقضاء

النظام الإقطاعي:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معاني الكلمة ؛ فقسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء . وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة ، في حين أخذ المماليك السلطانية الأراضي الأقل خصوبة ؛ أما أراضي الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والتركمان (١) .

وكان الإقطاع أمراً شخصياً بحيث لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً في المقطع أن محل محل السلطان في أن يتمتع بفلات الإقطاع وإيراده فحسب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يستولي على إقطاعه فوراً (٢) . أما المناسبات التي تجري فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد في الحكم ، فيجري حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منفع وزيادة وإفلاس - لمكافحة الانحلال ومعاينة الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجنود أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية ٣ قدكتور زيادة .

ويستبعد غير القادرين ويوفر لإقطاعاتهم ليوزعها على الأكفاء القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أو شق قناة أو ترعة ؛ قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات^(١) . على أنه حدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحاً شاملاً قياسها وحصرها في سجلات ، وتقدير قيمتها وخصوبتها . وتشبه هذه العملية في الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها في عصر المماليك إعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية في عصر المماليك ، الروك ، وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أما الروك الحسامى فقد فقدتم سنة ١٢٩٧ م (٩٦٧ هـ) واستغرق لإجراؤه مجهود ثمانية وخمسين يوماً ولكن الأمراء والجنود لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له لإقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، «وبان في وجوههم التغيير لقلة العبرة»^(٢) . وهكذا ظل الأمراء والجنود في حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م (٧١٥ هـ) ، فاستغرق لإجراؤه خمسة وسبعين يوماً ، وترتب عليه زيادة أنصبه الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر في الروك الحسامى^(٣) .

وفي جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذة الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطباقي إلى ميدان الفروسية^(٤) . فإذا وقع اختياره عليه

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العيني : مقصد الجان ج ٢٣ في ١ ص ٥٤ .

المهریزی : المواظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

ليمنحه إقطاعاً أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال »
مضمونها حين فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد
أن يرفع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد
المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد احتص السلطان بإصدار مناشير
الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمراءهم .
كذلك روى أن يعين في منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولأجناده
الثلاثين (١)

أما الأمراء والمماليك المسنون الدين لا يقوون على تحمل تبعات الإقطاع ،
فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها
جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئ أنه جاء وقت
أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها إقطاعات
الأمراء والأجناد » . فلما رآك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من
الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع . وصارت الإقطاعات كلها أراض
وبلاداً (٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصري ألا يكون
الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة
جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسماً بين عدة مقطعين ،
لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لندويه
المسمى « القاصد » . وفي جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة
له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز المظلوم
أن يرفع أمره إلى الديوان السلطاني أو إلى السلطان في دار العدل (٣) .

(١) المقرئ : المواظ ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ .

المقرئ : المواظ ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٣) سعيد مشهور : المجتمع المصري ص ٢٠ - ٢١ .

على أن النظام الإقطاعي لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك ، إذا لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذي اعتري الدولة وأجهزتها في أواخر عصر المماليك . وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة . فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل ما لا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذي أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش في عصر المماليك يعتمد في نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانحيار دعائمه (١) .

السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعي ، وهو في الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها . وقد تلقب سلاطين المماليك بألقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » ، و « قسيم أمير المؤمنين » . ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التسرع بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم ، في حين يلقى اللقب الثاني ضوءاً على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسي في القاهرة ، بوصفهما شريكان في حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب السياسي والحربي ، والآخر يمثل الجانب الديني . على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا في ألقاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التي اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا السلطان الأعظم العالم العادل ، وذاك السيد الأجل الكبير ، وهكذا .

(١) السيد الباز العربي : الإقطاع الحربي بمصر ص ٢٢ .

والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً
مكنته قوته وشخصيته وكثرة ممالكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى
منصب السلطنة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في الهيمنة
على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار
من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ،
ويباشر سلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين (١) .

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها سلطان المماليك أنه
استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك
استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم
في مشور - أى مجلس المشورة - الذى تألف برئاسة السلطان وعضوية أتابك
العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المشين
وعدد من أربعة وعشرون أميراً . فإذا كان للسلطان قاصراً تولى رئاسة هذا
المجلس الوصى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم
بنفسه في هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيئته
وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت
اختصاصات مجلس المشورة في عصر المماليك ، فنظر في شئون الحرب
والصلح ، وناقش شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى في الدولة .
على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ،
أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً
مطلقاً (٢) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

القاغندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وكان السلطان يقيم ومعه أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة في عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان لحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور الخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومواليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخالص^(١) . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائماً فأقاموا فيها العمارات الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، بما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذي تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسطة وصدقات وكل ما تحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المثمين له مساعدون وغللمان عديدون^(٢) . ومن هذه البيوت الشرايينااه - أى بيت الشراب - ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التي يحتاج إليها السلطان ؛ والطبقت خانااه وفيه أنواع الآوان والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدي والوضوء والاستحمام ، والفراش خانااه وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خانااه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خانااه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطبل خانااه وبه الطبول والأبواق وتوابعها ، والخواجج خانااه ويختص بالأسطة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطاني^(٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلائشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلائشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ .

البربرجى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٦ .

النظام الإدارى :

بلغت النظم الإدارية فى دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والاحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان فى شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، بل كان السلطان الثانى ، على قول القلقشندى (١) ذلك أنه اشترك مع السلطان فى إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب «كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الأمري» (٢) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنة على نوعين فى عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته فى مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، فى حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السلطنة فى نيابات الشام — وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصند والكرك — فناب كل منهم عن السلطان فى وحدته الإدارية ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٢ .

(٢) العمري : التمرىف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ — ٩٩ .

واعتبر ممثلاً له في إدارتها . وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان - أو نائبه في مصر - في المسائل التي لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها ، ولما كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائماً من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية^(١) .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكي ، وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصي ، ثم أصبح من ألقاب التشريف التي تخلع على كبار الأمراء ، حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة تتمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة المضاربة بين كبار الأمراء^(٢) . ولا أدل على نفوذ الأتابكة وقوتهم من أن كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوتهم . أما إذا ولي الحكيم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان القاصر محمد في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالآتابك إلى إعلان نفسه سلطاناً سنة ١٢٩٤^(٣) .

أما الوزير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومن الواضح أن نفوذ الوزير في دولة المماليك ضاهل عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

(١) الخالدي : كتاب المقصد الرفيع ص ٩٠ — ٩٣ (مخطوط) .

القلقيشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها .

Wiet : L'Egypte Arabe pp . 366—398 .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) علي إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة . ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرموسة ناقصة » (١) ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأقاليم أو الممتممين وأطلق عليه وزير الصحبة ، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط (٢) . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تُلغى في بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك ، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شأناً ، وإلى القاهرة الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة وتوصيتها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن وإذا شب حريق في العاصمة بادر الوالي على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الوالي للقضاء عليهم ، وإذا تفشى شرب الخمر أسرع الوالي إلى مناطق عصر الخمر في القاهرة لمعاينة أصحابها ومصادرة خمرهم ، وإذا فشا تعاظم الحشيش كافح

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٦ .

الوالى مزارع الخدراة بحجة باب اللوق وأحرق منتجاتها^(١) . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة ورجالها فى صورة حركة دائمة ، فى الهاريطوف معهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافئته ، وفى الليل يتصيد السكارى والصوص والعابثين للنبض عليهم ومحاكمتهم . هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلاقها ليلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد . ونظرا لأهمية وظيفة الوالى وخطورة مسئولياته ، فإنه كان لا يستطيع النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوف من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك^(٢) . وقد ساعد والى القاهرة ولاية آخرون ، أهمهم والى الفسطاط ويشرف على مصر (الفسطاط والمسكر والقطائع) ، ثم والى القراة والإشراف على شئون القراة ومنع المساخر فيها ، وأخيرا والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلاقها فى المساء^(٣) .

وثمة مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل النيابات الشامية ؛ هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٢٦٥ وأصبحت ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثر عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسما خاصا من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية فناسب ما للثغر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تهويل مدينة الإسكندرية سنة ١٢٦٥ بالذات من ولاية يحكمها والى إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الانتباه ؛ وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلا عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته السلبيية الشهيرة على الإسكندرية ،

(١) المقرئى : المواظى ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٨ .

(٣) سميد هاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٢ .

أثر في هذا التحول (١) .

لما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هي القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والفرية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفود والفسراوية، وحكم كل منها والى ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب في زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة، هو تخوفهم من كثرة الأعراب وما يقومون به فيهم من فتن وثورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها هي الجيزة والفيومية والاشمونية والახميمية والاطفيحية والبهنساوية والاسيوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملاقا بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . وبلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا في عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية، أما في دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا . وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف « والى الولاة »، وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، فى حين كان أرباب القلم

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ٤٠٥ ج ٤ ص ٢٤ ٢٥ ج ١١ ص ٤٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين — كبارهم وصغارهم — لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في عصر المماليك ؛ وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءا من الطابع العام الذي اتصفت به دولة المماليك . وكثيرا ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون وأوهام ، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة ، وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

الدواوين :

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية في عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاوص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى في دولة المماليك ، وهي الدولة ذات الصبغة الحربية ، والتي اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . وافهم طبيعة عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكي تألف من ثلاثة طوائف أساسية هي المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم التلخشندي بأنهم « أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بمدرجة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

(1) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 86 .

(٢) التلخشندي : سيج الأعشى ج ٤ ص ٩٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احتترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتي الطائفة الثالثة التي تشمل عماليك الأمراء ، وهم الماليك الذين اشترى أمراء الماليك - كل حسب سمعته وورثته وإقطاعه - وتمهيدهم بالتربية والعناية (١) .

وأشرف ديوان الجيش في دولة الماليك على هذه الطوائف الثلاث التي تألف منها الجيش الماليكى . ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء . وبخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير في ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلقشندي ، وصار لكل أمير ديوان خاص ويحمل يسمى أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته عماليك جدد إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش في دولة الماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان - الذي عرف باسم ناظر الجيش - فكانت وظيفته أهم الوظائف في الدولة ، وكان يماونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شئون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجنود وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية . واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً الأمانة العامة والكفاية المطلقة (٣) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الماليك البحرية ص ١٤٥ .

(٢) السيد الباز المربني : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين الماليك ص ٦ .

(٣) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٦ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الممالك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء في عصر المماليك بناظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودخائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا يطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم^(١). وروى في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون «فصيح الألفاظ طلق اللسان أصيلاً في قومه وقوراً حليماً...»^(٢).

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولاً فأول، ويحضره بحكم منصبه — المميز التي يؤديها الولاية والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب. ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد البروتوكول والتسليم بهذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أو حاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته. بل إن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت في نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانه الشخصي المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندي صفحات كثيرة في كتابه صبح الأعشى. ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم «نائب كاتب السر»، الذي ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥.

هن ناظر الديوان في الرد عن المكاتبات الواردة في حالة تغيب الناظر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان (١). ويلى نائب كاتب السر في المرتبة كتاب الدست الشريف، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل، ويوقعون على الشكاوى والقصاص المرفوعة إليه (٢).

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، واشترط فيه الدارية الخاصة بالقائمين، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط في هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشتهر بحسن الخط على أنواعه وارتبط بكاتب السر في عمله موظف كبير اسمه الدوادار، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذى يختتمها بخاتم الدولة ويقيدها في سجلات خاصة (أرشيف)، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة في عصر المماليك، وكان اختياره دائما من كبار الأمراء (٣).

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء، هي إدارة البريد التى تولت ربط مختلف أطراف الدولة بعضها ببعض. وكان البريد على نوعين: برى وجوى، فالبريد كان بواسطة الخيل

(١) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٤ .

(٢) القلقشندي : صبيح الأعيان ج ١ ص ١٣٨ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠ .

الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٢١ .

القلقشندي : صبيح الأعيان ج ٥ ص ٤٦٢ .

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعيناب والإسكندرية ودمياط وغزة وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريدين وخيولهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء وماوى. ومن الواضح أن مهمة هؤلاء البريدين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين. وربما كانت هذه التعليمات شفوية ؛ ولذلك روى في البريدى ، أن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك عما فيها ، صدوقا بريثا من الطمع ، (١) أما البريد الجوى فيرجع الفضل الأول في تنظيمه إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد روى فى الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع . وكانت الرسالة توضح تحت جناح الحمامة أذيلها بطريقة خاصة ، فإذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلت إحداهما الطريق أو قتلت أو اترستها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ، بحيث إذا وصلت رسالة مع حمامة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان وعرضت عليه (٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات ، ولطه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حمامة من هذا النوع إلى البرج عرفوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبيعوها بها إلى البرج التالى ، فى حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .

أما الديوان الثالث فى الإدارة المالية فهو ديوان الأجباص (الأوقاف) ؛

(١) التلخيص : صبح الأعشى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) نظام حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ؛ كما يشرف على الأراضى والمقارن المحبوسة عليها . وكانت شئون الأحياس في العصر الأيوبي من اختصاص القاضى ، ولكن المماليك قسموا هذه الشئون إلى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمین وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمة ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية - ؛ ومنها ما اختص بالأوقاف الأهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالبا من أولاد الواقف ؛ ومنها الأحياس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدوا دار وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف في عصر المماليك على الحوانيت والمخانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة - كما كان الحال في العصور السابقة - وإنما اتسعت الأوقاف في ذلك العصر حتى شملت كثيرا من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمسابن ومصانع المسبج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختص بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقدا ، على حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

(١) المبريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ س ٢٩٦ (بولاق) ٩

الحالدى : المقصد س ١٣٢ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك ، س ١٣٤ - ١٣٥ .

أصنافاً مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يومياً ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهرياً ، أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقرئى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلام قدراً ، إذ صار له دأمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمراً عظيماً ، (١) لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصنحة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصير في بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢) .

وتفرع على ديوان النظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديواناً أطلق عليه « ديوان الخاص » ، للإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزانة السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو القب الذي حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣) .

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت سير الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون - وبخاصة القلقشندي والمقرئى - ، مثل ديوان الطواحين وبشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأهرام وبشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بهركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٤ (بولاق) .

(٢) المقرئى : القاموس ، بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٥ .

المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٣٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » في عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العماثر وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

القضاء والمظالم :

أما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضي القضاة الشافعي بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقرئ أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ، ثم يليه الحنفى فالمالكي فالحنبلي .

أما الجيش المماليكي فكان له « قضاة العسكر » ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة العسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعي والحنفي والمالكي ، وأحيانا كان يوجد قاضي حنبلي . وكان قضاة العسكر يحضرون

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة ، كما جرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، أملمته كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التي لم تقف عند حد الفصل في قضايا الأحوال الشخصية ، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون اليتامى والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا في المساجد وأحيانا في دور القضاء إذا وجدت . وعند افتتاح جلسة القضاء ، يتقدم المتقاضون أمام القاضي وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء . وكان يساعد القاضي عدة موظفين منهم الجلوازالذي يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة ، كما يقوم بتقديم المتقاضين حسب دورهم ؛ وربما حمل في يده عصا أو سوطا يضرب به كل من يحاول الإخلال بنظام الجلسة . أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب القاضي واستئذانه في دخول الزائرين عليه ، في حين قام الأعوان بإحضار الخصوم إلى المحكمة (٣) . وأدى ازدياد المتقاضين في ذلك العصر إلى صعوبة مهمة القاضي ، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون السجلات والعقود ويزكون الشهود . وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى والأحكام ، كما قام الترجمان بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين ، إذا كان هؤلاء لا يعرفون العربية (٤) .

(١) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٩٢ (بولاق) ٩٠

القلاشندى : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود عروس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٩ — ١٣٥ .

وكانت هناك محكمة عليا في عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، نفهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر في المظالم ؛ أى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تعقد برئاسة السلطان نفسه في يومى الاثنين والخميس غالباً من كل أسبوع . وكان السلطان في الوقت المحدد للنظر في المظالم يجلس في دار العدل - أو بعد ذلك في الإيوان - على كرسي من الخشب المغشى بالحرير ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفي والحنبلي . ويلى القاضي المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الخسبة (١) . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضي الحنبلي الوزير ثم كاتب السر . وهكذا استدير الحلقة ويقف وراء السلطان مماليك صفار من السلاحدارية والجدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً تقريباً ذرو السن من أكابر المثنيين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفاً . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادارية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها ثم تقرأ الشكاوى والنقص على السلطان ، فما احتاج منها إلى مراجعة القضاة مشاورهم السلطان فيها دورجع إلى ما يقولون (٢) ، وما نفاق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر في الباقي بما يراه . وعلى مر الزمن اقتصر جلوس سلاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لالتى سوى إقامة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودى أن أحداً لا يتقدم بشكايته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولاً ، فإذا

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

لم ينصفوه ذهب إلى سلطان ومن خالف ذلك عوقب (١).

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية في تلك العصور حتى أنه كان يحدث في كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضي يتصف بشيء من البطء لأنه يقوم على التروية والآفة والتثبت من صحة الوقائع، فإن عمل المحتسب قام على أساس سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٢). لذلك دأب المحتسب - ونوابه - على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموانين والمسايل والمقاييس والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات، فن وجدده المحتسب قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشريا بزائد، أو خرج من معبود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضغف منه الجلد (٣).

وتؤدي بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التي كانت ترفع على المذنبين في عصر المماليك. وأولى هذه العقوبات السجن في أحد سجون ذلك العصر التي وصف المقرئى بعنفها وبالظلام وكثرة الوطواط والروائح

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩

تاريخ ابن الفرات : ج ١ ص ١٧

(٢) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥

وجدير بالذكر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محسبين هم محتسب القاهرة وله التصرف بالحكم في القاهرة والوجه البحري كله؛ ومحتسب مصر (القساط) وله التصرف بمصر والوجه القبلي كله؛ ومحتسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على الثغر.

انظر القلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧

المقرئى : السلوك، ج ٢ ص ٤١٥

السكرية والقبائح الممولة، (١)، وبعد ذلك تأتي عقوبة التشهير والتجريس وهي أن يطاف بالمندب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ويزفه المنادون ليجتمع الناس حوله، وفي نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصر أعضاء المندب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه، أو خلع بعض أضراس المندب وأسنانه ودقها في رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه، أو إجلاسه على مقعد معدني محي بالنار وغير ذلك من العقوبات (٢).

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٩٨ - ١٠٠ .

الباب الثالث عشر

الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهي التي يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التي تتطلب دقة فائقة وعبقريّة راقية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقي الفنون في أي زمان ومكان إنما يرتبط ارتباطاً شديداً باقتصاد الحياة الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير - مثله مثل الرجل الفقير - يفكر أولاً في أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوعاً من الكماليات لا فائض لها من المال والجهد ؛ وإذا اضطرت ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض المآثر والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجتنب دائماً للبساطة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق غرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغني - مثله مثل الفرد الثري - يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائض أمواله فيتفنن في ابتكار الكماليات ؛ وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ في الإنفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه في هذه الحالة ومطمئن تماماً إلى أنه سيجد الجراء الأوفى ، وسيكافئ مادياً بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذي يترتب عليه رقي الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا في صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة انصاف بها

دولة الممالك هي الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة الممالك كانت همزة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ؛ الأمر الذى عاد على المجتمع المصرى — حكما ومحكومين — بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين الممالك مضطرين إلى إنفاقه فى شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغى ألا تغيب عن بالنا هي أن معظم حروب الممالك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . وتفيض المراجع المعاصرة فى شرح الأموال والغنائم التى غنمها الممالك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين فى الشام — وفى قبرص — أو الأرمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقرئى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن د قسمت النقود بالطاسات ،^(١) . ومهما يكن فى هذه الآراء من مبالغات فهي تفيدنا أن الحروب الواسعة التى قام بها الممالك لم تكن عملية خاسرة على طول الخط وأنها لم تستنفد جزءا كبيرا من الموارد الضخمة التى نعمت بها الدولة .

وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعمت بها دولة الممالك، هورق الفنون فى ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التى يخرج بها دارس تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، هي أن الحياة الفنية بلغت فى عصر الممالك بالذات أسنى درجات الرقى والروعة . وما زالت التحف الفنية الرائعة التى تزخر بها دور الآثار فى العالم والتى ترجع إلى عصر الممالك، فضلا عن المهار الممالكية الفائقة الحسن — من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها — تشهد برقى الحياة الفنية فى عصر الممالك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن نلقى نظرة عامة سريعة على أركان الحياة الفنية فى عصر الممالك لنذكر مدى أهمية ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ هـ

العصر في تاريخ الفن الإسلامى بوجه عام (١).

العمارة :

يقول الدكتور زكى محمد حسن : لا ريب في أن عصر دولتي المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبى في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ، فقد كان الإقبال عظيما على تشييد للمباني ، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة . كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من وجهات ومنازل وقباب وزخارف جصية ورخامية (٢).

ونستطيع تقسيم المباني في عصر المماليك إلى دينية ومدنية ، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس . وكان الجامع مربع الشكل عادة ، يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران ، وأكبرها إيوان القبلة . وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف . ومن أجل المباني الإسلامية في مصر والشام إطلاقا جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون ، الذي استغرقت عمارته ثلاثة أعوام انتهت سنة ١٣٦٣ أى بعد وفاة صاحبه بعامين . وقد جاء هذا الجامع في اتساع مساحته وروعة تصميمه وجمال زخارفه ، آية فنية يفخر بها الفن الإسلامى إطلاقا . وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحسنى (٣) ، الذى استطاع أن يجمع فيه بين الأساليب الشائعة في فن

(١) اعتمدنا في المرض التالى بصفة رئيسية على مؤلفات المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة ، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقا .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧١ .

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٢٥ - العصر المماليكى)

العمارة والزخرفة في عصره، ويعزجها على نمط جمل المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جميلة متماثلة . ولهذا المسجد منارتان عظيمتان في الجانب القبلي الشرقي، وكان المفروض أن يكون المسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى بأثنتين فقط بعد أن اهارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها . وامتازت المآذن في جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاقتهما وتوسط ارتفاعها .

ومن العمارات المالكية الجميلة قبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون، وهي المجموعة التي تمت عمارتها سنة ١٢٨٥ . وأجمل ما في هذه المجموعة القبة التي دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد، وهي تعتبر آية من آيات الفن الإسلامي، إذ أنها محاولة على أحسن ما الجرائيف ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف، أجزاؤها السفلية مغطاة بالفسيفساء الجليل^(١).

ومن أهم العمارات ذات الصبغة الدينية في عصر الماليك الجراكسة، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠، وقد روعي في تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجدا كبيرا وضرعا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وعائقاه لله وفيه، ولذلك اجتمعت فيه مختلف الظاهر العمارة الدينية . ويتألف المسجد في هذا البناء من محض يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي ينتهي شرقا بقبتين من خرفتين يتعارف بارزة تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب . وسقوف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية من الأجر، ومحاولة على عقود مرفوعة مدببة. أما خرف الخائقاء فهي كثيرة ومعظما فوق الإيوانات البحرية والقبلي^(٢).

كذلك يعتبر مدفن قايتباي بالصعراء الشرقية بالقاهرة من أهم العمارات

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٧ .

الباقية من عصر المماليك الجراكمة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وقبة . وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذى شخشيخة جميلة وحوله أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى يقع المدفن قبله ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة (١) .

أما المبانى المدنية فى عصر المماليك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذى يرجع إلى سنة ١٣٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم المدخل والقاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقفها المذهبة وبالفسقية الرخامية التى تتوسطها ؛ فضلاً عن وزرتها الرخامية الدقيقة وإبداع ما فيها من التنعف والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المدخل والقاعة الكبيرة ذات السقوف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفى هذا القصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومدخل وكالة قايتباى بباب النصر ، فضلاً عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذى لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام الملون . وجميع هذه البقايا وغيرها - مع قلتها - إلا أنها تشهد بسمر الذوق الفنى وروعة البناء (٢) .

الرسم والتصوير :

أما عن الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة فى الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ - ٨٤ .

لما فيهما من اتجاه وثني يرتبط بعبادة الأوثان . ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية في تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النبات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربي صالح للزينة والزخرفة بطبيعته ، فاستغل الفنانون المسلمون ذلك الخط في كتابة عبارات بالخط الكوفي الجميل على الجدران أو الأواني أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً عن تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم التي تشهد جميعها بمدى رقي هذا الجانب من الفنون عندهم .

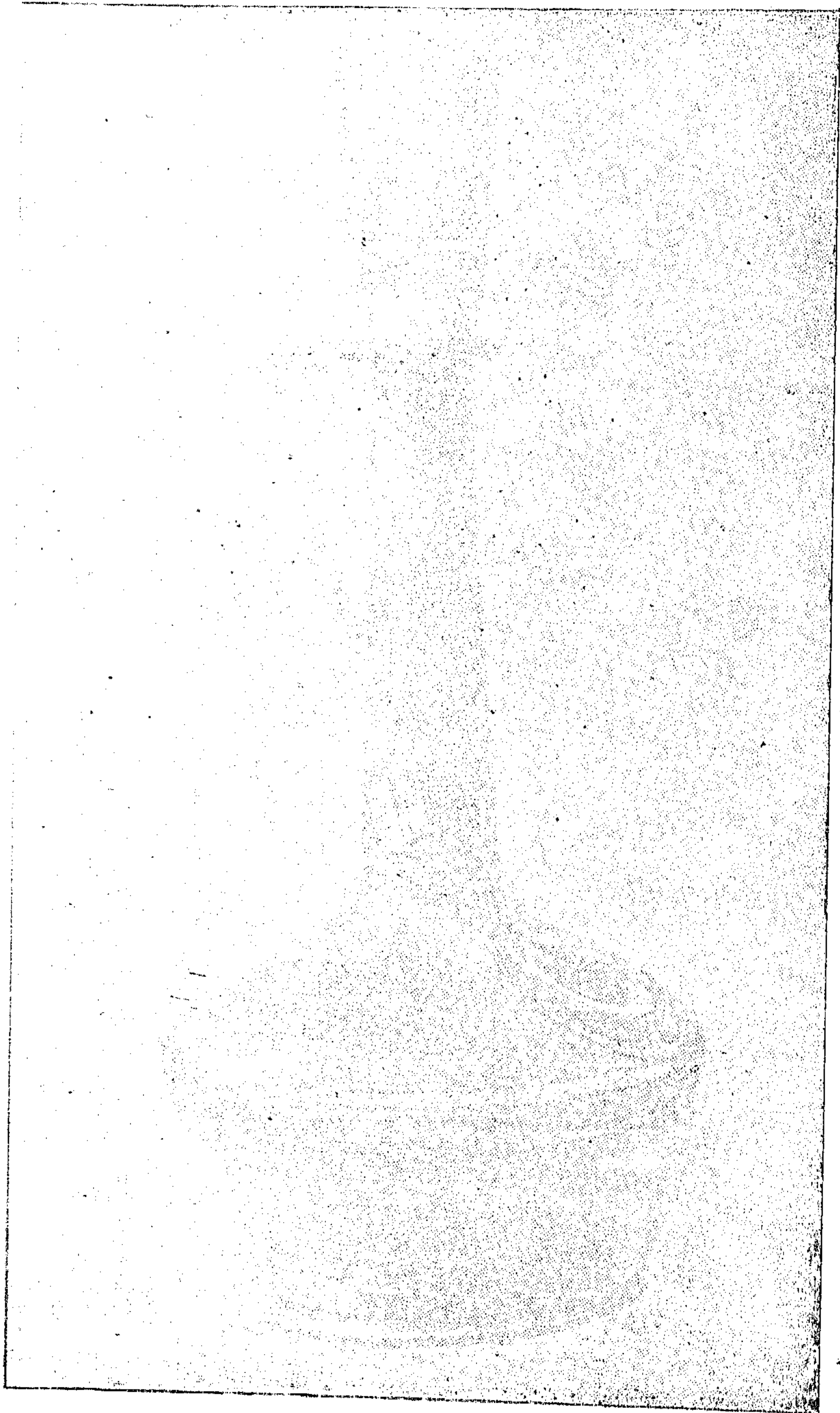
وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف وورقيها ، فضلاً عن أن هذه الرسوم انصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر للميلاد ، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير إلى أراضي دولة المماليك في الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضي كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلاً عن أن إحياء الخلافة العباسية في مصر ، جعل دولة المماليك قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن ثم امتازت التصاوير التي أنتجتها مصر والشام في عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد الأخرى التي حكمها التتار (١) .

ففي العمارة المماليكية نجد إيوانا المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفت
زخارف جميلة ، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلاً عن بعض الآيات

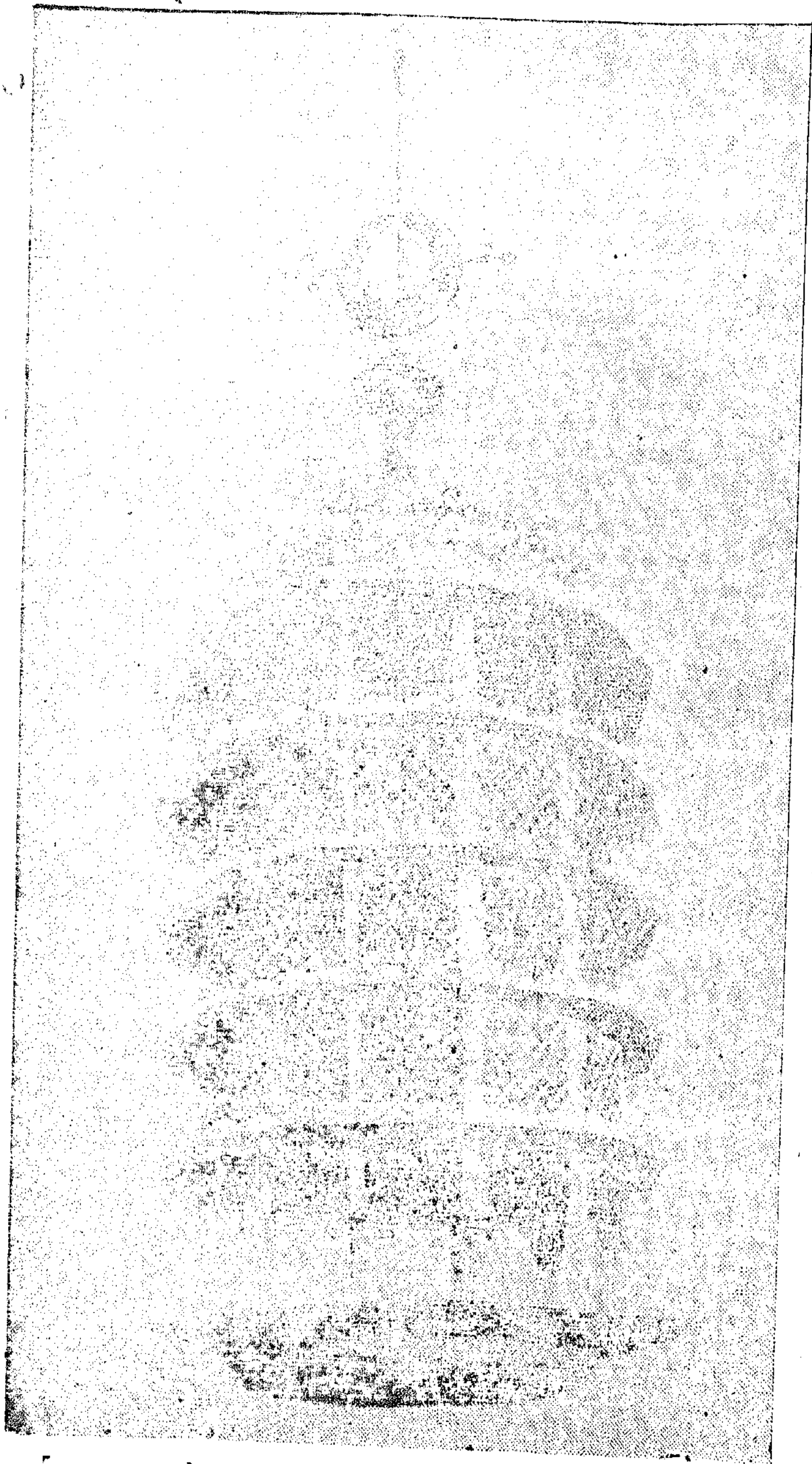
(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى في العصور الوسطى ص ١٦٥ .



قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر المماليك .
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش



إناء جميل صنع في الشام في عصر المماليك وهو من الزجاج الموه
بألوان المتعددة الألوان



تريا من النحاس باسم أحد أمراء المماليك وعليها اسم الصانع الذي
ذكر أنه أتمها في أربعة عشر يوما.

القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجميل المزخرف . كذلك عن الممالك
بزخرفة سقفوف مبانيهم بالرسوم المذهبة وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو
تكسى بالرخام الملون وكذلك الأرضيات أما واجهات المباني من الخارج
فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو مداميك أفقية بحيث تكون طبقة منها
صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التفوق في مجال الرسم والزخرفة في عصر الممالك على العمار
وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور ، فضلاً
عن أخلافة الكتب . أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً في الشام
ومصر في عصر الممالك ، ولشهد على ذلك كثرة الألوان التي لدينا والتي تمتاز
برسوم الحيوانات والطيور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية
الجميلة (١) . وبعض هذه الألوان عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحيط
بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية وورقات وزهور باللونين الأبيض
والأزرق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا
بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر الممالك ومزخرفة بالمينا
البارزة عن سطح الطلاء ، وبعض هذه الزخارف توامها عبارات دعاء بخط
السنخ أو رنوك مختلفة الأشكال كالنمر أو السبع أو النمر (٢) .

أما زخرفة النسيج في عصر الممالك فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة
من الروعة في عصر الممالك وأجل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية
والتي ترجع إلى عصر الممالك مصنوعة من الحرير ، وانخذت زخرفتها شكل
عبارات مشعل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ولعمة مخلدة »

(1) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near
East, p . 65 . (1944) .

(2) زى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتماوير الإسلامية ص ٤٢٣ — ٤٢٤

و السلطان العالم، و دوعن لمولانا السلطان الملك الناصر، و دالله، . وكانت هذه العبارات في النسيج تحيط بها زخارف أخرى تمثل أوراق الشجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالاً أو بعض السباع (١). كذلك يوجد بمختلف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك كتبت عليها عقود زواج، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود (٢).

والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت في عصر المماليك، فصنعت في ذلك العصر كثير من الصناديق والأثريات والطاسات والأواني والكراسي المعدنية وغيرها . وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة . وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفي أو خط النسخ، مثل: عن لمولانا السلطان...، ودالمقر العالي المولوى الأميرى الكبيرى الغازى...، ود الملك الأشرف قايتباى عن نصره...، وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة في مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك، أو رسوم آدمية كرسوم صياد يستخدم الباز (٣).

وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه في عصر المماليك في ناحيتين، الناحية الأولى هي ناحية الزجاج والبلور، والناحية الثانية هي أعلقة

(١) انرجع السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤

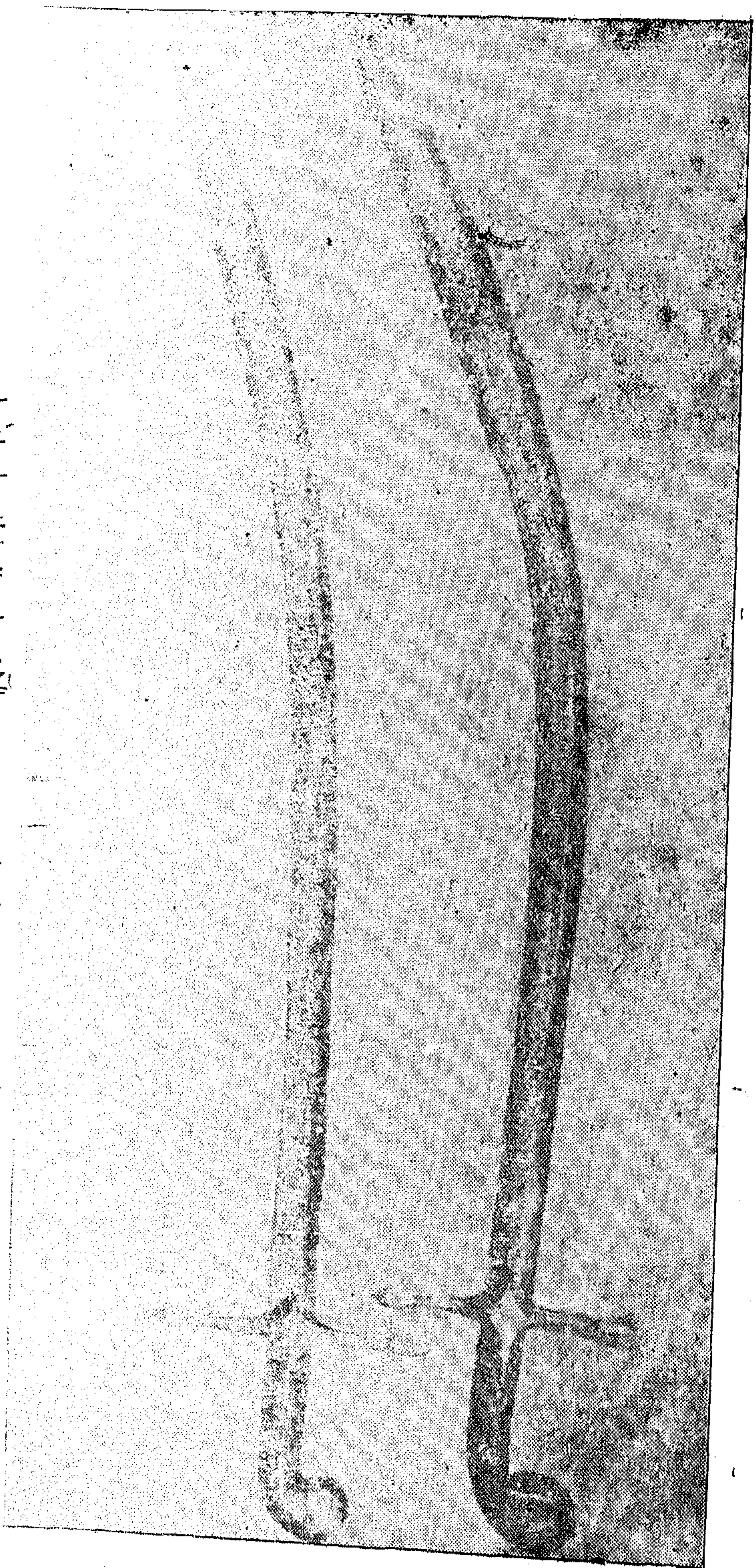
فنون الإسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٨ .

(٢) سعاد ماهر : عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها .

(٣) Wiet : Objets en Culvres, p . 272 &

زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ - ٤٦٥ .

سيفان احمدها باسم السلطان قانقوه الغوري والأخ السلطان طومان باي
وهما من المصلي الرزين بزخارف وكتابات مسكاته بالذهب





مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهى من الزجاج المموه بالمينا
وعليها كتابات من القرآن الكريم بالخط النسخ

السكرتير أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكاوات الباقية لدينا من عصر المماليك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومن خرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عز لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عز نصره » أو آية قرآنية مثل « قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ، أو د الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » . وحول هذه الكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللولس والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم زخارف وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور^(١) .

وأما عن زخارف أغلفة السكرتير ، فمعظمها في عصر المماليك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارعة . ذلك أن جلد السكرتير في عصر المماليك امتازت بزخارف هندسية متشابهة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضبوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضبوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريقات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذي نجد منه عدة نماذج في متحف المتروبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر المماليك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين بواطن جلود السكرتير بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحياناً أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن في أوائل القرن الرابع عشر^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يختص القرآن الكريم بحجز كبير من عناية الفنانين في ذلك العصر ، فعنوا بتذهيب المصاحف وتفننوا في زخرفة أغلفتها ، الأمر الذي

(1) Wiet : Lampes en Verre émaillé, pp. 67—100 &c.

زى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية من ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٢) ديمانند : الفنون الإسلامية من ٨٧

(٢٦ — العصر المماليكي)

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتي يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك الذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو في غلاف المصحف أو فاتحته بحسب ، وإنما تظهر كذلك في سائر صفحاته ولا سيما في فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتب المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩ م (٨٧٧٠) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة في غرة هذا المصحف ساحة من مربع ، فوقه وتحتة مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه . أما الشريطان العلوي والسفلي في الساحة ، ففيهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات مفصصة المحيط ، وتضم هذه الجوامات كتابة بالخط الكوفي من سورة الشعراء . وفي المربع الأوسط في الساحة إطار يضم ثمان مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . وبعد الإطار مربع داخلي قوام الزخرفة فيه طبق نجمي كامل الهيكل ، غني بالرسوم النباتية الدقيقة في النجمة التي تتوسطه ، وفي الحشوات السداسية الأضلاع المورعة في نظام إشعاعي ودائري حول النجمة . وفي الإطار الخارجي فروع نباتية ووريقات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين بحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربي جميل ، وذهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربي . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل محفوظة في المتحف القبطي ونسخة في دمشق سنة ١٣٤٠ ، أي في عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصصتان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريقات فوقها في المنطقة العليا بالخط الكوفي « الإنجيل الطاهر » ، وفي المنطقة السفلى « المصباح الزاهر ينبوع ... » ، وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفي وسط كل منها رسم صليب اتخذ عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والوريقات الدقيقة ، وتحصر هذه الأشكال بينها شكلا نجميا مؤلفا من معينين متداخلين وفي وسطه رسم وريدة . وحول هذه الأشكال جميعا وفي إطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجردة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسيقان الواقفة في الإطار الخارجي والتي تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة في ذلك المخطوط لا تختلف في أسلوبها الفني عن زخارف الصفحات المذهبة التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا في الرسوم المذهبة وليكنها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامي^(١).

النحت والحفر :

أما فن النحت في الحجر والرخام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ، فإن أهم ما تتصف به هذه المنشآت هي الزخارف والنقوش الفنية التي تحلى جدرانها وسقوفها ، فضلا عن المقر نصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمنحوتات الجصية والحجرية في الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا غائرا ، واقتصرت في أغلب الأحيان على الأشرطة والألواح المنقوشة التي زين بها المباني حسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التي مازالت موجودة في مسجد الطاهر بيهس ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف في عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التي تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثالا

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ - ٥٠٨

رائعاً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر^(١).

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منجوتة نحتاً دقيقاً . ويوجد بدار الآثار العربية زير من الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر للميلاد ، و سطح الزير مزين بزخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي وفي أسفله عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي نراه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباحاً متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقتان ومدببتان وعينان ملوستان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع رمزاً له^(٢). كذلك تجلي فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الغنية بزخارفها النباتية ، فضلاً عن الشبايك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك ، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخزانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المراوح الفخيلية والفروع النباتية والوريقات ، فضلاً عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشربة رفيعة من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمناً وأندر وجوداً كالآبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يزخرف بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٣٢ - ١٣٣

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ١٣٢ - ١٣٣ ،

في عصر المماليك صناعة مشربيات التوافيق من الخشب المنحروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصري في ذلك العصر . أما الخزانات والدكاك والكراسي ؛ فيوجد منها عدد كبير بدار الآثار العربية وكلها تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وسحر الذوق الفني^(١).

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر في زخرفة الأبواب والمنابر . وتحتوى المتاحف الكبرى في أوروبا - فضلا عن المتحف الإسلامي بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التي ترجع إلى عصر المماليك^(٢).

الفنون الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التي يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجليل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقي الصناعة في عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التي ظهرت فيها مهارة الصانع وسحر ذوقه الفني في ذلك العصر .

ففي صناعة الخزف بلغ الصانع في عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أنتجوا لنا أنواعاً رائعة من الخزف أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبي وغزال ودعين والامتاذ المصري وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام من ٤٦٢ - ١٢٤

(٢) ديمانيد : الفنون الاسلامية من ١٢٢ - ١٢٣

من الفخار المطلي بالمينا ؛ وعجينة هذا الفخار ماثلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يعلوها دهان بالمينا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البني ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة في بيوت الأسراء .

وفي صناعة النسيج أنتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التي أشار إليها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك . وانصف السجاد المصري في ذلك العصر بجمال ألوانه ومتانة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما في صناعة الخشب فقد أبدع النجارون في صناعة التحف الدقيقة مثل المنابر والدكاك والكراسي والحوامل والصناديق والخزانات وغيرها ، وظهرت مهارة النجارين في ذلك العصر في خراط الخشب وتطعيم مشواته بالعاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفصيفساء تتألف غالبا من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصر في عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت في ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها غلب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة من الدقة تدل عليها مخلفات ذلك العصر من أبواب وشمدانات وكراسي وطاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتلصيق وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج لاذ صنعت مكابيات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، وعمود بالمينا . وأبدع نماذج لهذه المشكيات صنعت في الشام ومصر حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلاد ، وبالإضافة إلى المشكيات العديدة صنعت

فى ذلك العصر كؤوس وقنينات وآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها فى ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر الممالك كان عصر نشاط فنى ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتقت فى ذلك العصر إلى أسى درجات الرقى والاتقان .

والحمد لله رب العالمين

كشاف

شرح أهم المصطلحات الواردة في مراجع العصر المماليكي

(١)

الآبازرة :

تجار البذور .

(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤)

أتاك (أطاك) :

مقدم المسكر والقائد العام للجيش المماليكى .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨)

أجناد الحلقة :

محترفو الجنديّة من عمالك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب
فئات المماليك إلى الجيوش النظامية فى المصور الحديثة ، ومرئياتهم
من ديوان الجيش .

إنخوان سلاز :

وظيفة بالمطبخ السلطانى يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى
السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ
السلطانى ، وهو يقوم مقام المهتر فى غير المطبخ من البيوت
السلطانية .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة
يقصد بها الحريم السلطاني . والآدر كذلك من ألقاب التشريف التي
تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من عليّة النساء
دون ذكر أسمائهن .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ،
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ - ١٢٢)

الادماء في الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدئ في الصيد لا يصير في زمرة هواة الفن
إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه
ادعى لفلان أي انتسب إليه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣)

أرباب الخيال :

(انظر الخيال)

أرباب الضوء (الضوية) :

الأشخاص المكافون بأعمال الإضاءة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أرباب الملعوب :

أصحاب الملاهي المعروفة من المخاططين بالسكباش والمناقرين
بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمثاقفين والملاكمين والمشاهكين ..
والقرادة والدبابة الذين يلعبون بالقرود والدب ... ،
(المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢) .

الارتفاع :

ما يتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى
ما يتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .
(المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ ، ١١١)

اسباسلار (اسفهملار) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمراء الطبليخاناه فى عصر المماليك ، على
أن هؤلاء الأمراء لم يلبثوا أن أهرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا
أن العامة يطلقونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ - ٨)

الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت
السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والفلمان . وله
مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من
النفقات والكساوى وما يجرى بجرى ذلك من المماليك وغيرهم .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ حاشية ١) .

أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح المماليكى على السيد الذى اشترى المملوك
بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية
— التى تربط المملوك بأستاذه — من أقوى الروابط فى نظام المماليك ،
حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أستاذتهم ، فيقال مثلاً يبير من البندقدارى
نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

استيفاء الصحبة :

(انظر مستوفى الصحبة) .

الاستيثار :

السجل الحكومى ، الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأفلام وغيرهم ،
مياودة ومشاهرة ومسانمة من الرواتب ... ،
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٦) .

الأسطول :

بمجموعة مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد
فقط . والأسطول هو العسكرى الذى يعمل فى البحر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧) .

أسلى :

وجمه أسامة . ويقال أيضاً مسلماً وجمعه مسالمة أو مسلة . ويقصد
به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها القلقشندى
فى الترتيب بعد نيابة السلطنة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً
ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، وإن
كان من الثابت أنه تولاهما عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن
صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(القلقشندى : صبح الأعيان ج ١١ ص ١٥٣ - ١٥٥ ،
المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١)

أشكر لاط :

نوع من القماش أحمر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أصحاب الأرباع :

الأرباع جمع ربع ، وهى أقسام أو أحياء المدينة الآهلة ، وأصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلا .

اصطبل :

مجموعة من المباني يبنىها الأمير المملوكى لسكنه وسكن أسرته ومواليكه وخيوله .

الأطلاب :

الحرس الخاص لأمراء الممالك ، ويحملون سلاحا كالأجناد .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١ : ص ٢٩ حاشية ٢) .

الأطلس الخطائى :

نوع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمال الصين .

(Dozy : Dict. Ar.)

إقامة :

وجمعها إقامات ، ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥) .

أكاديشن :

وجمعها أكاديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اصطبل السلطان أو الأمير
ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .
زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٣٨ حاشية ٣) .

أمير جاندار :

(انظر الجاندار) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويمتد أصحابها من كبار الأجناد .
كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب
القشريف .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٨) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك
كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ج ٥ ص ٤٦١) .

أمير طبلخاناه :

مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية ، صاحبها
يلي أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لأحقية
في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المؤمنين . ويطلق
على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته
أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير عشرة :

مرتبة حرية يكون في خدمة صاحبها عشرة ماليك . ويكون صغار
الولاية من طبقة أمراء العشرات .

أمير علم :

هو الذي يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية، وبشروط
فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من الرماكب السلطانية.
(الفقه شندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦ - ٤٥٨)

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب
السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت
مقدم على ألف جندي من أجناد الخليفة في وقت الحرب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما كان
يتحدث على الأطباء والسككاليين ومن شاكلهم .
(الفقه شندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥)

الأمراء السلطانية :

الخازن والشمس التي تخزن فيها الفلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح
إلا في حالات الشدة والمجاعات .
(تحليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ - ١٤٣) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاق أو أوجاق ، وهى فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤)

إبلجى :

وجمها إبلجية ، السفير أو المبعوث .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ب)

باب سر لطيف :

هو الباب الذى يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام فى الحفلات مثلا أو عند التنخف فى حالة وجرد حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦) .

بابا :

وجمها بابية ، وهو لقب عام لجميع رجال الطاشت خاناه ممن يتعاملون فى الفسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكانه لقب بذلك لأنه لما تعامل ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته ، أشبه بالآب الضعيف .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠)

البادهنج (باداهنج أو بادنج) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذي يوجد وسط المبنى للتزوية (المنور
أو الشخصينة) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

(Dozy : Dict. Ar.)

البازدار :

هو الذي يحمل الجوارح والطيور المعدة للصيد على يده .

(القلقةشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩) .

بازهر (بازدهر) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الباشورة :

وجمعها بواشير ، وهي سد من القراب لمنع وصول الخيالة والرجال

والسهم إلى موضع المحاربين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤)

البرالية (الممالك ...) :

الممالك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم الخرجية

أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية .

(القلقةشندی : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦ ،

المقریزی : المواظ ج ٢ ص ٢١٧) .

البردار :

هو الذي يكون في خدمة مباشرى الديوان في الجمل ، متحدثاً على

أعوانه والمتصرفين فيه ...

(القلقةشندی : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

(٢٧ — العصر المالكي)

اللوك :

ثقل المسافر ومتاعه .

(كترميرج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧)

بركستوان (بر كسطوان) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥) .

الهر كيل :

مرتاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكية نوع من السفن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعه بثمرث ، العبادة من الصوف بلونه الطبيعي .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشتكى :

نوع من الخمر نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعهما بشاخين ، وهى ما يطلق عليها اليوم الفاموسية المزركشة

أو دابر السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون

حول الغرفة كلها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البهمة دار (البهمة دار) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

بطل :

وجمها بطلون ، أى الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة
ورؤسائها وإقطاعياتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراراً
إلى الاحتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الإنزواء والابتعاد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .

البطسة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة
من هذا النوع كانت تتسع لعدد كبير من الجنود يصل إلى نحو
سبعائة .
(النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٣) .

البخاطق :

قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان
يصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو من السنباب .
(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

البقط :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يحمل
إلى مصر كل سنة .
(المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩)

بقيار :

بجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، نوع من العمام السكار كان
يلبسها الوزراء أصحاب القلم .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤) .

البكة :

المشبك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بليق :

وجمعه بلاليق ، نوع من النظم الخاص بالأغاني الشعبية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطهير الحمام . وكان البندق يرمى بالاقواس ثم صار يرمى بالمزاريق والآنايب عن طريق ضغط الهواء من مؤخر الأنبوب . والبندقانيون هم صانعو البندق .

(ريدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٣) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨ .

السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤)

البواردى :

وجمعه بوارديون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التليح .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١) . ويفهم من بعض كتب

الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة

بالصلق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .

(ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٦) .

البواقى :

ما يتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين من مال الخراج .
(المقريرى : المواقظ ج ١ ص ٨٢)

بيدر :

وجمعها بيدور ، الموضع الذى تدرس فيه الغلال .

بيضة :

وجمعها بيضى ، خوذة من الحديد يلبسها الجندى لوقاية رأسه ، وسميت
كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البيكار :

وجمعها بياكه ، الحرب عامة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بمارستان :

(انظر مارستان)

(ت)

التجريس :

هو أن يذهب المذنب فى طارقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه
ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً فى نهاية المطاف .
(انظر التفسير والتوسيط)

التمتانية :

القميص الذى يلبس تحت الملابس ، وعكسه القوقانية .
(Dozy : Dict. Vet. .)

تفت :

مقعد : وتخت الملك (مرير الملك) منبر من رخام يصدر إيرا
السلطان الذى يجلس فيه .

تفريج (الجوارح) :

تدريب الجوارح .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢) .

تخليق (المقياس) :

التخليق هو التطير بالرائحة العطرية المسماة (خلوق) ، ومعنى تخليق

المقياس تطيره ومسحه بالزعفران عند وفاة النيل .

(القلقشندي : صبح الأئشى ج ٤ ص ٤٧) .

التذرع بالسخام :

تأطبخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفهم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً
للحزن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤) .

تذكرة :

وجمعها تذاكر ، مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه ونصاده

لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند

الجهات التى يقصدونها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥) .

التراوى :

الأطفال من أسرى الحروب .

(المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٩٤) .

الترسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لمقوبة
شخص بوضعه تحت المراقبة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية هـ) .

التركاش :

الكنانة أو الجمعة التي توضع فيها الثياب .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التسمير :

حقوبة تقضى بتمرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على
شكل صليب ، وتندق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات
خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات .

التشهير :

حقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في
المدينة ليظهر ، وقد تزفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس
حوله ، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه تشاهير ، وهي الأثرطة التي توضع حول صدر الحصان .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التصفيح :

إحصاء البيوت والمقارنات لأجل فرض ضريبة عليها ، والتقويم
تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ حاشية ٢) .

تعبية :

وجمعا تعابى ، أى ثياب أو قطع من قماش .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

تفصيلة :

نوب .

التقليد :

المرسوم المرفوع من السلطان لتعيين شخص فى وظيفة كبيرة .

التقويم :

(انظر التصفيح) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء فى العصر المملوكى ، غير معروف
وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بغاوى :

نوع من الخمور نسبة إلى الأمير تمر بغا .

التوسيط :

حقبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون
الضربة قوية تحت المرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهال
أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض .

تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .
(زيادة : المقریزی ج ١ ص ٩٢٣ حاشية ١)

(ج)

الجاهشسكير :

الأمير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير
خوفاً من أن يدم عليه فيه سم أو نحره .
(القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجمالية :

وجدهم اجوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم
كل سنة .
(القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب
ج ٨ ص ٢٢٦)

الجاليش :

راية عظيمة فى رأسها خصلة من القمير تحمل فى مواكب السلطان ،
لاسيما المواكب الخاصة بالحرب . وكان المماليك يطلقون اللفظ أيضاً
على الطليعة من الجيش .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧
ص ١٠١) .

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الرائب المربوط لظهر أو أكثر .

(Dozy : Spp. Diet, Ar.)

الجاندار :

الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٥٩)

الجتز :

مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مقلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جرانجى (جارحى) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهى آلة حربية تستعمل لرمى السهام والنفط

والحجارة ويقال لمستخدمها من الخند جرخى .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١) .

جريدة :

فرقة من المسكر الخيالة لإرجالة فيها . ويقال ركب السلطان

جريدة .. أى ركب على وجه المرأة دون أن يصطحب معه أثقالاً أو حملاً .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨) .

جفت :

وجده جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة في الحجر على شكل
إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإيوانات .
(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢
تحقيق ٥٨)

الجفته :

وجدهما جفتاوات ، اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان ، قريان
في السن ، يركبان أمام السلطان في بعض المواكب السلطانية ،
ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جفير :

جمعة من جلود لاختشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦) .

المجدار :

الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

المجدار :

هو الذي يمشي في المواكب السلطانية من يمين السلطان حاملاً
دبوساً له رأس ضخم مذهب ، على أن يتجه نظره إلى السلطان من
أول خروج الموكب حتى انقضاؤه .

جناية :

وجمعها جنايات ، وهى ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات
تأديبية على رعيته .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١) .

جنب :

وجمعها جنائب ، وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب
لاحتمال الحاجة إليها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٣) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والحنكيات الجوارى اللاتى يلعبن على
الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقاص الأفراح . واتمنى معظم هذه
الفئة من الرقاصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٣) .

الجنوبة :

النقالة التى تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين (في حضرة عظيم) .

الجوكان :

غصن مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برامها خشبة مخروطية
معموفة تزيد عن نصف ذراع ، تستخدم في لعب الكرة (بولو) .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ ،
ص ٤٣٥) .

الجوكندار :

هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

(ح)

الحاجب :

أمير وظيفته أن ينصف بين الأمراء والجند ، تارة بنفسه وتارة
بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يره ،
وعرض الجند وما ناسب ذلك ، .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩) .

حاجب الحجاب :

تسمى وظيفته الحجووية الكبرى ، وهو يقوم بالنظر في غاصات
الاجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك ، .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩) .

حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها في الأماكن التي ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

حراره :

وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية (كالنار الآفريقية) ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستمراضات التي تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .
(قاموس محيط المحيط ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٠٦) .

حرمى :

وجمعها الحرسية ، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأماكن .

حرفوش :

وجمعها حرافيش أو حرافشة ، أى الرعاع والدهماء وضفاف الخلق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمدان :

حقيبة السفر ، المحفظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ أيضاً على حقيبة الخلاق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمية :

قاعة خاصة بالحريم في عمارة القصر أو البيت الإسلامي، وهي تشمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحقوق من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهي التي عرفت بعد ذلك في العصر العثماني بالحرم ملك.

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤) .

حبر خبار :

هو الثوب أو القماش الذي يبدى أكثر من لون واحد .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحماية :

وجمعها حمايات ، وهي مكس يمرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرزاقي ، ويقوم الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣) .

الحمل :

وجمعهم حمل ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظلماً من الأموال إلى خزائن السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحوائج خاناه :

ومعناها بيت الحوائج : وهي الجهة التي منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر ، وكذلك توابل الطعام ... ،

(الفقه شندی : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٢) .

الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هي الشرايخانة ، والطشت خاناه ،
والفراش خاناه ، والسلاح خاناه ، والركاب خاناه ، والحوائج خاناه ،
والمطبخ ، والطبلخاناه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل
فيها وتديرها .

حورندار :

وجمعه حورندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من الكراكي
والبلشونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور ، وأصل اللفظ حيوان دار .
(القلقهندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠) .

جباصة :

وجمها حوائص ؛ وهي الحزام أو المنطقة .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p.p. 146 — 147)

(خ)

خاتون :

لقب لقبت به الملكات والأميرات .

الخازندار :

المشرف على خزان السلطان من نقد وأمتعة .

الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد
الأمراء المقدمين . كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا

على الأربعمئة . وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلوانه بغير إذن ، وخصص لهم السلاطين الأوراق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر وأناقاة الركوب والملبس .

(كترمير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ - ١١٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ - ١٨٠) .

خاطية :

وجدها خواطي ، المرأة الداعرة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحان :

وجمعه خانات ، وهي الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الحان . كذلك يوجد بالحان بترمياه وميضأة ومسجد صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨)

خان :

وجمعه خانات ، أماكن العبث واللهو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خانقاه :

وجمعه خرائق وخانقاوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للمباداة والذكر .

(٢٨ - العصر المالكي)

خبز :

وجمعه أخبار . من معاني هذا اللفظ. في هصر الممالك إقطاع من الأرض ، فيقال أخبار الأجداد أى إقطاعاتهم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحبز القار :

أو المقر بالنار ، وهو الحبز المقدد الذى يمكنه مدة أطول فى النار حتى يمكن حفظه أو تخزينه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخوانق يفضلون هذا النوع من الحبز على غيره .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٦٩٩) .

الخرستان :

وجمعا خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٣) .

الحركاء :

« بيت من خشب ، مصنوع على هيئة مخصوصة وينشئ بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد » .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

الخروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والخروبة أيضاً مكيال .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١) .

الخزان :

الشخص الذى يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان فى الأسفار والحروب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٢٧ حاشية ١) .

خشد اش :

زميل فى الخدمة ، والخشد اشية هى رابطة الزمالة بين الأمراء الذين
نفاوا ومالك عند أستاذ أو سيد واحد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٨٨) .

الخطة :

لعبة تلعب ببعض البندق والحلوى والماء وما شابهها ، وهى تقوم
على أساس القرعة فن وقع له الحلوى أو البندق أكل وشرب الذى
يجواره وقد تكون الحلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ،
فيضطر من يجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك
المجموعة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥) .

الخواجا (الخوجة) :

المعلم ، التاجر ، الكاتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوانيق :

المرض المسمى بالذبحة

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوخة :

باب صغير فى بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن
يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليومي ، فلا تكون حاجة

إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة . وقد يقصد
بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢) .

خوشطاشة :

وجمعها خوشطاشية ، وهي امرأة من موظفات القصر السلطاني .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صينية من الخشب أو المعدن .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء ،
(سيد ، سيدة) .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خيل النوبة :

الخيال التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ،
وتسمى أيضاً فرس النوبة .

(د)

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهي آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ،
وتكون من عدة أدوار تصعد إليها الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق
الأسوار .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجمه دبايس : آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه
الإبرة . كانت تصنع من هود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ
فى أحد طرفيه رأس من حديد تطرها ثلاث بوصات تقريباً .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

درابة :

جمها دراريب ، إحدى مصرعى الباب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الدراعة :

جمها دراربع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢) .

الدرب :

وجمه دراب : باب السكة الواسع .

درج :

وجمه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلشندي
« الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو فى عرف الزمان
عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير » .
(القلشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨) .

الدركاه :

وجمعها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لمدخل بناء كبير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمر الدستورياً ، أى أعطاهم إذناً بكذا .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للأراضي المزروعة التي يمسحها السلطان من المساحين ، ويلزمه أن يعمل القناديق والقوانين والسجلات ، ويفصل الأرض ببقاعها وأصناف مزرعاتها وقطائعها وأسماء المزارعين .
(ابن عاتى : قوانين الدواوين ص ١٠) .

منة :

وجمعها دمن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩) .

الدوا دار :

أى عسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوا دارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

دولاب :

وجمها دواليب ، وهى الآلات العجلة المستعملة فى الزراعة والصناعة
مهما ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤) .

الدينار الديوانى :

الدينار الشرعى الصادر عن الديوان أو دار الضرب السلطانية ، فهو
مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بوزن معين وعيار معين من
الذهب ، ولذلك يكون مقبولا فى المعاملة لدى الناس فى الأسواق .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨) .

الدينار الصورى (الشخص) :

تطلق الدنانير الصورية أو الشخصية على الدنانير الإفرنجية ، وسميت
كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجوهها .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١) .

الديوان الخاص :

هو الديوان السلطان الخاص بالنظر فى أموال السلطان والتحدث
فى جهاته ومضائقه .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦)

ديوان المفرد :

الديوان الذى يتولى ثقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق
وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧)

ديوان المواريث الحشرية :

(انظر المواريث الحشرية) .

(ر)

رأس المبصرة :

كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة ، وهم أمراء المشورة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧) .

رأس النوبة :

وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على المالك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

الرباط :

وجمه ربط ورباطات ، وهو في الأصل مكان إقامة الحامية المربطة عند ثغور العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يربطون للزهد والعبادة .

الربع :

عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣) .

الرخمت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والماشية والخيول والرياش ، والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير في الأسفار .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦) .

الرزق :

وجمه أرزاق ، وهي المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية .

الرزقه :

وجمها الرزق ، وهي الأطيان التي كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجاج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإعانة رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضي ما هو موقوف صرف ريعه على المساجد والطحوانات والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ريعه إلى مستحقيه ، والرزق التي من النوع الأخير تنحل بانقراض أصحابها . (أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦) .

رستاق :

وجمه رسائيق ، وهي القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسي ومنه بالعربية رزداق وجمعه رزاديق . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢) .

الرفرف :

سقف خشبي مائل ، يحمل على كباش (كوابيل) خشبية مثبتة في

الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من
المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل في تغطية الميضاء وسط الصحن
المكشوف في المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠) .

رفيعة :

وجمعها رقايع ، وهي الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، تحمل على رقبة الفرس
السلطان في موكب العيدين ، وتكون من تحت أذني الفرس إلى
نهاية عرقة .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

ركاب :

وجمعها ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء
لترويضها وتدريبها (سائس) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الركاب خاناه :

أي بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم وغيرها من معدات
ركوب الخيل ، وله موظف موكل بحواصله يبرعته بمقتار الركاب خاناه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الركابدارية :

هم الذين يعملون الفاشية بين يدي السلطان في المراكب ، وهم تابعون
للكاب خاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى ، ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ... بحسب ما يختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك دهنًا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر وشون الغلال والأمالك والمراكب وغير ذلك .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢) .

روشن :

وجمعه رواشن ، وهى النافذة أو السكة للإضاءة وقد يقصد بها الخرجات فى المعائر .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢) .

(ز)

زاوية :

وجمعا زوايا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال .

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظه وإرشاده من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية في العصر المماليكى فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .
(انظر مادة زاوية فى دائرة المعارف الإسلامية — برونسسال) .

زبدية :

وجمها زبادى ، وعاء للشرب أو للطعام .

الزحافة :

وجمها زحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار .

الزراق :

وجمه زراقون ، أى رامى النفط من الزرارة وهى الأنبوبة التى يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وبها دمن السيوف والقصى العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المسانع ... وفى كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يحمل على رؤوس الخمالين وينزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديده المستعملات جماعة كثيرة ... ،

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ - ١٢) .

الزردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الزردكاش :

الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه، فى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الزهر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المرفقة ، ويطاق اسم الزغلية على مزيفها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

زكاة الدولة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض
على من يستخدم الدواليب (أى الآلات والعجلات) فى الرى أو
الغزل أو صناعة السكر أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١) .

زكاة العداة :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية ،
وكانت تصل فى كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار (زنان دار) :

الموكل بحفظ الحرم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو
الأمير من الخدام والحصيان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ — ٤٦٠)

زئار :

جمعه زانير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة في العصور الوسطى .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الزئارى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث

لا يرى الذيل ، وكان الزئارى يعطى بدل الكنبوش لمن عظمته قدرته

ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية هـ) .

زنجير :

سلسلة .

الزبار (أو الزيارة) :

جمعها زيارات ، وهى آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق .

(م)

الساق :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد

السماط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السماط .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤) .

ستارة :

وجمعها ستائر ، حائط أو حاجز خارجى يهتمى خلفه المدافعون

عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من

قذائف العدو .

(Dozy : Supp. Dict. Are.)

السراخور :

وجمها سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ،
وتحرف أحياناً إلى سلاخور. وسلاخورية .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢) .

سرير الملك :

هو تحت الملك : وهو عبارة عن د منبر من رخام يصدر إيوان السلطان
الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى
الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل
عليه ونحو ذلك ... ،

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ - ٧) .

سفرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، وبوجد نوع من النبيذ الحبشي اسمه
سقرة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥)

سقيان :

خف ثان يلبس في القدمين فوق خف آخر ، إعتاد أن يلبسه
السلطان والأمراء والجنود والحريم في عصر المماليك .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٣١ حاشية ٥) .

سكرجة :

وجمها سكارج ، وهي الأواني .

السياط :

المائدة : ما يثبت على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكلين .

السط :

الثوب الذي ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وحمه سناجق ، وهي أيات صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجمه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة ساقية الماء في جامع أو غيره .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ حاشية ١) .

سوسي :

نوع من الملابس أو الأقمشة المخزفة أو المطرزة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت في حمل القمصان (السواسي) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ش)

شاد (أو مشد) :

مفتش ، فيقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع

حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ،
فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢) .

شاد العماير :

يكون صاحب هذه الوظيفة دمتكلم فى العماير السلطانية بما يختار
السلطان إحداثة أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار ،
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة ، ويقال للوظيفة
الشحنكية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشرابخاناة :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة — ومنها الأدوية —
التي يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الألوان النفيسة المصنوعة من
الصيفى الفاخر .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ . النويرى : نهاية الأرب
ج ٨ ص ٢٢٤) .

الشرابي :

هو الذى يصنع الاشربة والأدوية ، وهو أحد رجال الشرا بخاناه ،
مثل الشربدار .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩) .

الشرب :

وجمه شرابي ، قمش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم
الأحيان للعلماء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرا بخاناه السلطان أو الأمير ، وكانت
هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الأمير
الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاسمه الساقى .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤)

الشربوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة الأمراء فلا يلبسها
المعمرون ، وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشش :

لوح من الخور ،

(أبو المحاسن : النجوم — طبعة كاليفورنيا ج ٦ ص ٧٩٨ — ٧٩٩)

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والترنيمات التى كان يظهر بها السلطان فى المواكب سواء داخل القلعة أو خارجها .
(القلافشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للنقود أو غيرها
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشلاق :

الزعر والرعاع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الحرف فى قلوبهم ، والشلاق الضرب بالسوط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدق من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥) .

شمعة :

وجمعها شموع وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

شمبر :

وجمعها شمبر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر الفاتم ، عرضه شهران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رءوسهن فوق العصاة بحيث يثقل أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها ،
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥٢٨ حاشية ١) .

شبنى (شبنية) :

وجمه، شوانى ، أكبر نوع من السفن الحربية عرفتة مصر فى العصر
الممايكي ، وكان يحذف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة
والجدافون

(ابن مأتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

(ص)

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بفهر ثمن معين .
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤) .

صفه :

مسطبة ، أريكه ، مقعد .

صولق :

وجمه صواقي ، وهو جراب أو كيس من جلد توضع به حاجات
السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .
(المخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ،
حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨) .

(ط)

الطارمة :

وجمه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس
السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الطاريء :

ثالث سماء سلطانى يمد فى أول النهار ، ويكون منه مأكل السلطان .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١) .

الطباىمى :

طبيب الأمراض الباطنية .

طبر :

وجمه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب تبر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان - أى فأسه - عند ركوبه فى المراكب .
وأمر طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢) .

طبقة :

وجمها طباق ، وهى ثكنات الممالك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة
تضم الممالك المجاورة من لد واحد .

(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤) .

الطراحة :

وجمها طرايح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طراد (طريدة) :

وجمه طرائد ، وهو نوع من المراكب الجارية يستعمل غالباً في حمل الخيول والفرسان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ابن ممتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب عليه عادة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبي المدخل الرئيسي للعمارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على واجهة العمارة .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨)

طرخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه ، وإذا كان له أن يقيم حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرود ، وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طريدة :

(انظر طراد) .

الطشت خاناه :

أى بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي
والقماش وغيرها ، فضلا عن المقاعد والمخاد والمسجادات التى تلزم
السلطان ، وللطشت خاناه مهتار يشرف عليه .

(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

الطشت دارية :

هم غلمان الطشت خاناه .

(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

طلب :

لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ،
ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ
فأصبح يطلق على المكتيبة من الجيش .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢) .

الطمغا (تمغا) :

البراعة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين
خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١) .

الطواشى :

وجمه طواشبة ، وهم الحصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ،
وفى الحريم السلطانى ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة ناذرة ،
ويعد شيخهم من أعيان الناس .

(المقرئى : المواظ ج ٤ ص ٢١٩) .

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢) .

(ظ)

الظرف :

وجمه ظروف ، وهو الوعاء وكل ما يستقر فيه غيره .

(ع)

العاقد :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ،
وهو دون القاضى فى الرتبة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

العامل :

وجمه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الدىوانية وكتابتها .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

المبرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المالى القديم مقدار مربوط
من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل
عن كل قرية من عين أو غلة .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٥١٠) .

عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الإيتام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب عادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصاية :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣)

العنبرينه :

نوع من الخلى المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والعنبريون هم نجار العنبر المستخدم فى الخلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣)

(غ)

الغاشية :

قبة د من أديم مخروزة بالذهب ، يحاطها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المراكب الحفلة كالأيادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧)

غراب :

وجمه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدا فون .
(ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٩ - ٢٤٠) .

الغفار :

وجمه غفائر ، المعطف .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

غلام :

وجمه غلمان ؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل ، وهذا اللفظ د في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

(Dozy : Supp Dict. Ar.)

الغيار :

نوع من الملابس تميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

(خ)

فانوسية :

وجمعها فانوسيات ؛ كمية معينة من شمع الفوانيس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الفراش خاناء :

بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط والحيايم
اللازمة للسلطان في أسفاره وإقامته خارج القلعة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١) .

فرس النوبة :

فرس مجهز بالمرج والفاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان
لاستخدامه في الطوارئ أو للركوب إعلالاً بقيام سلطان جديد .
(ابن أبي الفضايل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٣٢) .

الفرمان :

وجمعهم فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاية
والوكلاء والقضاة يعلن فيها تقليد مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة اثنين من الفضة وثلاث من
النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦) .

الفلس :

وجمه فلوس ، عملة صغيرة ، وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق . (الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤) .

فهاد :

وجمه فهاده ، وهم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤) .

فوطه :

مرادف البقجة ، وهي قطعة من قماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١) .

الفوقانية :

وجمها الفوقانيات ، الرداء الذي يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية . (Dozy : Diet. Vet. Ar.)

(ق)

القباء :

ملبوس (فرجية - قفطان) وقد وصف المقریزی الأقيية على عصر المماليك بأنها إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.)

القبر :

آلة موسيقية .

قبع :

وجعه أقباع ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً .
وكان يوضع تحت الطربوش الذى تلف حوله العمامة . وجاء فى خطط
المقرئى ذكر سوق الإقباعين .

(ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤) .

القبق (القباق) :

القرعة العسلية ، وأطلق فى عصر المماليك على الهدف المستعمل فى
لعب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على
شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) .

قرباص :

وجعها قراييص ، وهى الحجارة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرط :

البرسيم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤) .

قراطس :

وجعها قراطيس ، وهى نوع من الفلوس النحاسية أو الدراهم المنقوشة
على شكل أصبع .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرقل :

قيص النساء ، أو الثوب الذى لا يكامله والمرقل كذلك سلاح يشبه
الدرع يتخذ من صفائح الحديد ويغشى بالديباغ الأحمر والأصفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤)
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٣٠٠) .

القصة :

الطلب ، الإلتباس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة
السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤) .

القطاعة :

وجمها قطاطيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمها قطائع ، وهي الفئة من الجند .

القلمة :

وجمها قلاع ، قصد بها - فضلا عن معناها الأصلي وهو الحصن -
قوس النصر أو الزينة التي تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب
ليمر من تحتها موكب السلطان .

قلنصورة (أو قلنسية) :

وجمها قلانس ، لباس للرأس (طاقيّة - طربوش) تصنع من جمل
الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

القلوبات :

اللوز والجوز والبندق والفسطق وسائر أنواع المكسرات المشورة .

(Dozy ; Supp. Diet. Ar.)

القمن :

نوع من الخمر يصنع من لبن الخيل ، والاعظ. ترى لأصل .

(زيادة : السلوك ص ٦٧ حاشية ٢) .

القند :

وجمعها قنود ، عصارة قص السكر إذا جمد

القرد :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحيوانات
النادرة

القياسة :

وجمعها قيايس ، سفينة تستعمل في الإبحار في المياه القليلة العمق كشواطئ
البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطينة السير .

(Dozy ; Supp. Diet. Ar.)

القياسية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة ،
أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق
للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

(Dozy ; Supp. Diet. Ar.)

القيطون :

والجمع قياطين وقياطن ، الحجرة الصغيرة في لغة أهل مصر ، والحجة
في لغة المغرب ،

(Dozy ; Supp. Diet. Ar.)

(ك)

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن ، وهم كذلك أرباب المال والأعمال المصرفية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى . وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (بالسودان الغربى) فلبسوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٣٧ حاشية ٣) .

كاملية :

وجمعه كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.) -

كبش :

وجمعه كبوش وأكبش ، آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهدمها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كجاوة :

هودج النساء (فارسية) .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠) .

كحال :

طبيب العيون .

السكران :

كوز ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

السكراع :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس (كردوسة) :

وجعها كراديس ؛ وهي الفرقة الحربية الراكبة والنقطة العظيمة من الخيل .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

السكراغند :

وجعها كراغنديات ؛ وهو المغطى القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

السكرابة :

هم الذين ينتهزون فرصة الفتن للنهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم .

السكرارة :

وجعها كسارات ؛ وهي من أدوات التعذيب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

السكراف :

وجعها السكرافة ؛ جماعة معينة من المسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

(٣٠ — العصر المالكي)

الكلابى :

وجمه الكلابية والكلابية ؛ ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى
تربية الكلاب وبيعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بكلاب
الصيد عند سلطان أو أمير وقد يقصد باللفظ أيضا الفؤاد والدهماء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١) .

الكلاليب :

ومفردها كلاب ؛ وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلونه .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكبندة :

وجمها كبندات ؛ وهى لباس الرقبة أو الكوقية يلبسها النساء على
ردوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق ردوسهن من اللباس .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) . وهى كذلك جزء من غطاء الرأس
سواء كان عمامة أو كلوته (زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٤ حاشية ١) .
كفته (كفتاه أو كفتته) :
انظر كلوته .

كاوتة :

وجمها كاوتات ، غطاء الرأس : طاوية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة .
وتسمى أيضا كفه وكفتاه وكفتته .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١) .

كر :

وجمه كرات ، لفظ فارسي . معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع
النقود والأشياء الثمينة فيه .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١) .

كنبوش :

وجمه كنباش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحيانا إلى كنفوش وكنافيش .

كوسه :

وجمها كوسات ، وهي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ، يلقى بأحدها على الآخر بإيقاع محروس . وتكوسى هو الذى يضرب بالكوسات .

(القلشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٩ : ١٣) .

(ل)

اللاطية (اللاطئة) :

وجمها لاطيات ، وهي القلائد الصغيرة ناطأ بالرأس أى تلتصق بها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

اللبخة :

لعبة استحدثت في عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم التخطيط أو النبوت ، فكان المخصص يخرج له عشرة من الشطار ويجمعون عليه بالضرب فيمسك عصا من وسطها ويرد الجميع ، .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٠٣ الشعراني : الطبقات الكبرى

ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧) .

(م)

المارستان (البهارستان) :

مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم .

مباشر :

وجمه مباشرون ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشرو الختم :

أطلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفي الجمارك في العصر الحالي ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك موظف من موظفي السلطان .

(مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

مثال :

وجمه مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية لإيداعها بإعطاء أحد المالكين إقطاعا من الإقطاعات الحالية .

(الفلقتشندی : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣) .

مجارة :

وجمعها مجاير ، وهي صناديق تشد إلى جانبي الرجل ، وكان للمجاير سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المجايريين .

(المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٠١) .

المخايل :

وجمعها المخايلون ، الرجل الذى يدير لعبة خيال الظل .

مخفية :

وجمعها مخافى ، طبق واسع عميق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام فى الموائد الكبرى وللروائب المقررة للأسراء .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٣) .

مدورة السلطان :

خيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له فى الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمعها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها مرج الفرس وتقاط بقماش السرج .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مرمة :

وجمعها مرمات ، نوع من السفن الكبار .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذى كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتابة .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٨ — ٤٨٠) .

الروزي :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الزملاني :

هو الذي يقوم بتسبيل الماء في السبيل ، ويتولى الخدمة في الأوقات

المحددة ليسهل الشرب على الناس والحيوان .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٦٨) .

المسالة :

(انظر أسلى) ،

المسترة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ،
وتكون حديدية غالباً .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢١٧) .

المستوفي :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له
والتنبيه على مافيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن
المستوفين مستوفي الصحة وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور
العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . ومثله في النفوذ مستوفي الدولة .
وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر ونحته المستوفي والشاهد .

(القاموس : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

مسنخة :

وجمها مساخر : وهي الماب لإضحاك الناس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مسطبة :

الجزء الأمامي من الدكان ، وتمتد خارج إفلاق الدكان نفسه لارض
البضائع عليها أو الجلوس المترددين على المتجر .

مسطح :

وجمه مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المسقفات الهلالية :

هي العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحواري ورباع وخانات
وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتي تدر دخلا هلالياً أو شهرياً
(مال هلالى) ، ويطلق عليها كذلك اسم المستغلات الهلالية .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢)

المشارفة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة
في الأوقاف .

(ابن مائى : قوانين الدواوين ص ٣٠٢) .

المشتريات (المشتريات) :

هم المالك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلطان يشتريهم لنفسه .

المشير :

(انظر الإشارة)

المصانعات :

أموال الرشوة والمدارة .

مطلق :

جمعه مطلقات ، وهي ما يرسله السلطان من رسائل عامة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، وفي هذه الحالة تصدر مختومة .

(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٣١) .

المعادي :

المراكب التي استخدمت لتعديّة الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التعديّة . ومن هذه المعادي في عصر المماليك معدية ابابة ومعدية المقياس ومعدية الجسر بالجيزة ومعادي جزيرة الذهب .

(المقرئى : المواءظ ج ١ ص ١٠٤ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١) .

المعالج :

وجمعها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

المعامل :

وجمعه معاملون ، وهم المتعهدون الذين يمدون المطبخ السلطاني بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

المعصرة :

آلة للتغذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما يوضع بينهما وجه الماعقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ؛ ثم تدح الخشبتيان شدّاً وثيقاً حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر نظم المعصور بين الخشبتيين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣)

المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتي دون المدرس في الأهمية ، وعمد أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

المفرد :

هو الديوان الذي كانت تخرج منه في زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع تأسيبه إلى أيام الفاطميين .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ ، خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧) .

المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

المفرد :

يطلق اللفظ على الجندي أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من الصعيد (هل مبارك : الحطط التوفيقية ج ٩ ص ٢٥) .

مفردى :

وجمعه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون
ديوان المفرد مباشرة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة في عصر المماليك ، فيقال المقام
السلطاني أو المقام العالي السلطاني للسلطان ، والمقام الملكي للملك
نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالي فقط
فكان من الألقاب التي اشترك فيها أرباب السيوف والأقلام .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥) .

مقدم الدولة :

هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد
المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرب بمتعلقات الوزارة
كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ...
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه
ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان الأمراء أيضاً مقدمون للقيام على
شئون ماليهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث في شأنهم وبمحكم
فيهم ، كما كان يحضر تفرقة الجامكية عليهم .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٢ ، ابن إياس : بدائع
الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١) .

المقر نص :

وجمعها مقر نصات ، خلية مهارة استخدمت على نطاق واسع في عصر المماليك في أجزاء مختلفة من القاهرة مثل أركان القباب والمنارات .

(هبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١) .

مقنع :

وجعه مقانع ، وهو منديل تغطي به المرأة رأسها ويكون أضيق من القناع ، أو هو النصف الذي تغطيه النساء فوق وجوههن .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٣٣ حاشية ١) .

مكاحل البارود :

هي المدافع التي يرمى منها النفط . وهي أنواع .
(أبو الحسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧) .

المكس :

وجعه مكوس ، وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجاً عن الخراج الشرعي .
(المقرئى : المواظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ،
القاقلشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١) .

مكوك :

وجعه مكاكك ، وهو مكبال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع قدر نصف وية ، والوية ثلاث كيلات ،

الملطفات :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التفرير والتأمين ، تمهيداً لما يرمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٣) .

الملوطة :

وجمها ملايط ، قباه واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو الكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

المماليك الأحداث :

هم المماليك الحديثو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١) .

ماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً الفرجية .

(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

الممالك الحرسية :

هم الممالك الذين يوكلون بحراسة مكان من الأماكن .

الممالك الخاصة :

قسم من الممالك السلطانية يتميزون عن بقية الممالك السلطانية بانضوائهم وهم صفار في خدمة السلطان ، وهو الذى يتولى تربيتهم وهنقم .

الممالك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه في السلطنة ، ومرتبائهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمه مناخات ، وهى الأماكن المخصصة لأنواع الجمال السلطانية — كالإصطبلات لأنواع الخيل — وجميعها كانت تابعة لإدارة الإصطبلات السلطانية .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقرئى :
المواظع ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥) .

منجنيق :

وجمه مجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧) .

منقور :

وجمه مناشير ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٨) .

المنضة ، المنطق) :

نوع من الأحزمة التي توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء في دوزي أنه لا يجوز للرجال التحلي بالذهب والفضة إلا في ثلاثة مواضع هي الخاتم والمنطقة وحلية السيف .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 420.)

المنفر :

الذي ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار الشرايخانة ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه .
(الفلقشندي : ج ٥ ص ٤٧٠ . أبو المحاسن : التاجوم ج ٩ ص ٤٧ ، حاشية ٣) .

المهندار :

هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩) .

المواريث الحشرية :

هي تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١) .

المودع :

وجمعه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لغرض معين ،
ومودع الحكم صندوق يوضع في عهد قاضي القضاة لحفظ احوال
اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣) .

المؤدب :

معلم المسكتب ، الذي يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم علما
وخلقيا .

الميعاد :

درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه
المواعيد ميعاد الرقائق (رقائق الحديث النبوي) .

(Dozy : Supp. Diet. Ar.)

الميعات :

وظيفة من الوظائف الهامة في المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤلف عارف
بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة
بالميعاتي . وكان يعتمد في تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المرونة
والساعة الرملية وغيرها من الآلات .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١٦) .

(ن)

النفاس :

استعمل هذا اللفظ في مصطلح مؤرخي عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المالكي
سميت باسمه أولاد الناس ، سميت أبناء أمراء المالكي فقط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢) .

ناظر :

وجمعه ناظر ، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا
الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب الناظر حسب الأحوال
التي قاموا بها ، فناظر الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ،
وناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان ، وناظر الدولة يشارك
الوزير في التصرف عامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر
الناظر أو صاحب الشريف ومقره ديوان الناظر .
(القلعة هندی : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) .

ناظر الأمراء :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شئون الخلال السلطانية
وما يصل إليها من خلال وما يصرف منها .
(القلعة هندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، ليقوم بمشاركة الاستادار
— وهو من أرباب السيف — في إدارة البيوت السلطانية كلها من
المطابخ والشرابخانة والحاشية والغلمان .

(القلعة هندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم بالتحدث على ديوان المواريث الحشرية ، من يموت

ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق
جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣) .

ندب :

وجمعه أنداب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

ندب :

ندب الذئباب اللعب به ، يقال لعب أندابا في الميدان ، وكان عارفا
بأنداب الحرب .

(كتر مير ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٨ أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٦٨٧)

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النصفية :

وجمعهما نصفاني ، قماش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ
على ثياب من القطن الخشن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النقرة :

انظر الفضة .

نقيب :

وجمعهما نقباء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير
تأدية الخدمات الصغيرة لسيده .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢) .

(٣١ - العصر المالكي)

نقيب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد
الحلقة ونحوهم .

(القلقشندى : صبح الأئشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦)

نقيب المماليك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة مقدمة المماليك وموضوعها ، التحدث
على المماليك السلطانية والحكم فيهم ، .

(القلقشندى : صبح الأئشى ج ٤ ص ٢١ ، زيادة السلوك ج ٢ ،
ص ١٦٥ حاشية ١) .

النوبة :

الوقعة الحربية ، ويقال ضربت النوبة أى صدر الأمر للمسكر بالتقهقر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سويًا ، أو لمجموعة من المطربين إذا
اجتمعوا (أوركستر) .

النوبة :

فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس
يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النياية :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل
الممالك الإسلامية . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في
التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك
نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لا يختص الواحد منهم إلا بما
يتعلق بمحدوده نيابته .

(القلقشندي : صبح الأشتى ج ٤ ص ١٦) .

(٥)

الخرجة :

دنانير تستعمل خاصة في الحل كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ
في أطرافها حلقات صغيرة أو يعمل في جوانبها ثقب ، ومفرد هارج .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٩٣ حاشية ٤)

الحناب :

قدح الشراب

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٦)

وافدى :

وجمعه وافدية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى بلد جديد ، وأخلق هذا
اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك في مصر
والهمام . واختص به — بوجه خاص — الأفراد الذين هاجر
معظمهم من بلاد المغول إلى مصر وافدين مستأمنين أحرارا لا أجلابا

مملوكين . واندمج كثير من أولئك الوافدية في فرق المماليك السلطانية حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، غير أنهم ظلوا دون المماليك الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا نشأة مملوكية .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠) .

الورق :

الدراهم الورق — يفتح الواو أو ضمها — هي الدراهم المضروبة .

ورقة :

وجمعها أوراق ، استعملت في عصر المماليك بمعنى الصك الذي يكتبه المدين للدائن .

وزير الصحة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرا متنقلا ، يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الشؤون ، وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) :

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الخذاء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوطاق :

الخيمة الكبيرة التي تعد للعظماء .

الوكالة :

فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

(ى)

اليرك :

رئيس الشمس ، ومن براقب من مظى فينبهه .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٣) .

* * *

قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم علي طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة

(القاهرة ١٩٦٠)

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

(القاهرة ١٣٥٧ هـ)

— أحمد هزوت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

(مقال نشر في حواشيه كلية الآداب)

— ابن الأخوة :

معالم القرية في أحكام الحسبة

(كبرج ١٩٣٧)

— آدم ميتو :

الحضارة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٧)

— ابن إلياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة إولاق في ثلاثة أجزاء (١٣١١ - ١٣١٢ هـ) ، وكذلك

رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية

المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها دكتور محمد مصطفى .

— ابن أيبك :

كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب

(مخطوط)

— ابن بطوطة :

رحلاته ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(باريس ١٨٨٠)

— البلاذري :

فتوح البلدان

(القاهرة ١٣١٨ هـ)

— البلوي المغربي :

رحلاته ، المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق .

(مخطوط)

— بيهرس الدوادار :

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

(مخطوط)

— توفيق امكندر :

نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية .

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧) .

— توماس أرنولد :

الدهوة إلى الإسلام

ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد طه الدين واسماعيل النمر اوى .

(القاهرة ١٩٥٧)

ابن الحاج :

المدخل — أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٢٩)

ابن حبيب :

درة الأسلاك في دولة الأتراك .

(مخطوط)

ابن حجر :

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

(الهند ١٩٢٩)

أربعة أجزاء

حسن أحمد محمود :

الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا .

(الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣)

حسن الباشا :

التصوير الإسلامي في العصور الوسطى

(القاهرة ١٩٥٩)

حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية

(القاهرة ١٩٤٦)

جزءان

الحالدي :

كتاب المقصد الرفيع اللغوي لديران الإنها

(مخطوط)

— ابن خرداذبة :

الممالك والممالك

(لين ١٨٨٩)

— الخطيب :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان

(مخطوط)

— ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(يولاق ١٢٨٤ هـ)

— خليل بن شاهين الظاهري :

زبدة كنه الممالك وبيان الطرق والممالك .

(باريس ١٨٩١)

— ابن دقاق :

الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين

(مخطوط)

— ديماند :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٥٣)

— رشيد الدين الحمذاني :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نفحات ومحمد موسى هندواي

وفؤاد عبد المعطي الصياد .

(القاهرة ١٩٦٠)

— زكى محمد حسن :

١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨)

٢ - أطلس الفنون الزخرفية والتماثيل الإسلامية .

(القاهرة ١٩٥٦)

— ابن زابل :

آخرة المماليك .

نشره عبد المنعم عامر

(القاهرة ١٩٦٢)

— ديتريش شتين :

تاريخ سلاطين المماليك

(لندن ١٩١٩)

— سبط بن الجوزى

مرآة الزمان

(الهند ١٣٥١ هـ)

— السبكي :

معيد النعم ومعيد النقم

(لندن ١٩٠٨)

— السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى ، ستة أجزاء

(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

— السنخاوى :

التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

(القاهرة ١٨٩٦)

— السخاوى :

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

(القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦)

— سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الاثرية

(القاهرة ١٩٦٠)

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ — الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

٢ — قبرس والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧)

٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٦٢)

٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٥٩)

٥ — الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٦٣)

— السيد الباز العرينى :

الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٥٦)

— مهرة الظاهر بيبرس (خمسون جزءاً) (القاهرة ١٩٢٦)

— السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

(القاهرة ١٣٥١)

— السيوطي :

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

(القاهرة ١٨٨١)

— السيوطي :

غزوات قبرص ورودس .

(فينا ١٨٨٤)

— ابن شاكر الكتبي :

(مخطوط)

عيون التواريخ .

— ابن شاكر الكتبي :

فوات الوفيات .

(بولاق ١٨٨١)

جزءان

— أبو شامة :

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

— ابن الهدايا :

أخبار الأعيان في جبل لبنان .

(بيروت ١٨٥٩)

— الشربيني (يوسف بن محمد بن عبد الجواد) :

(بولاق ١٨٩٠)

هر القحرف في شرح نصيدة أبي شادوف .

— الهمراني :

لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار

(القاهرة ١٨٨١)

جزءان

- صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت
(بيروت ١٩٢٧)
- عبد الرحمن فهمى :
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .
(القاهرة ١٩٦٤)
- عبد اللطيف ابراهيم على :
١ — المكتبة المملوكية
٢ — دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك
(رسالة تحت الطبع)
(القاهرة ١٩٤١)
- عبد الوهاب عزام :
محاسن السلطان الغورى .
(القاهرة ١٩٤٨)
- ابن عربشاه :
مجانب المقدور في أخبار تيمور .
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)
- على ابراهيم حسن :
دراسات في تاريخ المماليك البحرية .
(القاهرة ١٩٤٨)
- حماد الدين الكاتب :
الفتح القسى في الفتح القدسى .
(القاهرة ١٣٢٢ هـ)

— العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

(مخطوط)

— العيني :

السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد

(مخطوط)

— أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر

١٤ جزءاً

(القاهرة ١٣٢٥هـ)

— ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

(يدوت ١٩٣٦-١٩٤٢)

— ابن فضل الله العمري :

التعريف بالمصطلح الشريف .

(القاهرة ١٣١٢هـ)

— ابن قاضي شہبہ :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

(فيل تاريخ الإسلام) .

(مخطوط)

— القاسمندی :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزءاً

(القاهرة ١٩١٣-١٩١٧)

— القيروان :

المونس في أخبار إفريقية وتونس

(تونس ١٢٨٦هـ)

— ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

(القاهرة : ١٣٥٨هـ)

— أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى

ثلاثة أجزاء

(مخطوط)

— أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار السكتب المصرية حتى نهاية الجزء

الثاني عشر (٥٨٠٨) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا

نشر وليم بير (كاليفورنيا ١٩٣١) .

— أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة .

(كبردج ١٧٩٢)

— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

الطبعة الثانية

(القاهرة ١٩٦٠)

٢ — دولة بني فلان في مصر

(القاهرة ١٩٤٧)

— أبو محمد عبد الله باخرمه :

تاريخ ثغر عدن

(لندن ١٩٣٦)

— محمد كرد علي :

خطط الشام

جزءان

(دمشق ١٩٢٥)

— محمد كمت التنبكتي :

تاريخ الفتاح في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس

(باريس ١٩١٢)

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك في مصر

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥١)

(٣٢ — العصر المملوكي)

٢ — المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ — حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

— محمود محمد عرناوس :

تاريخ القضاء في الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

— عبي الدين بن عبد الظاهر :

١ — الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية

الأشرفية . (القاهرة ١٩٢٠)

٢ — تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور

لشر مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

— المسعودي :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧)

— مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد
(باريس ١٩١١)

— المقرئ :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ؛ نشره محمد مصطفى زيادة وجمال
الدين محمد الشيال .
(القاهرة ١٩٤٠)

٢ — البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأهراب .
نشره وستنفلك
(جوتنجن ١٨٤٧)

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك
نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ١٧٥٥ هـ ؛
وبقية المكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — شذور العقود في أخبار النقود .
(اسطنبول ١٢٩٨ هـ)

٥ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
طبعة بولاق في جزئين (١٢٧٠ هـ)
والطبعة الأهلية في أربعة أجزاء .
(القاهرة ١٩٠٧ م)

— نظير حسان معداوى :
نظام البريد في الدولة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٣)

— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأرب في فنون الأدب .

(مخطوط)

— النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)
الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة
الاسكندرية (جزءان)

(مخطوط)

— ابن واصل :
مفرج الكرب في أخبار بني أيوب . نشره وحققه جمال الدين
الشبال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ . وبقية الكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :
تاريخ ابن الوردى (جزءان)

(القاهرة ١٩٣٩)

تالياً : المراجع الأوربية :

— Allau :

The Cambridge Shorter Hist. of India.
(Cambridge, 1924)

— Alvarez :

Portugheus Embassy
(Glasgow, 1905)

— Arnoid :

The Caliphate

— Atiya :

Egypt and Aragon
(Lepzig, 1938).

— Beazley :

Note Book of Med. History
(Oxford, 1917)

— Coulbeaux :

Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie.
(Paris, 1929)

— Demombynes :

La Syrie a l'époque des Mamelouks
(2 vols.)
(Beirouth, 1921)

— Demombynes :

Masalik Alabsar
(Paris, 1927)

— Diehl :

Venice
(Paris 1916).

- D'O Hsson :
Hist. des Mongols (4. Vol).
(Amsterdam, 1852)
- D'O Hsson :
Tableau de l'Empire Othman.
(Paris, 1824)
- Grousset :
Hist. des Croisades et du Royaume
Franc. de Jerusalem (3 vol.)
(Paris, 1934)
- Hauteceour, et Wiet :
Les Mosquées du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Heyd :
Hist. du Commerce de Levant au
Moyen Age. (2 vols).
(Leipzig, 1885)
- Hobson (R. L.) :
A Guide to the Islamic Pottery of the
Near East.
(London 1944)
- Howorth :
The Hist. of the Mongols (4. vols.)
(London, 1885)
- Ibrahim Salamaï :
L'Enseignement Islamique en Egyote.
- Joinville :
Hist. de Saint Louis
(Paris, 1874)
- Kammerer :
Le Regime et le Status des Etrangers en
Egypte
(Memoires de la S. R. G. d'Egypte —
Tome 15 — Le Caire. 1929.

- King:
The Knights Hospitallers in the Holy
(London, 1931)
- Lane—Poole :
A Hist. of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1936)
- Lane—Poole :
Med. India Under Mohammedian Rule.
(London, 1912)
- Machaut :
La Prise de l'Alexandrie
(Geneva 1877)
- Mac. Michael :
Hist. of the Arabs in the Sudan.
(London, 1922)
- Makhlaras :
Recital Concerning the the Sweet Land of
Cyprus. (Oxford, 1932)
- Marco Polo :
Travels. (2 vols)
(London, 1903)
- Pilotl :
L'Egypte au Commencement du Quinzieme
Siecle.
(Le Caire, 1930)
- Quatremere :
Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans
Mamlouks de l'Egypte — 2 vols.
(Paris, 1837—1845)
- Reinaud :
Traité de Commerce entre la republique
de Venice et les derniers sultans Mameloucs
d'Egypte.
(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)
- Ronciere :
La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age.
(S. R. G. d'Egypte, 1925)

- Runciman :
A Hist. of the Crusades (3 vols.)
(Cambridge, 1957)
- Schefer :
Le Voyage d'Outremer de Jean Thénau.
(Paris, 1884)
- Schlumberger :
Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291
Par l'armée de Soudan d'Egypte.
(Paris, 1914)
- Setton :
A Hist. of the Crusades
(Pennsylvania, 1958)
- Stevenson :
The Crusaders in the East.
(Cambridge, 1907)
- Van Berchem :
Titres Califiens
(J. A. 1907)
- Wiet :
L'Egypte Arabe
(Paris, 1920)
- Wiet :
Lampes et Bouteilles en Verre émaillé
Catalogue General du Musée Arabe du
Caire.
(Le Caire, 1929)
- Wiet :
Objets en Cuivres: Catalogue Genral du
Musée Arabe du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Ziada :
Foreign Relations of Egypt in the 15 th
Century.
(Thesis).

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ج - ر

الفصل الأول : قيام دولة المماليك في مصر ١

أداة نظام المماليك في الدولة الإسلامية (ص ١) - ازدياد

نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين (ص ٣) - المماليك

البحرية (ص ٤) - المماليك البحرية وإنزال الحرمة

بالفراسيين (ص ٧) - نهاية الدولة الأيوبية في مصر (ص ٩) -

السلطنة شجر الدر (ص ١١) - السلطان المعز أيبك

(ص ١٥) - السلطان المنصور على بن أيبك (ص ٢٢) .

الفصل الثاني : المماليك والتتار ٢٦

سقوط الخلافة العباسية في بغداد (ص ٢٦) - التتار في

الشام (ص ٢٨) - السلطان المنصور قطز (ص ٣٠) -

موقعة عين جالوت (ص ٣٢) - توحيد مصر والشام

(ص ٣٦) - السلطان الظاهر بيبرس (ص ٣٨) - علاقة

المماليك بتتار فارس بعد بيبرس (ص ٤٦) .

الفصل الثالث : المماليك والصليبيون ٥٢

الشرق الأدنى بين خطرين (ص ٥٢) - لويس التاسع

في بلاد الشام (ص ٥٥) - الظاهر بيبرس والاستيلاء

على أنطاكية (ص ٥٨) - أبناء الظاهر بيبرس (ص ٦٦) .

صفحة

السلطان المنصور قلاون والصليبيون (ص ٦٩) - السلطان
الأشرف خليل بن قلاون (ص ٧٣) - طرد البقايا الصليبية
من الشام (ص ٧٤) .

الفصل الرابع : المماليك والنوبة ٧٧

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك (ص ٧٧) - السلطان
الظاهر بيبرس والنوبة (ص ٨٠) - السلطان المنصور
قلاون والنوبة (ص ٨٤) - السلطان الأشرف خليل
والنوبة (ص ٩٢) - السلطان الناصر محمد والنوبة
(ص ٩٨) - العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر
المنصور الوسطى (ص ١٠٠) .

الفصل الخامس : بيت قلاون ١٠٣

السلطان الأشرف خليل بن قلاون (ص ١٠٥) - السلطان
الناصر محمد بن قلاون (ص ١٠٧) - السلطان العادل كتبغا
(ص ١١٠) - السلطان المنصور لاجين (ص ١١٣) - سلطنة
الناصر محمد الثانية (ص ١١٥) - السلطان المظفر بيبرس
الجاشنكير (ص ١١٨) - سلطنة الناصر محمد الثالثة
(ص ١٢٢) - عصر أولاد الناصر محمد (ص ١٢٥) -
الوباء الأسود (ص ١٣٢) - عصر أحفاد الناصر محمد
(ص ١٣٤) - حملة بطرس لوردجنان على الإسكندرية
(ص ١٣٥) .

منحة

الفصل السادس : دولة المماليك الجراكسة ١٤٠

- أصل المماليك البرجية وتكوينهم (ص ١٤٠) - ظهور
- المماليك البرجية على مسرح الحوادث (ص ١٤٣) - ازدياد
- نفوذ الجراكسة (ص ١٤٩) - برقوق وتأسيس دولة
- المماليك الجراكسة (١٥١) - خصائص دولة المماليك
- الجراكسة (ص ١٥٨) - السلطان الظاهر برقوق (ص ١٦٠) -
- تيمورلنك ودولة المماليك (ص ١٦٤) - عصر أبناء
- برقوق (ص ١٦٦) - السلطان المؤيد شيخ المماليك
- (ص ١٦٢) - السلطان الأشرف برسباي وفتح قبرس
- (ص ١٦٩) - السلطان الظاهر جقة ق وغزو رودس
- (ص ١٧٧) - دولة المماليك في أواخر أيامها
- (ص ١٨٠) - السلطان الأشرف قانصوه الغوري
- (ص ١٨٥) - سقوط دولة المماليك (ص ١٨٧) .

الفصل السابع : بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك ٢٠٠

- امتداد نفوذ المماليك إلى الشام (ص ٢٠٠) - التقسيم
- الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك (ص ٢٠٥) -
- المجتمع الشامي في عصر المماليك (ص ٢١٣) - ثورات
- الشام في عصر المماليك (ص ٢٢٠) أثر نيابات الشام
- في أحوال دولة المماليك (ص ٢٣٠) .

صفحة

الفصل الثامن : العلاقات الخارجية ٢٣٣

الممالك ومغول القفجاق (ص ٢٣٤) - الممالك والدول
الإسلامية في آسيا (ص ٢٣٧) - سلطنة الممالك والدول
الإسلامية في شمال أفريقية (ص ٢٤٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك والسودان الغربي (ص ٢٥٠) - العلاقة
بين سلطنة الممالك والحبشة (ص ٢٥٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك ودول التركان (ص ٢٦١) - الممالك
والعثمانيون (ص ٢٦٦) - الممالك والدولة البيزنطية
(ص ٢٧١) - سلطنة الممالك والقوى الأوروبية (ص ٢٧٥) .

الفصل التاسع : النشاط الاقتصادي ٢٨٤

الزراعة (ص ٢٨٤) - الصناعة (ص ٢٨٨) - التجارة
الخارجية (ص ٢٩٢) - التجارة الداخلية (ص ٣٠٨) -
المالية العامة (ص ٣١٠) - السياسة النقدية (ص ٣١٥) .

الفصل العاشر : الأحوال الداخلية ٣٢٠

بناء المجتمع (ص ٣٢٠) - ثورات العربان (ص ٣٢٦) -
الحياة في المدن (ص ٣٣٠) - الثورات والفن السياسية
(ص ٣٣٥) - الجماعات والأوبئة (ص ٣٣٧) .

الفصل الحادي عشر : الحياة العلمية والدينية ٣٤١

النشاط العلمي في عصر الممالك (ص ٣٤١) - المدارس
والمكتبات (ص ٣٤٢) - المكتبات (ص ٣٤٥) -
المباني (ص ٣٤٧) - النشاط الديني (ص ٣٤٨) -

ملحة

التصوف والروايا (ص ٣٥١) - الخلافة العباسية
(ص ٣٥٤)

الفصل الثاني عشر : نظم الحكم والقضاء ٣٦٠
النظام الإقطاعي (ص ٣٦٠) - السلطان (ص ٣٦٣) -
النظام الإداري (ص ٣٦٦) - الدواوين (ص ٣٧١) -
القضاء والمظالم (ص ٣٧٨) .

الفصل الثالث عشر : الفنون ٣٨٣
العمارة (ص ٣٨٥) - الرسم والتصوير (ص ٣٨٧) -
النحت والحفر (ص ٤٠٣) - الفنون الصغرى (ص ٤٠٥)

كشاف شرح أم المصطلحات

الواردة في مراجع العصر المالكي ٤٠٩ - ٤٨٦
المراجع ٤٨٧ - ٥١٢

فهرس الخرائط

صفحة

- ١ - بلاد الشام والجزيرة في العصر المماليكى ٦١
- ٢ - ملكة النوبة المسيحية ٩٣
- ٣ - قبرس في العصور الوسطى ١٧١
- ٤ - دولة المماليك في أقصى اتساعها ٢٥٥

فهرس الصور

- ١ - جامع السلطان حسن بالقاهرة ١٢٩
- ٢ - مبخرة من عصر المماليك ٢٩٣
- ٣ - صورة غزال على إناء من خرف ٣٨٩
- ٤ - إناء من الزجاج المموه بالمينا ٣٩١
- ٥ - ثريا من النحاس ٢٩٣
- ٦ - سيفان من الصلب المكفت بالذهب ٢٩٧
- ٧ - معكاة من الزجاج ٣٩٩

للمؤلف

- ١ - قبرس والحروب الصليبية ١٩٥٧
 - ٢ - أوروبا العصور الوسطى ،
الجزء الأول - التاريخ السياسى
الطبعة الثالثة ١٩٦٤
 - ٣ - أوروبا العصور الوسطى .
الجزء الثانى - النظم والحضارة
الطبعة الثانية ١٩٦٣
 - ٤ - مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩
 - ٥ - الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى . ١٩٥٩
 - ٦ - النهضة الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ،
بالاشتراك
الطبعة الثانية ١٩٦٠
 - ٧ - المجتمع العربى
بالاشتراك مع مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة ١٩٦٢
 - ٨ - الظاهر بيبرس . ١٩٦٣
 - ٩ - المدينة الإسماعيلية وأثرها فى الحضارة الأوربية . ١٩٦٣
 - ١٠ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . ١٩٦٣
 - ١١ - الحركة الصليبية - - جزءان : ١٩٦٣
 - ١٢ - ثورة شعب . ١٩٦٤
 - ١٣ - العصر المماليكى فى مصر والشام . ١٩٦٥
- القائمة لسير . . .



0321118